يمان ملوك

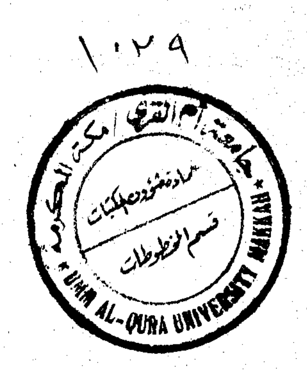
دراسة في الأيديولوجيا الصهيونية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الآداب

قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية

بإشراف

الأستاذ الدكتور طيب تيزيني



دمشق

١٩٨٣ ــ ١٩٨٤

مدخل الى البحث

سوف أوجز اتجاه عملي على النحو التالي :
انني أنوى أن انشئ بحثا في الصهيونية (أيديولوجيا وحركة) من خلال نقد لبعض التصورات والآراء عن الصهيونية كما تبدى في الفكر السياسي العربي السائد .
واحد مبررات مثل هذا الاتجاه يستند الى الواقع الثقافي الراهن فمكتبة الصراع العربي - الاسرائيلي أو المكتبة الفلسطينية ، اذا صحت مثل هذه التسميات ، تكاد تغص بالموضوعات المشابهة . لذلك فان أي بحث آخر حسب الانماط السائدة ، حتى لو استطاع التخلص من الاطار الانشائي أو العاطفي ، فانه لن يكون في أحسن الأحوال اكثر من بحث اضافي ، ومن الناحية السلبية لالزوم له .
ويكاد يكون من المسلمات أن الجدل في قضايا الفكر يولد أفكارا جديدة . وبالطبع من السابق لأوانه الحديث عن فوائد تتعدى النطاق المحدود . والأجدى الآن هو الحديث الأقرب الى النفس ان شعور الباحث أنه يستطيع أن يجد حججا لمقارعة حجج أخرى هو بحد ذاته شعور انساني دافع على المثابرة ويجعل العمل أقل عناء . واذا كان الهدف من المحتم الوصول اليه ، فليكن الحكم ، اذن ، على جدوى الطريق عند نهاية المطاف .
سأختار كموضوعات قابلة للنقاش مجموعة محددة من الافكار والآراء ، ألخصها في البنود الستة التالية :

أولا - الصهيونية (الايديولوجيا) هي الفكر السياسي للطبقة البورجوازية اليهودية . ولقد ظهرت هذه الايديولوجيا كتعبير من هذه الطبقة بسبب صراعها على المصالح الاقتصادية مع الطبقة البورجوازية الأوروبية المسيحية ، ولما كانت السوق الأوروبية مغلقة لصالح البورجوازيات الأوروبية المسيحية ودولها القومية ، لذلك فتشت البورجوازية اليهودية عن سوق قومي خاص بها خارج القارة الأوروبيـــة .

ثانيا - لاتختلف الصهيونية (الحركة) عن أية حركة قومية أوروبية . وفكرها (أيديولوجيتها) مماثل لافكار القوميات الاخرى . ومثلما كان هدف الحركات القومية الأوروبية توحيد أوطانها المجزأة ولم شمل شعبها في دولة قومية واحدة ، كذلك عملت الحركة الصهيونية لهدف مشابه : لم شمل اليهود المبعثرين في مختلف دول العالم وجمعهم في وطن آبائهم وأجدادهم ، أي في فلسطين . فالصهيونية (فكرة وحركة) هي بالتحديد المسألة الوطنية للشعب اليهودى المشتت في جميع انحاء العالـــم .

ثالثا - أما الاتجاهات اللاسامية ، في الفكر والسياسة ، التي ظهرت على الساحة الأوروبية عند نهاية القرن التاسع عشر كاتجاهات معادية لليهود ، فقد كانت تعبر عن تناقض المصالح بين مسيحيين ويهود . أو هي تقريبا الهجوم الايديولوجي البورجوازى المسيحي ضد النفوذ الاقتصادى للبورجوازية اليهوديـــة .

رابعا ـ لم تكن الصهيونية (الحركة) مجرد أداة استخدمتها القوى الامبريالية الأوروبية لتحقيق مصالحها في الشرق العربي . وانما هي قوة اجتماعية لطبقية (طبقة بورجوازية) لها مصالحها الخاصة . وكانت علاقتها مع القوى الاستعمارية علاقة تحالف عادى ولكن فقط حليف من درجة أدنى ولا يختلف " وعد بلفور " للحركة الصهيونية بزعامة وايزمن عن " وعد مكماهون " للحركة القومية العربية بزعامة الشريف حسين .

خامسا ـ من الخطأ الظن أن الحركة الصهيونية حركة رجعية واذا كانت بعض مظاهرها الايديولوجية توحي بذلك مثل العودة الى قراءة التوراة والتلمود أو التمسك بشعارات وطقوس مضى عليها اكثر من ألفي سنة ، فما ذلك الا ظواهر شكلية . فالحركة الصهيونية هي حركة حضارية ذات مضمون علمي تقدمي بورجوازى ، وأكبر دليل على ذلك نجاحاتها المتواصلة وانتصاراتها .

سادسا ـ الحركة الصهيونية بعد أن أقامت سوقها القومي ودولتها القومية بدأت تفتش عن السلام . ودولة اسرائيل الآن (١٩٧٠ ـ ١٩٧١) تجنح نحو السلام فعلا لأنه يخدم مصالحها الاقتصادية . فهي دولة صناعية وبحاجة ماسة للأسواق العربية لتصريف بضاعتها وللحصول على مواد أولية . واذا ظهر في ايديولوجيتها أو دبلوماسيتها مايشير الى استمرار نزعتها الحربية فما ذلك الا مناورات شكلية . فهي في حقيقة أمرها

تريد : يقاف الحرب مع العرب لأن التبادل التجاري بينها
وبينهم يفيدها أكثـــــــــر .

أن وجهات النظر المعروضة في البنود الستة المذكورة اعلاه ، هي
تلخيص - أرجو ان يكون عادلا - للأفكار الواردة في النصوص
المنتخبة (انظـــــر الملحق في نهاية الدراسة) من كتـــــاب
" دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية[1] " لموءلفه الدكتـــور
صادق جلال العظم ، استاذ الفلسفة حاليا في جامعة دمشـــق
وقد شغلت هذه الآراء ، بين التقديم لها وشرحها ونقد الآراء السابقة
عليها والمقارنة لها ، مساحة /١٤٧/ صفحة من الكتاب المذكـور
ولايقول الموءلف ، والحق يقال ، انه هو وحده موءسس هـــذا
الانشقاق عن الصهيونية بل ناقل وحسب . أو هذا هو بالاحرى الانطباع
الذي يحصل لدى القارىء فور شروعه بالقراءة بدءا من المقدمـــة
والمسألة هنا في غاية البساطة ، " وضع كارل ماركس الأســـس
الأولية للنظرة المادية التاريخية الى التاريخ اليهودي فـــي
كراسه المبكر " المسألة اليهودية [2] " . وأتى بعد ماركس أحد
شراح ماركس البارزين في هذه المسألة بالذات ، كما يجب ان يفهم
القارىء ، وهو ابراهام ليون : " لاشك أن الدراسة التطبيقيـــة
الكلاسيكية للتاريخ اليهودي من ضمن الاسس التي وضعها ماركـــس
نفسه هي التي تركها لنا ابراهام ليون (المفهوم المادي للمسألة
اليهودية [4] قبل أن تصفيه النازيـــــة [3] " .

---

(١) العظم ، صادق جلال ، دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٠ (من الآن وصاعدا يشار الى هذا المصدر اختصارا (دراسات يساريـــة) .

(٢) دراسات يسارية - المصدر السابق - ص ٢٠

(٣) المصدر نفسه - ص ٢١

(٤) ليون ابراهام ، المفهوم المادي للمسألة اليهودية ، ترجمة عماد نويهض ، طبعة أولى ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٩

أما موءلف "دراسات يسارية" فيعد من جانبه بدراسة المسألة اليهودية ما يفهم منه أنه على خط ماركس - ليون ، أو بحسب "المنهج المادي التاريخي" . فيتول : " وغايتي الأولية هي توضيح الظواهر المفروض دراستها ، بقدر الامكان ، عن طريق التطبيق العيني للمنهج الماركسي في فهم المسائل وتفسيرها (١)" .

قلت في البداية أن القصد هو مناقشة بعض الآراء السائدة عن الايديولوجيا الصهيونية والحركة الصهيونية . وأعني هنا بأفكار سائدة تلك الافكار التي بعد أن تصدر عن مصدرها أو موءلفها يتم تعميمها على نطاق واسع أو تداولها في الدوائر ذات العلاقة ، الثقافية والاكاديمية ، بحيث تصبح بمثابة مراجع أو مصادر لها صفة المصداقية الثقافية والاكاديمية . ومثل هذا المعنى ينطبق من بعض الجوانب على مجموعة الآراء المعتمدة هنا للمناقشة لأن هذه الآراء قد تحولت على اثر صدورها في "دراسات يسارية" الى مرجع ثقافي وأكاديمي . بحيث صار من المألوف استنادا اليها ان تسمى الحركة الصهيونية عند بعض الباحثين العرب باسم "الحركة البورجوازية الصهيونية" أو "ممثلة البورجوازية اليهودية في أوروبا (٢)" . وصار أيضا من الممكن ان يتقدم طالب في الدراسات العليا للحصول على درجة الدكتوراه من جامعة أجنبية على اساس دراسة ذات عنوان ملفت للانتباه : "البذور الطبقية للحركة الصهيونية" . وهو يعتمد في بحثه على مرجعين

(١) دراسات يساريه - المصدر السابق - ص٦
(٢) الهندي ، هاني ، حول الصهيونية واسرائيل ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧١ - ص ٢٤ - ٢٥

أساسين، " المفهوم المادى للمسألة اليهودية " و " دراسات يسارية " . يقول هذا الدارس الذى يسمي الصهيونية باسم " الدعوة القومية البورجوازية " ، وهو يلخص فكرته حول سبب ظهور الصهيونية ، أن " الدافع الرئيسي اذن خلف هذه الدعوة القومية البورجوازية كان في الاساس نمو الطبقة البورجوازية اليهودية الى جانب زميلتها البورجوازية المسيحية وحاجة كل من هاتين الطبقتين الى توفير سوق مستقلة خاصة بكل منهما (١)" .

ولايتعلق الامر بمناقشة افكار مر عليها زمن وتوقفت عن التأثير والتداول ، فهذه الافكار ماتزال مصدرا معتمدا لدى بعض الباحثين العرب حتى اليوم . وفي دراسة صدرت موءخرا (١٩٨٤) حول الصهيونية ومشاريعها الاستيطانية يوءكد الموءلف الجديد في مقدمته انه استفاد فائدة كبيرة " من كتابات صادق العظم حول " الصهيونية والصراع الطبقي " لما اشتملت عليه من تحليلات علمية هادفة كان لها اكبر الاثر في فتح العديد من الافاق الجادة أمام هذه الدراسة (٢)" ..

واكثر ما تأثر هذا الباحث الجديد على مايظهر بفكرة موءلف " دراسات يسارية " حول وجود طبقة بورجوازية يهودية كتلة اجتماعية لها مصالح مستقلة تختلف عن مصالح البورجوازيات الأوروبية المسيحية بحيث يمكن ان تتناقض أو تتحالف معها حسب الظروف والاحوال . وتكاد هذه الفكرة ان تكون محور دراسته كلها . يقول أمين عبد الله محمود في مقدمته : " أما الفكرة

---

(١) مجلة شوءون فلسطينية - عدد ٣٦ - آب ١٩٧٤ ص ١٠٠
(اعتبارا من الآن سأرمز لهذا المصدر بالحرفين (ش ف)

(٢) محمود ، أمين عبد الله - مشاريع الاستيطان اليهودى
المجلس الوطني للثقافة والآداب - الكويت ١٩٨٤ - ص ٩

الرئيسية التي تدور حولها هذه الدراسة ، فهي ابراز عمق الصلة التي تربط بين الرأسمالية الغربية والبورجوازية اليهودية ، وما ترتب على هذه الصلة من طرح للمشاريع الاستيطانية اليهودية في فلسطين وخارجها (١)" .

وبالاضافة الى كل ذلك كان هذه الافكار تلقى على شكل دروس على طلبة قسم الفلسفة في جامعة دمشق ، مما يعمم تأثيرها على الأجيال القادمة . والنصوص المثبتة في الملحق من هذه الدراسة متضمنة بكاملها في الكتاب الجامعي " الفكر السياسي المعاصر" (٢) ومعلوم ان هناك علاقة بين سيادة الافكار وسيادة اصحاب الافكار والدكتور العظم هو ايضا صاحب مناصب أكاديمية وثقافية متخصصة وبارزة فهو " الاستاذ في الجامعة الامريكية في بيروت والجامعة الأردنية سابقا " (أنظر ش.ف - عدد ٢ - ص ٢) وهو " مستشار قسم الدراسات الاسرائيلية في مركز الابحاث" (ش.ف عدد -٩- ص ٣) وهو عضو هيئة تحرير مجلة شؤون فلسطينية " الصوت الشهري الوحيد للثورة الفلسطينية " التي ابتدأت بالصدور عن مركز الابحاث في بيروت اعتبارا من عام ١٩٧١ . وكان الدكتور العظم يتابع شهريا في المجلة جانب " القضية الفلسطينية دوليا " . ويظهر انه منذ البداية كان يشعر بما سيكون لافكاره من تأثير ، وهذا ماجعله كما يبدو يخرج عن قاعدة التواضع الفكري . فهو يؤكد أن كل ماكتبه العرب حول الصهيونية ونشأتها وأهدافها قبل نظريته هو ، أو على وجه التحديد قبل" هزيمة حزيران ١٩٦٧ " ماهو الاهراء . يقول: " ان السواد الاعظم مما كتبه

(١) المصدر السابق - ص ٦

(٢) العظم ، صادق جلال - الفكر السياسي المعاصر - مطبعة خالد بن الوليد - دمشق - ١٩٨١ - ١٩٨٢ - ص ٢٠١ ومايليها

لم يكن أكثر من هراء . وهذا يعني ...

العرب عن الصهيونية لم يكن أكثر من هراء . وهذا يعني بالتالي أن معظم الافكار المنتشرة بيننا والشائعة في أوساطنا حول الصهيونية مشوشة ومشوهة وغير واقعية ، وأنها أقرب الى الخيال والتمنيات والعواطف منها الى الواقع التاريخي والحقيقة الموضوعية (١) .

ربما يفهم من الانطباع الاول وكأنني أنوى أن اضع دراسة في دحض آراء سوءلف " دراسات يساريه " عن الصهيونية . لكن هدفي هو في الواقع أبعد من هذا الهدف المحدود الذى هو بالطبع ضمن أهداف هذه الدراسة . ان الافكار المستخلصة من كتاب " دراسات يسارية " والمثبتة في هذا المدخل تقوم بدور الخطاطة الفكرية التي سوف أطور بدءا من مناقشتها بحثا في الايديولوجيا الصهيونية أكثر شمولا وأبعد مدى في الاستقصاء والتحليل للافكار ولمصالح القوى ذات العلاقة . فالافكار المنتخبة التي ستكون موضع نقاش تستخدم اذن كمبرر وكعلامات في الاتجاه حتى لاينحرف مسار البحث عن الاتجاهات المطلوب الوصول على هديها الى بحث في الايديولوجيا الصهيونية لايضيع عن هذا الهدف .

وحتى يكون مصطلح ايديولوجيا محدد المعنى في هذه الدراسة فانني أشير الى تبني رأى فرانسوا شاتوليه في تحديد معنى ايديولوجيا ، فهو يقول : " عندما أقرأ مقالا ويظهر لي ، على الفور انه يعبر عن مصالح طبقات أو مجموعات اجتماعية أو مصالح شخصيات تساندها طبقات اجتماعية ، فانني سأحتفظ بدقة باسم ايديولوجيا لهذا النمط من المقال (٢) " .

(١) دراسات يسارية - المصدر السابق - ص ٧٥
(٢) فاديه ، ميشيل - الايديولوجيا - المنشورات الجامعية في فرنسا ١٩٧٣ ، بالفرنسية ، ص - ٧٠

وعلى ذلك فان المنهج الذى سأتبعه في هذا البحث سيكون منهج دراسة العلاقات بين المصالح وبين الافكار التي ترمز أو تعبر عن تلك المصالح . فأنا أعتقد ايضا ان ما هو أصيل في الحياة الانسانية هو العلاقة ؛ العلاقة بين انسان وانسان ، بين فئة وفئة ، بين طبقة وطبقة ..... الخ . وفي هذه الدراسة تعني العلاقات على وجه التحديد العلاقات الاقتصادية والسياسية فحينما توجد علاقة من هذا القبيل تعبر عن نفسها بقول أو بخطاب ايديولوجي . لذلك فان استقصاء هذه العلاقات في التاريخ وتونيقها ، بعيدا عن السوالف سيكون الخط الأول في اسلوب العمل .

الفصل الاول

الصهيونية وصراع الطبقات في اوروبا

لمحة عن كراس ماركس المبكر

بما ان مؤلف " دراسات يسارية " قد اتخذ من كراس ماركس " المسألة اليهودية " نقطة انطلاق في عرض افكاره عن الصهيونية ، لذلك من الضروري هنا أن تبدأ المناقشة اعتبارا من نقطة الانطلاق ، من كراس " ماركس المبكر " .

ربما يكون مفاجئا لبعض الناس القول ان كراس ماركس " المسألة اليهودية " ليس بحثا في المسألة اليهودية كمسألة يهودية . ولكن الحقيقة هي كذلك فعلا . فقد وضع ماركس كراسه بمناسبة المسألة اليهودية ، وليس بحثا فيها . ف " المسألة اليهودية " هو مرجع ماركسي في نقد السياسة ، في فلسفة السياسة اذا شئنا ، وليس مرجعا في المسألة اليهودية او في التاريخ اليهودي وعلاقات اليهود .. الخ . وفيما يلي بعض المقاطع من كتاب " ماركس ونقده للسياسة " ، وهي من بحث " اندريه توزيل " احد ثلاثة باحثين اشتركوا في وضع هذه الدراسة عن " المسألة اليهودية " : يقول الباحث الفرنسي " هذا النقد [المسألة اليهودية] الذي كان موضوعه الحق والدولة الدستورية الحديثة)) يعتبر مرحلة في انتقال ماركس من مواقع الديمقراطية الجذرية الى مواقع الشيوعية " (١)

تعتبر " المسألة اليهودية " (١٨٤٣) " بمثابة مدخل " لنقد الاقتصاد السياسي . في المسألة اليهودية " يبدو التحرر السياسي نفسه غير كاف وهو تحرر تقوم به الدولة التمثيلية الحديثة في صراعها ضد الدولة نصف الاقطاعية ، كان ماركس يفكر بتحويله الى تحرر اجتماعي ، أي الى الشيوعية " (٢) . اما " المسألة اليهودية فهي نقد يقتصر على الديمقراطية السياسية كتجربة واغتراب ، وذلك باسم الشيوعية كتحرر اجتماعي وانساني " (٣) . في المسألة اليهودية اراد ماركس ان يتجاوز الدولة الديمقراطية البورجوازية والحرية الديمقراطية البورجوازية ، في هذه الدولة : " اذا كان التحرر السياسي متوافقا مع مسيحية الدولة

(١) أندريه توزيل ، ايتيين باليبار ، لوبوريتي سيزار – ماركس ونقده للسياسة ، ترجمة جوزيف عبدالله – دار التنوير – بيروت ١٩٨١ ص ١٢

(٢) المصدر السابق – ص ١٣

(٣) المصدر نفسه – ص ١٤

" الرجل الخاص البورجوازى ، وبالتالي محدودا بها ، فهو تحرر غير كامل ومخادع ، وهو يستمر اغترابا سياسيا "(١).

لقد كان كراس ماركس "المبكر" ، اذن ، بمناسبة المسألة اليهودية وليس بحثا فيها ، وهذه واقعة تاريخية تقريبا معلومة : - في ١٨٤٣ كتب الناقد الالماني ومعاصر ماركس (بروتوباور) مقالا رد فيه على بعض اليهود الالمان الذين كانوا يطالبون بالتحرر ، وكان ذلك يعني مطالبتهم بالمساواة مع المسيحيين في مسائل التملك والعمل والمساواة امام القانون ..الخ .. والفكرة المحورية في مقال باور يمكن ايجازها بعبارات بسيطة : طالما بقيت الدولة مسيحية وطالما بقيتم انتم يهودا ، فلا يمكن ان يحصل اى تغيير لا في اوضاعكم ولا في اوضاعنا نحن الالمان المسيحيين - يجب على الدولة ان تخرج من دينها المسيحي اولا ويجب عليكم انتم ان تخرجوا من يهوديتكم ثانيا ، حتى يصبح الكلام عن التحرر كلاما معقولا : " في المانيا ، ليس ثمة انسان متحرر سياسيا . ونحن انفسنا لسنا احرارا . فكيف نستطيع تحريركم ؟ انكم معشر اليهود ، أنانيون حين تطالبون لانفسكم ، بسبب من انكم يهود ، بانعتاق خاص ، فعليكم ان تعملوا بوصفكم المانيين ، على الانعتاق السياسي لالمانيا"(٢). هكذا افتتح برونوباور رده على يهود المانيا المطالبين بالتحرر .

كارل ماركس ، وبمناسبة نقد باور ، رد بمقال مطول في (الحوليات الالمانية - الفرنسية ١٨٤٣) . وقد افتتح مداخلته بالسؤال : "باى نوع من انواع التحرر يتعلق الامر ، واية شروط تقوم في جوهر التحرر المنشود"(٣) اذا كان المقصود التحرر السياسي ، اى المساواة الحقوقية امام القانون فان مسألة اليهودى من هذه الناحية اصبحت محلولة تماما في الدولة الديمقراطية البورجوازية ، والذى كان نموذجها المكتمل أنذاك يتمثل

---

١) المصدر السابق ص ١٨

٢) ماركس ، كارل - المسألة اليهودية - ترجمة محمد عيتاني - بدون ذكر دار النشر وبدون تاريخ - ص ٥

في الولايات المتحدة الامريكية " فليس ثمة في الولايات المتحدة دين للدولة ، ولا دين معلن بوصفه دين الاغلبية ، ولا تفوق لدين على آخر . فالدولة مستقلة عن جميع الاديان(١) . " ان التحرر السياسي - يقول ماركس- يشكل في الخلاصة تقدما عظيما ، انه والحق يقال ، ليس آخر شكل للتحرر البشري . ولكنه اخر شكل للتحرر البشري في اطار النظام الاجتماعي الحالي ، ولنتفاهم جيدا : نحن نتحدث هنا عن التحرر الواقعي ، عن التحرر العملي(٢) .

ما هو اليهودي ؟ انه التاجر . ومن هو الهه ؟ انه المال . واذا كان اليهودي قد حصل على الحرية في الدولة الديمقراطية البورجوازية فما ذلك لان اليهودي خرج من دينه ، والدولة المسيحية خرجت عن دينها ، " انما لان اله اليهودي ، وهو المال ، اصبح اله الدولة المسيحية البورجوازية ، لاون دين اليهودي الذي هو المتاجرة اصبح دين الدولة البورجوازية . وعلى ذلك فان تحرر اليهودي امر تافه لا معنى له ، لان المطلوب الان تحرير البشرية من المتاجرة والمال وليس فقط تحرير اليهودي . هذا كل ما يتعلق بالمسألة اليهودية في " كراس ماركس المبكر " عن المسألة اليهودية . ومن اجلها جادل ، ولدعم رأيه ساق الشواهد والاقتباسات من دساتير الدولة البورجوازية ، (فرنسا ، انكلترا ، امريكا) وشواهد من آراء المؤرخين والمفكرين البورجوازيين ولم يكن بينها شاهد او اقتباس من التاريخ اليهودي او للتدليل على مسألة اليهودية صرفة . " ما هو الاساس الدنيوي لليهودية ؟ . المصلحة العملية والمنفعة الشخصية . اذن فالعهد الحاضر بتحرره من المتاجرة والمال ، وبالتالي من اليهودية الواقعية والعملية . انما يحرر نفسه ايضا" . والتنظيم الاجتماعي الذي يلغي الشروط الضرورية للمتاجرة ،

١) المصدر السابق - ص ١٦

٢) المصدر نفسه ص ٢٥

وبالتالي يلغي امكانية المتاجرة ، سوف يجعل وجود اليهودي مستحيلا والضمير الديني لليهودي سوف يتلاشى ، مثل بخار تافه ، في جو المجتمع الحقيقي"(١). وحتى عبارات مثل " يجب ان لا نبحث عن سر اليهودي في دينه ، بل فلنبحث عن سر الدين في اليهودي الواقعي(٢). او " لقد عاشت اليهودية ليس ضد التاريخ ، وانما بفضل التاريخ (٣) وهي تكشف بعدد محدود من الكلمات معنى تاريخ اليهود في اوروبا المسيحية ، اسلوب معيشتهم وعلاقاتهم الاجتماعية مع الاخرين ، خلال اكثر من الف عام ، لم يذكر ماركس كلمة واحدة عن موضوعها وتركها بالطبع للذين يتحدث معهم ، المؤرخين والمفكرين الالمان والاوروبيين . لقد كانت الاقتباسات للبرهان على معنى القانون ومعنى التحرر في الدولة الديمقراطية البورجوازية . " ان المساواة (دستور ١٧٩٥ الفرنسي) تقوم في ان القانون واحد بالنسبة الى الجميع ، سواء حين يحمي او حين يعاقب" والامن ؟ يقول دستور ١٧٩٣ " المادة الثامنة : يقوم الامن في الحماية التي يمنحها المجتمع لكل من اعضائه لحفظ حياته وحقوقه وملكياته (٤). ولكن اذا وقف من يملك ومن لا يملك امام القانون ، فكيف يكون القانون واحدا بالنسبة لهما ؟ واذا وقف متخم وجائع امام القانون فكيف يمكن ان يحصل كل منهما على حقه في الحماية الاجتماعية المتساوية ؟ " ان التحرر السياسي ليس هو النمط المطلق الكلي للتحرر البشري(٥). " ان الدولة تستطيع ان تكون دولة حرة ، دون ان يكون الانسان فيها حرا (٦).

---

١) المصدر السابق ص ٥٤
٢) المصدر نفسه - نفس الصفحة
٣) المصدر نفسه ص ٥٨
٤) المصدر السابق ص ٤٢
٥) المصدر نفسه ص ١٨
٦) المصدر نفسه ص ١٩

هذه هي تقريبا هي المسائل الاساسية التي حاول فيها ماركس نقد (برونو باور) الذى كان قد جعل من المسألة اليهودية مسألة "لاهوتية" مسألة العلاقة بين مسيحي ويهودى ، علاقة التباغض والتنافر"(١).

ومما له دلالة ان كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) ، ومنذ صدور مقالة (١٨٤٣) حتى وفاته ، لم يتطرق للمسألة اليهودية من قريب او بعيد . هذا مع العلم انه عندما توفي كان الصهيونيون ، من غير اليهود ومن اليهود ، قد شرعوا بتشويش سماء اوروبا بالزعيق عن المسألة اليهودية وما ذلك الا لان ماركس كان يعتبر المسألة اليهودية كمسألة يهودية هي مسألة اذا لم تكن تافهة فهي ليست جديرة بأن تستحق حتى الالتفات اليها مرة اخرى . وهذا ينطبق ايضا على زميله وشريكه في وضع مذهبه ، فريدريك انجلز الذى عندما توفي (١٨٩٥) كان هرتزل يهم بوضع كراسه "القومي" العتيد "(الدولة اليهودية)" . فقد كانت المسألة ، من وجهة نظرهما مسألة منتهية . وهذه حقيقة اكدها فيما بعد اسحق دويتشر (١٩٠٧-١٩٦٧) اليهودى البولوني الماركسي ، وهو حجة في المسألة اليهودية ، فقد قال : " في حياة ماركس ، في عصر التمثل (الاندماج) كانت الهوية اليهودية في الحقيقة في دور الاختفاء ، في غرب اوروبا على الاقل(٢).

" في غرب اوروبا بعد الثورة الفرنسية ، تمتع اليهود بمساواة رسمية في نظر القانون (في سنة ١٨٤٨ ، انتخب لعضوية مجلس العموم ليونيل روتشيلد ، اول عضو يهودي في البرلمان) . وقد سارت المساواة القانونية يدا بيد مع الاستيعاب (اندماج اليهود) المتنامي للطائفة اليهودية ، لانه حتى تلك الفئات التي احتفظت بدينها ووعيها اليهودى ، استوعبت من خلال تبنيها لغات البلدان التي عاشت فيها(٣).

لكن الا يمكن الاستناد الى كراس ماركس (المسألة اليهودية) فيما يخص مسائل اليهود والصهيونية ؟ كيف لا ، " والمسألة اليهودية " كتب بمناسبة جدال حول المسألة اليهودية ؟ لكن فقط بشرط : عندما

---

١) باور - ماركس - حول المسألة اليهودية - ترجمة الياس مرقص - دار الحقيقة - بيروت - بدون تاريخ ص ٦٩

٢) دويتشر ، اسحق - دراسات في المسألة اليهودية - ترجمة مصطفى الحسيني - دار الحقيقة - بيروت ١٩٧١ - ص ٤٢ . (واعتبارا من الان سأشير الى هذا المصدر اختصارا باسم - دويتشر)

٣) المصدر نفسه - ص ٥٧

يكون المطلوب البرهان ان كل ما هو " قومي يهودى" دينـي
أو علمياني ، اذا لم يكن غير مشرف ، فهو غير جيد على الاطلاق
نعم ، ولكن عندما يكون المطلوب البرهان على ان كل ماينتج عن الانطلاق
اليهودى انما هو اوهام باطلة ، اى تماما عندما يكون المراد
استنتاجـه هـو على العكـس تماما مما اراد استنتاجـه
مؤلف دراسيات يسارية انطلاقا من " كراس ماركس المبكر " .
هل اقول لكم الحق ؟ .. هل تريدون ان تكونوا رجالا ممتازين ،شرنا ،
نجوم في سماء الانسانية ، مثل سبينوزا وهاينه وماركـس
وروزا لوكسمبورغ وتروتسكي وفرويد ؟ ... اذا كنتم ترغبون فـي
ذلك فعليكم ان تخرجوا من اوهامكم القومية اليهودية . لان اولئك
العلماء " ذهبوا جميعا الى ماوراء حدود القومية ، وكلهم وجدوا
اليهودية شديدة الضيق،مماته مليئة بالقيود ،وكلهم بحث عن مثـل
عليا وتخبئتها فيما وراءها"(1) . هكذا قال اسحق دوتيشر الى مستمعيه
في المؤتمر اليهودى العالمي عندما دعي لالقاء محاضرته عـام
١٩٥٨ . فقط ، عندما اراد اسحق دويتشر ان يقول لبعض مستمعيـه
من المتعصبين الذين تعصف في رؤوسهم الرياح القومية ، انهـم
" طائفة " وليس امة أو قومية والى اولئك الذين اصابتهم بلوثة
تلك الايحاءات الخرافية والاسطورية التي تم تصنيعها بدقة فـي
دوائر التصنيع الايديولوجي ، حول سرقاتهم وسرالمهمات الالهيـة
التي يمكن ان تستنتج منها الفتاوى التي تسمح بقتل الآخريـن
وطردهم من ديارهم ، فقط عند هذه النقطة ، شعر اسحق دوتيشـر
انه من المناسب ان يستند الى ما قاله ماركس في " المسألة اليهودية "

---

(1) - المصدر السابق - ص ١٨ - ١٩

فقال " اعتقد ان ماركس قد وصل الى لب الموضوع عندما قال " ان اليهودية قد عاشت ، ليس رغما عن التاريخ ، وانما من خلال التاريخ وأنها مدينة ببقائها للدور المتميز الذى لعبه اليهود كعملاء لاقتصاد نقدى في محيط يعيش في ظل اقتصاد طبيعي[1] . "اعتقد ان ما مكن اليهود من البقاء ككائنة منفصلة هو كونهم قد مثلوا اقتصاد السوق . . . . . . في ... شعب يعيش في اقتصاد طبيعي"(٢). فلم يكن هناك اية معجزة لا بخصوص "الوعد" ولا بخصوص "جمع شمل المنفيين" وراء بقاء اليهود خلال الفين من السنين منذ خروجهم من فلسطين . فلسفل هكذا هدف ، هدف غير قومي وغير اسطورى ، يمكن بالفعل استخدام " كراس ماركس المبكر" .

كذلك يمكن الاستناد الى كراس ماركس " المسألة اليهودية " عندما يكون الهدف هو توجيه الحجارة ، على المكشوف هذه المرة ، الى تلك الرؤوس " القومية الصهيونية " الباحثين عن " وطن قومي " و " سون قومية " . فعندما اراد يورى ايفانوف ان يفند المزاعم الصهيونية القومية و " خرافة الرغبة الجارفة لليهود في العودة الى فلسطين(٣) " ، وخرافة التطابق بين الطرق التي سلكها اليهود عبر القرون مع "فكرة العودة الى فلسطين" (٤) . او ايضا فكرة " قدوم المسيا واجتماع شمل المشردين " وبمعها " العودة التي لا تقهر " (٥) ، التي اوقفت التاريخ عن الحركة التي سنة ، وحفظت الصهيونيين من التلف عبر تقلبات الاحوال والعصور ، عندما اراد – ايفانوف – ان يسحب بساط الحجج القومية من تحت اقدام الصهيونيين ويبرهن لهم ان بقاءهم في " الشتات " لم يكن بسبب سر تمسكهم بالحنين الى " ارض الميعاد " ، رأى من المناسب ان يستشهد بكراس ماركس ، فكتب " ان اليهودية بقيت ليس خلافا للتاريخ بل بفضل التاريخ " " ان اليهودية نبتت الى جانب المسيحية ليس فقط كنقد ديني للمسيحية ، وليس فقط كشك مجسد في المنشأ الديني للمسيحية ، بل وكذلك لان الروح اليهودية " اليهودية "

---

(١) المصدر السابق – ص ٢٤
(٢) = نفسه – ص ٣٢
(٣) ايفانوف ، يورى – احذروا الصهيونية – منشورات نوفوستي ١٩٦٩ – ١٥
(٤) المصدر نفسه – ص ١٨
(٥) = نفسه – ١٩ – ٢٥

(التجارية) قد بقيت عمليا في المجتمع المسيحي بالذات وحتى انها بلغت فنا أعلى مستوى من تطورها)) (١) .

ولما كانت المسألة هنا تتطلب بحثا حسيا في وقائع التاريخ اليهودي ، فقد رأينا منهدا رائعا من مشاهد التاريخ في العصرين القديم والوسيط يحضرنه امامنا احد اولئك الناس الذين كان ماركس يوجه خطابه الى امثالهم عندما كتب " المسألة اليهودية " . فقد تطلب الامر ، توضيح عبارة ماركس " ان اليهودية بقيت ليس خلافا للتاريخ .. " ، أن يقرأ ايفانوف التاريخ اليهودي لدى تلك الادمغة العالمة التي سجلت اهم احداث تاريخ العصرين ، القديم والوسيط(فيلون الاسكندرى ، الفيلسوف والمؤرخ - ابن خرداذبة ، السياسي والمؤرخ العربي صاحب البريد في بغداد - سيسل روت - ليوناردشتاين - اولمستد - مؤلفوا تاريخ العصور الوسطى في جامعة كمبردج .. الخ(٢) .

ونعلم هنا بالمناسبة ان المؤرخ العربي " ابن خرداذبة " هو الذى سجل في كتابه " المسالك والممالك " ان طريق التجارة اليهودية في القرن التاسع الميلادى ، بين الصين واسبانيا ، لم يكن يمر عبر المسلمين وانه في تاريخه سجلت واقعة ان يهودى تعني تاجر(٣) منذ ذلك الوقت وعلى خط التجارة ذاك . وبما ان ابن خرداذبة كان احد مصادر " تاريخ العصور الوسطى المؤلف في كمبردج " ، فيحتمل ان ماركس صاغ فكرته عن " الروح اليهودية " التي تعني (الروح التجارية) استنادا الى تاريخ ابن خرداذبة " ان احد اسباب الضراوة .. قال ايفانوف .. التي يشنها الصهاينة لماركس يمكن تفسيره بان مفهوم " اليهودية " الذى استخدمه ماركس ينطوي على وعي حسي يكشف القناع عن الاوساط القائدة في الاوساط اليهودية بمنتهجها الاكثر نفوذية في ابنية التجار العاملة الحسية للواء " اليهودية " (٤) .

(١) المصدر السابق - ص ١٦ و ٢٥
(٢) = نفسه ص ١٦ - ٢٠
(٣) = = ص ٢١

ومن المؤكد ان ماركس ، وقبل الاخرين بزمن طويل ، قد "اوقف المسألة اليهودية على قدميها في وقت كانت واقفة فيه على رأسها في ايدي المفكرين المثاليين" (1) ، كما قال مؤلف دراسات يسارية . ولكن بشرط ان يكون الخطاب موجها ضد المزاعم الصهيونية عن " الروح القومية لدى اليهود كما فعل الماركسيان اسحق دويتشر ويوري ايفانوف .

اما ان يوصلنا الخطاب ، انطلاقا من كراس ماركس المبكر ، الى الموافقة على واقعية " دعوة كالبشر الى لم شمل اليهود والمبشرين وجمعهم في وحدة متماسكة في الارض المقدسة " (2) ، فهذه مسألة قد تتحلى بدراسات اخرى ، وتكهنات اخرى ، ولكنها حتما لا تتصل بـ"المسألة اليهودية " لكارل ماركس .

---

(1) دراسات يسارية ـ المصدر السابق ـ ص ٢٠

(2) = = = = = ـ ص ٩٢

كلمات نظرية عن الصراع الطبقي

في مسائل الطبقات والصراع الطبقي وأيديولوجيات الطبقات ، يمكن ان يبيعنا تجار الكلام (الايديولوجيون) اية سلعة على انها هي السلعة المطلوبة . والكلام هنا غير موجه البتة نحو "دراسات عربية" والذنب في ذلك ليس كله ذنبنا نحن العرب ، فالعلاقات الدولية المعاصرة أو مصالح القوى الرأسمالية والصناعة الحديثة ، بالاضافة الى شروط اجتماعية داخلية ، لم تفسح المجال امام تطور قوى طبقية في المجتمعات العربية كما حصل في اوروبا المعاصرة . ولهذا كان العربي لا يفهم الحديث عن الطبقات بالبساطة التي يفهمه فيها انسان اوروبي . فالعربي عندما تقول له ، طبقات وصراع طبقي ، طبقة قومية بورجوازية ، ايديولوجيا قومية بورجوازية .. الخ ، يفهمها تقريبا بنفس الطريقة الغامضة التي يفهم فيها عبارات او مصطلحات مثل قاعدة صناعية ، علم وتكنولوجيا ، محطة مدارية .. وطبعا ، اعني انه اذا لم يشغل فكره لمدة طويلة في هذه المفاهيم ، على طريقة المتخصصين ، فقد يظن انه فهمها . بينما هو لم يفهم منها شيئا . فالقوى الطبقية لم تتبلور في بلادنا ، ونحن نستعير ثقافاتها ونحاول تطبيق مفاهيمها ومصطلحاتها على واقعنا الاجتماعي المتخلف وغير المطابق. وهذا ما يسبب الالتباس والغموض في الحوارات الثقافية في بلادنا . يقول الدكتور غالي شكري : " ولدت البورجوازيات الغربية في حضن السوق والاختراع والمدينة لذلك وجدت نفسها بمواجهة الكنيسة والاقطاع والعرش والنبلاء دفعة واحدة " ويضيف موضحا اسباب التباس المفاهيم عندنا ، فيقول : " اما في بلادنا ، فقد اختلف الامر تماما اذ " تبرجز" الاقطاعي القبلي العشائري نفسه بالاعتماد الكلي على تكنولوجيا الغرب ورأسماله المالي . لم تكن هناك كشوف ولا اختراعات تعكس احتياجا اجتماعيا لدى شريحة تجارية او صناعية جديدة ، وتتطلب تنظيرا فكريا يتناقض جوهريا مع الابنية الايديولوجيا السائدة "(١) .

---

(١) دراسات عربية – ١٠ آب (اغسطس) ١٩٨٣ – ص ٥

وكان هذا الامر (امر الافكار) قد التبس على ابرز المفكرين العرب المعاصرين ، الذين خيل اليهم انهم يفكرون انطلاقا من الواقع الاجتماعي في بلادهم بينما كانوا في حقيقة امرهم يفكرون امن خلال واقع متصور هو واقع المجتمعات الاوروبية الذى يحلمون في قرارة نفوسهم ان تصل مجتمعاتهم المتخلفة الى درجاته من التطور . وكان عبدالله العروى قد كشف عن هذه الواقعة الهامة في دراسته للفكر السياسي العربي المعاصر ، فقد كتب : " في قرارة كل ايديولوجيا من ايديولوجياتنا يوجد حتما مدلول طبقي ، لكنه لايتعلق بالدرجة الاولى ببنية المجتمع العربي " . " فان فكرنا يستند بادئ بدء الى بنية اجتماعية تستثيرنا من بعيد . هذا الواقع لا ينبغي نسيانه البتة ، اذا اردنا ان نمسك بطرف السلسلة " . وايضا : " وراء كل نبي من انبيائنا الجدد يختفي جبريل يهمس له بايحاءاته وندا ءاته : لوثر وراء محمد عبده ، ومنتسكيو وراء لطفي السيد ، وسبنسر وراء سلامة موسى "(١) . وبيت القصيد هنا ليس التفتيش عن البطل الايديولوجي للطبقة البورجوازية القومية في اوروبا ، وليس ايضا التفتيش عن ابطالنا الايديولوجيين القوميين العالمين ولكن تحريك الذهن وتنبيهه حتى لا نقع في الالتباس ونحن نفتش بين الطبقات الاوروبية عن الطبقة البورجوازية اليهودية المفترضة وعن ابطالها الايديولوجيين المفترضين ، الصهاينة .

فقد كتب مؤلف " دراسات يسارية " ان " الكلام الجاد " عن " الامة اليهودية " و "الدولة اليهودية " ، ولد من أتون " صراع اقتصادى مرير ودام " بين البورجوازية اليهودية والبورجوازيات " الاوروبية المسيحية " وان موضوع هذا الصراع " كان بشكل بسائط لقمة العيش " (٢) .

---

(١) العروى ، عبدالله . الايديولوجيات العربية المعاصرة — دار الحقيقة بيروت ١٩٧٠ ص ٧٣ — ٧٤

(٢) دراسات يسارية — المصدر السابق — ص ٨٦ و ١٣٨

اننا هنا ، كما هو واضح ، نقرأ في مصطلحات تجارية الصراع الطبقي التي ما تزال مسجلة على اسم ماركس . والمؤلف (دراسات يسارية ، يستخدم مفردات ومفاهيم ماركسية خالصة ولا تحتاج الى تأويل اخر .
لنفحص اذن ذلك الصراع المميت المزعوم ، نظريا في البداية وتجريبيا بعد ذلك ، عن طريقة استقرائه على الساحة الاوروبية حيث توجد التجمعات اليهودية ذات العلاقة .
لقد تصور ماركس ان الصراع الذى دار بين العبيد واسياد العبيد هو الذى طور مجتمع العبودية الى مجتمع الاقطاعية ، وان الصراع الذى دار بين الاقنان واسياد الارض هو الذى نقل المجتمع من النظام الاقطاعي الى النظام البورجوازى . وتصور ماركس ان الصراع في زمنه والزمن القادم سوف يدور في المجتمع البورجوازى بين مالكي وسائل الانتاج وبين البروليتاريا .
وتنبأ بانتصار البروليتاريا التي ستحقق الشيوعية وهي الالغاء المطلق للملكية الفردية لوسائل الانتاج .
هناك مسألة محورية في فكرة ماركس يمكن تبسيطها على النحو التالي :
في مجتمع العبودية لم يكن كل انسان اما مالك عبيد واما عبد . كما انه في العهد الاقطاعي لم يكن كل انسان اما قن أرض او فلاح معدم واما مالك ارض أو ارض مع اقنان . لنقل مثلا انه كان هناك دائما فئات اخرى : صاحب محل رهونات ، تاجر ، حرفي ، صاحب خمارة ، صاحب بيت لهو ، عايش من الهوا ، جندى ، فلاح صغير غير معدم .. الخ .
والمسألة المعنية في نظرة ماركس ان التاريخ لا يتحول بدءا من الصراع بين هذه الهوامش البشرية : مثل الصراعات التي تحدث لاسباب آنية أو طارئة بين حرفيين وتجار او بين فلاحين واصحاب خمارات او بين جنود واولئك العايشين من الهوا . التاريخ هنا يتحول بدءا من الصراع بين أغلبيات ، بين القوى الاساسية ، بين قن الارض الذى لا يملك شيئا على الاطلاق ولا حتى حريته الشخصية ، وبين مالك وسيلة الانتاج الاساسية ، اي الارض التي يعمل عليها الاقنان . طرفا هذه المعادلة ملايين او مئات الوف المالكين وتنمين باستمرار ، تقابل ملايين من غير المالكين يتزايدون

باطراد . وفي زمن من التاريخ يعد بالاجيال والقرون تشرع العلاقة بين الاغلبية العظمى التي لا تملك اى شيء والاقلية التي تملك كل شيء بالتوتر ، اى ان وسائل العيش الاساسية (المأكل والملبس والمسكن) بالنسبة للملايين المحرومة تصبح غير مؤمنة او من المستحيل تأمينها من خلال العلاقة القائمة ، علاقة الامتيازات التي يثبتها القانون ، بين قن الارض - سيد الارض . في مثل هذه الحالة يبدأ التاريخ بتوليد قوى اجتماعية جديدة ، طبقة جديدة ، لحل هذا الاشكال الاجتماعي . وهكذا يبدأ التحول باتجاه نظام أرقى عبر سلسلة من الحركات الاجتماعية والسياسية . وتقريبا ، كان هذا هو المسار الوضعي الذى يمكن توصف به ولادة الطبقة البورجوازية التجارية ومن ثم الصناعية وهي الطبقة التي أنشأت الدولة القومية والسوق القومية ، وفيما بعد أنشأت السوق الامبريالية .

" ان تاريخ المجتمعات الانسانية هو تاريخ نضال بين الطبقات " هذا ما قاله ماركس في البيان الشيوعي لعام ١٨٤٨ . ومن المؤكد ان لينين ، وهو معلم ومبسط الماركسية للشعب الروسي ، كان قد لاحظ ان بعض الناس يلاقون صعوبة في فهم معنى طبقة ، فشرحها كما يلي : " تسمى طبقات جماعات كبيرة من الناس ، تتمايز بالموقع الذى تشغله في نظام محدد تاريخيا من الانتاج الاجتماعي ، وبعلاقتها (التي غالبا ما يثبتها ويكرسها القانون) مع وسائل الانتاج ، ودورها في التنظيم الاجتماعي للعمل ، وبالتالي بوسائل حصولها على القسط الذى تتمتع به من الثروات الاجتماعية وحجم هذا القسط" (١) . وفي مكان اخر أكد لينين على طرفي المعادلة ، مالك وغير مالك ، في مفهوم الطبقة ، فقال : " تشكل وسائل الانتاج اهم شرط من شروط حياة المجتمع ، ولذا فان وضع الطبقة يتوقف على كونها تملك وسائل الانتاج او انها محرومة منها" (٢) . ولم يكن كل ذلك سوى تمهيد ، لاننا اعتبارا من الان صار ممكنا ان نقرأ باستيعاب

---

(١) مرقص ، الياس - الماركسية والمسألة القومية - دار الطليعة بيروت - ١٩٧٠ ص - ١٦٦ - ١٦٧

(٢) الطبقات والصراع الطبقي - ترجمة فؤاد المرعي - منشورات دار الفجر بدون تاريخ ص ١٦

اكبر الوصف الميداني للمس الطبقي على الساحة الاوروبية كما سجلها ماركس في البيان الشيوعي لعام ١٨٤٨ ، اي تقريبا على مقربة من الزمن الذي من المفترض ان تكون قد دارت فيه المعارك الطاحنة من اجل " لقمة العيش " بين البورجوازية اليهودية والبورجوازيات الاوروبية المسيحية يقول البيان : " ان تاريخ المجتمعات الانسانية هو تاريخ نضال بين الطبقات ... ولكن ميزة العصر الحالي ، عصر البورجوازية ، هي انه بسط التناحر الطبقي . فالمجتمع اخذ في الانقسام ، اكثر فاكثر ، الى معسكرين متعارضين ، الى طبقتين كبيرتين متعاديتين : البورجوازية والبروليتاريا " .

" ان البورجوازية هي نتيجة تطور طويل وسلسلة من الثورات في اساليب الانتاج والمواصلات . لقد لعبت البورجوازية في التاريخ دورا ثوريا عظيما . سحقت تحت اقدامها العلاقات الاقطاعية والبطريركية والعاطفية .. وهي لا تستطيع ان تعيش الا اذا قلبت ثوريا ادوات الانتاج ، بصورة دائمة وبالتالي علاقات الانتاج ومجمل العلاقات الاجتماعية ... انها تقضي اكثر فاكثر على تبعثر وسائل الانتاج والملكية والسكان . لقد ضمت الاقاليم في امة واحدة تحت حكومة واحدة ، وقانون واحد ، ومصلحة قومية واحدة طبقية ، وراء حاجز جمركي واحد . ضربت نظام الملكية الاقطاعي الذى اصبح عائقا امام نمو قوى الانتاج واقامت محله نظام المزاحمة الحرة والسيادة البورجوازية " (١) وتحدث البيان عن (الهوامش الاجتماعية) فقال : ان الطبقات الوسطى ، صغار الصناعيين والباعة بالمفرق والحرفيين والفلاحين تحارب البورجوازية لانها خطر على وجودها كطبقات متوسطة . فهي ليست ثورية بل محافظة ورجعية ، تسعى الى ارجاع عجلة التاريخ الى الوراء . وحين تكون ثورية ، تكون ثورية اعتبارا منها لانتقالها الوشيك الى البروليتاريا " (٢)

---

(١) جرقدر ، الياس - الماركسية والشرق - دار الطليعة - بيروت ١٩٦٨ ص - ٣٥

(٢) المصدر نفسه - ص ٣٧

اذن ، ها نحن قد وصلنا اخيرا الى مشهد حسي نادر ، ولا يستطيع احد ان يدعي انه غير قادر على تحديد هوية العناصر التي يراها امامه . ان جميع العناصر التي هي محل جدال مع مؤلف " دراسات يسارية " ، تستعرض نفسها امامنا . وكل فريق يحمل علمه الخاص ، تماما كما يحدث عندما نتفرج على مهرجان رياضي . نحن الان في منتصف القرن التاسع عشر ، حيث انتصرت الطبقة البورجوازية انتصارا كاملا في اوروبا الغربية كلها ، وكانت في تلك اللحظة ، لحظة صدور البيان ، تشرع في الانتصار على ساحة اوروبا الوسطى ايضا . واول عمل قامت به ، بعد النصر ، هو توحيد ارضها القومية التي كانت مجزأة وصهرها شعبها الذي كان مجزأ في امة واحدة . ثم سيجت سوقها القومية الخاصة بها (حدود وطن الامة التاريخي) بالحدود الجمركية ومنعت بضاعة الاخرين من الدخول اليها . ونرى هذه الطبقة البورجوازية وهي تقف على يمين الملعب ، آخذة كامل عدتها ومستعدة للعراك . وهي تملك جميع وسائل الانتاج ، الارض والمناجم والمصانع ووسائل المواصلات ، ولا تترك للاخرين سوى الفتات .

وفي المقابل اخذ ينتظم في مواجهتها ، والى يسار الملعب ، تلك الطبقة التي ولدت من احشائها ، الملايين التي لا تملك سوى قوة عملها (ايديها وعقولها) ، الطبقة البروليتاريا . وهي تلوح بقبضتها وتهدد بالعراك هي الاخرى . وبالاضافة الى هذين المعسكرين الجبارين ، نشاهد على خطوط التماس الخارجية بعض الهوامش ، مجموعات غير منتظمة من الناس من مختلف الاصناف والمهن ، مثل " صغار الصناعيين والباعة بالمفرق والحرفيين والفلاحين " وما شابه . وهذه الهوامش التي هي بين المالكين وغير المالكين تسمى عادة باسم " البورجوازية "الوسطى" في الاعلى و"البورجوازية الصغيرة" في الاسفل . وهذه الشريحة الاخيرة لا تنتج شيئا تقريبا . وبالاضافة الى هذه الشرائح الهامشية توجد مجموعات اكثر ضحالة من "حثالة البروليتاريا" أو من " العايشين من الهوا" . وكل هذه الهوامش تعيش حياة قلقة ، اقتصاديا واجتماعيا ، لانها تتأرجح بين الخوف من

الفئة البورجوازية القوية والخوف من الافلاس النهائي والسقوط الى القاع البروليتاري . ومن المحتمل ان يكون مؤلف " دراسات يسارية " قد وجد بعض الصعوبات في ايجاد مكان ملائم للفئة البورجوازية اليهودية على المسرح الطبقي الاوروبي في ذلك الزمن الطبقي الحرج ، حيث كانت الطبقات في حالة تبلور وتمايز ظاهرين . والدليل على ذلك هو التعدد الملحوظ في الاسماء التي يطلقها على تلك الطبقة فهي مرة " البورجوازية اليهودية " ومرة " البورجوازية المتوسطة والصغيرة على وجه التحديد "(١) ومرة اخرى هي " البورجوازية اليهودية الصغيرة " التي سوف تبحث "تحت قيادة البورجوازية المتوسطة وبتحالف مع الرأسمالية (اليهودية) الكبيرة(٢) عن سوق قومية خاصة بها .

ومرة ثالثة هي " البورجوازية اليهودية الكبيرة " التي ستقوم بدفع " البورجوازية اليهودية الوسطى "(٣) لقيادة الحركة الصهيونية ..الخ.

ولكن بالرغم من كل هذه الصعوبات في تحديد مكان الطبقة واسمائها ، وهي صعوبات مفهومة ، فان المحاورة مع مؤلف دراسات يسارية يمكن ان تستمر بدون صعوبات كبيرة : بداية ، فان طبقته البورجوازية ، بمختلف تسمياتها ، الباحثة عن " سوق " قومية ، غير موجودة حتما الى يسار الملعب الطبقي حيث يقف اولئك الذين لا يملكون ما يبيعونه سوى قوة عملهم . اذن ، يجب ان نبحث عن تلك الرؤوس القومية اما على يمين المسرح واما على الهوامش .

<u>تشريح طبقي ليهود اوروبا</u>

ومرة اخرى ، الى شهادة اسحق دويتشر فهو ماركسي وحجة في دراسة اليهود طبقيا . ولقد وصف دويتشر التكوين الطبقي لليهود في اوروبا خلال القرن التاسع عشر كما يلي :

---

(١) دراسات يسارية - المصدر السابق - ص ٨٩

(٢) المصدر نفسه - ص ١٤٣

(٣) - المصدر نفسه - ص ١٤٤ .

في غرب اوروبا : " كان اغلبية اليهود تجارا يديرون اعمالهم على نطاق واسع في كثير من العواصم الغربية ، وكان بعضهم صيارفة كبار ، وكاد بيت روتشيلد يصبح رمزا للبورجوازية العليا اليهودية "(١) التي كانت عبارة عن " جزء صغير من طبقة الرأسماليين "(٢) الاوروبيين . وكان الى جانبهم " قليل من العمال اليهود ، وعدد غير كبير من الحرفيين وبعض اصحاب الحوانيت "(٣) .

في شرق اوروبا وروسيا :" الاغلبية العظمى من اليهود كانوا كادحين فقراء ، وحرفيين بدائيين ، وعمالا غير مهرة ، وخياطين ونجارين وعمال معادن (غالبا سكرية ، وصناع صنائع ، وصناع اقفال) . وكان هناك القليل من " البورجوازية والتجار واصحاب الحوانيت (٤) .

ومن الطريف ان الدكتور العظم ، بعد سنتين فقط من وضع كتابه " دراسات يسارية " ، يصف التكوين الطبقي ليهود اوروبا باوصاف مشابهة لتصنيف اسحق دويتشر ومخالفة لما ورد في " دراسات يسارية "

ففي عام ١٩٧٢ عندما كلف الدكتور العظم بمراجعة كتاب (الفكرة الصهيونية) على صفحات مجلة شؤون فلسطينية ،كتب يصف التكوين الطبقي لليهود ، فقال : " تركز يهود اوروبا في القرن التاسع عشر في قطاعات الانتاج الوسيطة والثانوية بدون ان يكون لهم اية قاعدة اساسية في القطاعات الاولية من عملية الانتاج . وبما ان المصادر الحقيقية والاولية للحياة هي القطاعات الانتاجية الاولى (الزراعة والصناعة مثلا) ، تبدو الفئات الاجتماعية غير المرتبطة بهذه القطاعات وكأنها تعيش من لا شيء او " من الهوا" كما تبدو عديمة الاصول والجذور والثبات"(٥) . ان اناسا هذا

(١) دويتشر - المصدر السابق - ص ٥٦
(٢) المصدر السابق - ص ٦١
(٣) = نفسه ص ٥٦
(٤) = = ذات الصفحة
(٥) مجلة شؤون فلسطينية - عدد ٩ - مايو (ايار) ١٩٧٢ ص ١٥٣ - اعتبارا من الان سأشير الى هذا المصدر ب (ش . ف)

شأنهم ، لا ينتجون شيئا في الزراعة والصناعة ، كان من المفروض ان لا ينتشوا عن سون قومية لا في " الخارج[1] " ولا في الداخل حسب ما ورد في " دراسات يسارية " . اذن ، وبعد على "البورجوازية العليا" التي كانت في الواقع مندمجة في الطبقة الرأسمالية الاوروبية ، باعتبارها كما قال دويتشر" جزء صغير من طبقة الرأسماليين " الاوروبيين ، نصل الى نتيجة وهي ان جميع يهود اوروبا ، غربها وشرقها ، كانوا تقريبا يقفون على خطوط التماس الخارجية في بعض الصراع الطبقي الاوروبي خلال القرن التاسع عشر . او بالاحرى خلف خطوط التماس . لانه لا يوجد بينهم حتى من اصناف تلك الشرائح ذات القيمة مثل " صغار الصناعيين" او " صغار الفلاحين " . انهم اليهود ، كانوا اضعف خلق الله بالنسبة للتصنيف الطبقي الماركسي ، ولا يتجرأون على الاشتباك مع احد ، ناهيك عن الاشتباك مع الطبقة البورجوازية المسيحية .

ويوضح ذلك اكثر دراسة حجمهم العددي البائس فوق ذلك المسرح الذى كان يتقابل فيه الملايين : - فبحسب ارقام الدكتور جمال حمدان ، كان عدد يهود اوروبا ، غربا وشرقا ، (٥ر٥) مليون يهودى سنة ١٨٨٠ . وفي ١٩٠٠ وصل العدد الى ٧ ملايين كان منهم في الامبراطورية النمساوية - المجرية اقل من مليونين منهم (١٧٦) الف في العاصمة فيينا . وكان

في رومانيا (٦٠٠) الف

في المانيا ٦٠٠ - ٧٠٠ الف

في فرنسا ١٨٠ الف

في بريطانيا ٢٠٠ الف

في ايطاليا ٥٠ الف (٢)

ومن المحتمل ان تكون بعض هذه الارقام غير دقيقة . اذ من المؤكد ، حسب مصادر اخرى ، ان يهود بريطانيا وصل عددهم عند نهاية القرن التاسع عشر الى ربع مليون ويبدو ان رقم الـ ١٠٠ الف كان يخص العاصمة لندن وحدها .

(١) دراسات يسارية - المصدر السابق - ص ٨٩

(٢) حمدان ، جمال - اليهود انثروبولوجيا - دار الكاتب العربي - ١٩٦٧ ص - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤

وابراهام ليون يذكر ارقاما اعلى قليلا ، فهي حوالي ٧ ملايين يهودي في عام ١٨٨٠ وحوالي عشرة ملايين في عام ١٩٠٠[(١)] . وتوجد ارقام اكثر دقة لعدد يهود المانيا غداة توحيدها على يد بسمارك ١٨٧١ حيث وصل عددهم الى حوالي نصف مليون . وكان هذا اكبر تجمع حتى ذلك الوقت في دولة قومية واحدة خارج روسيا واوروبا الشرقية . اما نسبتهم للمواطنين الالمان فكانت ٢٥ر١ ٪ . وكان في العاصمة برلين (٣٣٧٣) ونسبتهم الى سكان العاصمة ٧ر١ ٪ وفي عام ١٩١٠ وصل عددهم في برلين الى (١٤٤) الف وارتفعت نسبتهم الى سكان العاصمة فبلغت ٦ر٣ ٪ . ومما هو جدير بالملاحظة ان الارقام والنسب المذكورة تعود الى تلك الدول الكبرى التي ولدت في عواصمها (لندن ، باريس ، برلين) الحركة الصهيونية .

ها نحن ، اذن ، وبعد جولة تفقدية ، نظرية وحسية اختبارية ، في الساحة الطبقية لاوروبا القرن التاسع عشر ، وكان هدفها تحديد مكان وحجم اليهود في لعبة التاريخ الطبقية تلك ، وصلنا في نهاية المطاف الى التعرف الى مجموعات (شرائح) من البشر (اليهود) ، لا يسمح لهم دورهم الهامشي في عملية الانتاج ولا نسبتهم شبه المهملة الى عدد السكان ان يكون لهم اى اثر مستقل (كيهود) في تلك الدراما الطبقية الهائلة التي كانت تتجابه فيها قوى اجتماعية تعد الملايين .

ولا يستقيم مع الواقع النظرى او العملي إتجاه عرض الاراء في " دراسات يسارية " حيث يكون على القارىء بحكم انطلاق العرض ان يظل مقيدا الى الشعور وكأن ماركس في " المسألة اليهودية " او " ماركس نفسه " على لسان شارحه المفترض ابراهام ليون ، قد قال : ان الحركة الصهيونية ، التي كانت من اكبر ادوات الصراع على الساحة الدولية في الحربين العالميتين ، والتي يسبب الان جيشها الرعب للشرق الاوسط باسره ، قد ولدت من الاحتكاك الطبقي بين هؤلاء التعساء ، اليهود ، " العايشين من الهوا " في غالبيتهم وبين الطبقة البورجوازية الاوروبية المسيحية ،

---

(١) المفهوم المادى - ط - المصدر السابق - ص ١٥٥

وهي الطبقة التي انتقلت في زمن ولادة الحركة الصهيونية الى استعمار العالم باسره بواسطة جيوشها ورأسمالها وبضائعها. وانه لتصور وهمي ولا اساس له في البنية الطبقية لاوروبا القرن التاسع عشر، ان يتصور مؤلف دراسات يسارية ان الصهيونية هي " ردة فعل قوية ضد البورجوازية الاوروبية المحلية (المسيحية) التي دخلت معها في صراع اقتصادي مرير دام في ظل نظام التنافس الحر " (١)

<u>تصورات وهمية عن قومية يهودية</u> :

لقد تصور مؤلف دراسات يسارية ان الصهيونية هي " الحركة القومية البورجوازية اليهودية " وان صراعها مع البورجوازية الاوروبية دفعها " نحو البحث عن سوق وطنية خاصة بها لا يزاحمها عليها احد " (٢) خارج القارة، اي في فلسطين . وترد الدكتورة بديعة امين بشدة على فكرة ان تكون الصهيونية أيديولوجيا طبقة بورجوازية يهودية، فتقول : " من الصعب جدا ان نوافق الدكتور العالم على هذا " أي ان تكون " الصهيونية هي التعبير الايديولوجي والقومي للبورجوازية اليهودية " (٣). كيف يمكن الموافقة على ذلك فعلا ؟ ان ابراهام ليون وصادق جلال العظم والاخرون ممن يعتنقون فكرة قومية بورجوازية يهودية، انما يخترعون تاريخا للصراع الطبقي في اوروبا غير الصراع الطبقي المسجل في تاريخ اوروبا . فالمسألة اليهودية برمتها، باعتبارها مسألة اقليات دينية كانت تعاني في مختلف البلدان من التمييز والاضطهاد داخل اطار العلاقات الاقطاعية، قد بدأت بالتبخر والاختفاء شيئا فشيئا في نظام العلاقات الرأسمالية، هذا النظام الذى توج باقامة الدولة القومية البورجوازية الجديدة المنتصرة . فمن اى صراع وهمي يجرى الحديث ؟ . كتبت بديعة امين " ولكن الذى حدث عند اكتمال تكون الطبقة البورجوازية الاوروبية

---

(١) دراسات يسارية — ص ٨٩
(٢) = = المصدر نفسه ص ٨٨ — ٨٩
(٣) امين، بديعة — المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية — دار الطليعة — بيروت — ١٩٧٤ — ص ١٣٦

(المسيحية) وانتصار علاقات الانتاج الرأسمالية هو ان تلك المشكلة اليهودية كانت قد انتفت كليا وفي كل بلد بعد اخر من بلدان اوروبا الغربية " . لا بل ان البورجوازيات المسيحية ، في جميع بلدان اوروبا الغربية ، رأت ان من مصلحتها او " لمصلحتهما المشتركة " ان تخلط اموال اليهود " البورجوازيين" فوق اموالها . او بالاصح ان تدمج اموال المصرف مع اموال المصنع . وهذا الاندماج المالي الصناعي ، اليهودي والمسيحي هو الذي يفسر ان المشكلة اليهودية " بدأت بالضمور اولا في البلدان الاوروبية التي كانت اكثر تقدما في المجال الصناعي والتجاري والبحري من بقية بلدان الجزء الغربي من القارة .كما كان الامر بالنسبة لانكلترا وبلجيكا وهولندا "

" اقول ان هذا الاعتقاد يبتعد كثيرا عن الحقائق التاريخية وعن واقع الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي وجدت ضمنها التجمعات اليهودية في بلدان اوروبا الغربية - تلك الظروف التي ادت الى " تلاشي الهوية اليهودية " في نفس الفترة التي بدأت في اواخرها الحركة الصهيونية بالظهور " . هل يعقل ان يولد حوت من محارة صغيرة على الشاطىء ؟ .

" ان اعتبار الحركة الصهيونية على انها الحركة القومية للبورجوازية اليهودية وانها وسيلة للبحث عن (سوق وطنية) او اقامة (وطن قومي) ، انما يبدو كمن يقطع رأسه ليجتاز بابا دون قامته ارتفاعا ". فاليهود كانوا في القرن التاسع عشر ينتمون " بصورة رئيسية الى الطبقة البورجوازية الصغيرة " . وهي طبقة اعجز من ان تحمي نفسها ناهيك عن تلك المداخل الاستعمارية الخطرة مثل التفتيش عن مستعمرات . اما الحيتان النادرة ، البارونات " البورجوازية العليا " فقد كانت بغنى عن اختراع قوميات خاصة بها واسواق خاصة بها ، لانها كانت قد "اندمجت بالبورجوازية الاوروبية وان اسواق ومصادر المواد الخام في الشرق الاسيوي - الافريقي قد فتحت امامها أوتوماتيكيا عن طريق اندغام رساميلها بالرساميل الاوروبية (المسيحية ")(1) .

---

(1) المصدر السابق - ص ١٣٧ - ١٣٨

" ان البورجوازية اليهودية ، العليا او الصغيرة على حد ســواء ، لم يكن لديها سبب يدفعها الى ان تخوض صراعا اقتصاديا مريرا ودائما ضد البورجوازية الاوروبية المسيحية ، كما ولم يكن لديها سبب يدفعها الى البحث عن سوق وطنية خاصة بها ، كما يقول الدكتور العظم . ان البورجوازية اليهودية العليا ذات الطابع الكوزموبوليتاني قد وجدت بالفعل اسواقا واسعة لها في كل انحاء العالم ، بما في ذلك اوروبا الغربية والشرقية . اما البورجوازية الصغيرة ، فانها طبقة غير منتجة وبطبيعة الحال ، فان اية طبقة غير منتجة لا تحتاج الى سوق وطنية " . اما الحديث عن السوق الوطنية لتصريف منتجات الطبقة البورجوازيـــة الصغيرة والمتوسطة اليهودية ، فانه نوع من مفارقة تاريخية او الحديث عن امر غير قائم على انه قائم فعلا " . وبشكل غير مباشر تشير المؤلفة الى ان خطابات خيالية عن فتح سوق لبضاعة غير موجودة (بضاعـــة البورجوازية الصغيرة) ، يشبه الى حد كبير حديث الصهاينة عن الاسواق والاوطان القومية لها فتضيف " وبكلمة اخرى ، ان قادة الحركة الصهيونية كانوا باختصار يضعون العربة امام الحصان تماما - فقد كانوا يتحدثون عن السيطرة الاقتصادية والاستعمار قبل ان تكون لديهم قاعدة انتاجيـــة وقبل ان تكون لديهم منتجات في انتظار سوق تصرف فيها " (١).

قال الدكتور اسعد رزوق ان " الصهيونية من ابرز الحركات النكوصيـة في تاريخ العالم الحديث ... اذ ينكشف مضمونها الاخير عن تصميم دقيق على دفع عجلة التاريخ مئات السنين وعشرات القرون الى الوراء . حتى لكأنها تريد للتاريخ ان يعود القهقرى " . ومؤلف دراسات يسارية يرى ان هذا الحكم على الحركة الصهيونية غير صحيح ولا يأخذ الا مظاهرهـا الخارجية دون مضامينها الحضارية التقدمية . فيقول : " يكمن الخطأ الاساسي في هذا الحكم في عدم التمييز بدقة بين المضمون التاريخـــي الواقعي للحركة الصهيونية ومشاريعها وبين بعض مظاهرها القوميــة

---

(١) المصدر السابق -- ص ١٤٠ - ١٤١

والحضارية والثقافية " . والاوامر التي خدعت اسعد رزوق في سلوك الحركة الصهيونية في " استعادة ارض الاجداد " و " العودة الى التراث والقيمة الروحية اليهودية " والعودة الى ممارسة طقوس كان معمولا بها قبل الفي سنة . ولا يوجد هنا ما هو غير طبيعي وغير عادي . فالدكتور العظم طالما رأى في الحركة الصهيونية حركة قومية للطبقة البورجوازية اليهودية ، لذلك كان امرا عاديا ان تأخذ بالنسبة له الصفة الحضارية التقدمية . فالحركة الصهيونية ، يقول الدكتور العظم " كانت تريد دوما اقامة دولة مرتبطة بالقوى الاستعمارية السائدة وذات محتوى بورجوازي رأسمالي عصري جدا وقائم على اخر منجزات الحضارة الاوروبية الحديثة في كافة الميادين " (١). ومرة اخرى لا يوجد شيء غير طبيعي او غير عادي ، على الاقل من خلال السياق الذي ينظر فيه الدكتور العظم للصهيونية . فالنضال القومي البورجوازي في اوروبا هو باني الحضارة الحديثة والدولة الحديثة ، وهي دولة الحرية والعدالة والمساواة . وكان هذا التطور (البورجوازي) انتقال في سلم الحضارة لا مثيل له . ولا يوجد خلاف على هذا الامر حتى في المجالات الايديولوجية الاكثر تعارضا . ففي الوقت الذي كان فيه بسمارك يكتسح حدود الدويلات الاقطاعية الالمانية ويطرد الجيوش الاجنبية من بلاد الالمان ويوحدهم في دولة قومية واحدة تحت سلطة الطبقة البورجوازية الالمانية ، اعلن ماركس وانجلز من موقف المعارضة العمالية وكانا هاربين من بسمارك ، " ان بسمارك يقوم بجزء من عملنا " (٢) . وفيما بعد قال لينين وهو باني اول دولة عمالية في التاريخ ، أن " كل الديمقراطيين الشرفاء والثوريين وكذلك كل الاشتراكيين (٣) " يشتركون في النضال القومي من اجل التحرير .

---

(١) دراسات يسارية - المصدر السابق ... ص ١٣٦ - ١٣٧
(٢) الماركسية والمسألة القومية - المصدر السابق - ص ٤٣
(٣) المصدر نفسه . ص ٢٢٩

لا خلاف اذن على المضمون الحضاري والتقدمي للنضال القومي البورجوازي وتاج هذا النضال ، الدولة البورجوازية القومية ، لان في هذا الاطار تم تحرير العقل من اساره وتم تحرير قوى الانتاج من اسارها . وهكذا بكلمة واحدة حدث بناء الحضارة الصناعية المعاصرة . لكن الخلاف هو : هل الحركة الصهيونية هي الحركة القومية للطبقة البورجوازية اليهودية في الامة اليهودية ؟ وهل الدولة الاسرائيلية هي الدولة القومية البورجوازية للامة اليهودية ؟ وذلك حتى تستحق الحركة الصهيونية ودولتها تلك الاوصاف التقدمية التي توصف بها البورجوازية ودولتها في العصر الحديث ، لا يستطيع مؤلف "دراسات يسارية" ان يأتي بواقعة واحدة لها صفة الواقعة الموضوعية تثبت ان الحركة الصهيونية تستحق مثل هذا الشرف القومي. " ان الحركة القومية - كتبت بديعة امين - كانت تستهدف للقضاء على التبعثر القومي وتوحيد امة واحدة موجودة فعلا ولها تاريخ مشترك وثقافة مشتركة ولغة مشتركة وتعيش فوق ارض واحدة الا انها ارض مجزأة سياسيا واقتصاديا بسبب السيطرة الاقطاعية . اما الحركة الصهيونية فلم تكن تمتلك ايا من المقومات الاساسية لمفهوم الامة القومية "(١) . لقد اعطى الدكتور الظالم صفة التقدمية للحركة الصهيونية لانه ساوى ، تعسفا وبشكل غير مشروع ، بين ظاهرتين غير متساويتين : فقد ساوى بين الحركة الصهيونية التي ولدت من احتياجات دولية وعملت منذ تأسيسها على الاستيلاء على ارض شعب آخر ، وبين الحركات القومية الاوروبية التي عبرت عن تطلعات ونضالات شعوب اوروبا التي طمحت الى توحيد اوطانها التاريخية التي كانت ممزقة والى توحيد قواها الاقتصادية والسياسية في ظل دول موحدة ينعم جميع مواطنيها بالحرية وحماية القانون .

---

(١) المشكلة اليهودية - المصدر السابق - ص ١٤١

دور اليهود في صراع الطبقات الاوروبي الحديث

كان الحديث عن الهوامش وخطوط التماس الخارجية في الصخب الطبقي الاوروبي يهدف الى دحض الفكرة الخيالية عن وجود جبهة يهودية (طبقة) خاصة ولها مصالح مستقلة ومتناقضة مع مصالح القوى الطبقية المتشابهة على ساحة الصراع الطبقي الاوروبي في القرن التاسع عشر. يقول الدكتور المسيري : " لم تكن هناك طبقة عاملة يهودية لها مصالح مستقلة ، فانخرط العمال اليهود في صفوف الحركات الثورية المختلفة ، وتم استيعابهم فيها استيعابا كاملا ، مثلما استوعبت المسيحية البورجوازية (القومية) البورجوازية اليهودية " (1) .

فاليهود ، رغم قلة عددهم وهامشيتهم الاقتصادية ، الا انهم كانوا مواطنين في تلك البلدان . وقد شاركوا مع مواطنيهم في الصراعات الاجتماعية والسياسية حسب الادوار التي خصها لهم التاريخ وحسب فئاتهم : فقد ذهب الاشتراكي مع الاشتراكيين ، وذهب الليبرالي (البورجوازي الصغير والمتوسط) مع الليبراليين ، كما انحاز اصحاب بيوت المال الى اقرانهم من الرأسماليين .

فاليهود ، وبعكس التصور الخرافي لابراهام ليون عن " الشعب - الطبقة " (2) متواجدين من اقصى اليمين الى اقصى اليسار على ساحة الصراع الطبقي في اوروبا القرن التاسع عشر . بل وأحيانا كانوا متواجدين بأكثر من حجمهم الاجتماعي او نسبتهم العددية . واذا تابعنا قراءة التاريخ مع اسحق دويتشر ، فالاثرياء والمتسولون كانوا يشكلون ، كما ورد من قبل ، " جزء صغير من طبقة الرأسماليين " . اما الفقراء جدا ، الذين لا يملكون شيئا على الاطلاق فقد كانوا ، خاصة في شتات وجودهم الكثيف في روسيا وشرق اوروبا ، يشكلون جزء من طبقة العمال واحزابها الثورية ،

---

(1) المسيري ، عبد الوهاب - الايديولوجيا الصهيونية - ج ٢ - المجلس الوطني للثقافة والفنون - الكويت ١٩٨٣ - ص ١٦٣

(2) المفهوم المادي - ط ا - المصدر السابق - ص ٢٧

بل كانوا هنا بالذات يمثلون اكثر من حجمهم . اما اولئك الذين بين بين (البرجوازية المتوسطة - التجار ، والبورجوازيين الصغار) فقد غصت بهم الاحزاب الليبرالية في كل مكان وخاصة في غرب اوروبا ، وكانوا هنا ايضا يمثلون اكثر من حجمهم . " وكان ال روتشيلد يمثلون السلطة والسيطرة المالية للبورجوازية المالية بين الطبقات الوسطى الفرنسية والبريطانية والالمانية " ويقابلهم من الناحية الاخرى "القادة الاشتراكيون البارزون ذووا الاصل اليهودي مثل ماركس ولاسال "(١) .

ففي مقابل هيرس وغغينتسبرغ واوبنهايم ، في برلين وفيينا وسان بطرسبورغ ، كان هناك مارتوف اليهودي في زعامة الحزب المنشفي الروسي ، وكان هناك تروتسكي اليهودي في زعامة الحزب البلشفي الروسي ، وكانت هناك روزا لوكسمبورغ في زعامة الحزب الاشتراكي الالماني . ولقد كان هؤلاء : " مصممين تماما على جذب العمال اليهود الى نضال رفاقهم الروس ضد القيصرية وضد النظام القديم الذي كان قائما في شرق اوروبا ، وكانت روزا لوكسمبورغ ، تلك المرأة الثورية الدائمة ، ذات الاصل اليهودي ، تتبنى نفس الرأي ، بل كانت اكثر من لينين ومارتوف تمسكا باستيعاب اليهود (٢) .

" لقد ساد بين يهود شرق اوروبا الشعور بانه ليس غير الثورة للاطاحة بالقيصرية ، طريقا الى الخلاص من التفرقة والاضطهاد اللذين كانوا يتعرضون لهما ، فلعب اليهود دورا بارزا في الحركة الثورية "(٣) .

كان يهود اوروبا ، شرقها وغربها ، واعتبارا من النصف الثاني من القرن التاسع عشر بشكل خاص ، قد خرجوا من قوقعتهم اليهودية منخرطين كغيرهم في تيار المجتمع البورجوازي الجديد الصاعد ، وكانت جميع قوانين هذا المجتمع تنطبق عليهم وخاصة قوانين التمايز الطبقي .

---

(١) دويتشر - المصدر السابق ص ٦٠

(٢) المصدر نفسه ص ٦١ - ٦٢

(٣) " " ص ٦٣

رغم في ذلك لا يختلفون عن امثالهم من الاقليات والعناصر القومية والدينية الاخرى . ولم يقل احد انه ينطبق على اليهود قوانين خاصة غير قوانين التاريخ ، الا الصهيونيون ، الذين كان من مصلحتهم دائما ازاحة قوانين التاريخ جانبا ووضع الخرافات بدلا منها * .

" ان الحديث عن (الجماعة اليهودية) ككيان شامل ، اذن ، امر لا معنى له وبالنسبة للماركسي ، هو كذلك مرتين : ان الماركسي يرى كل المجتمعات اولا من وجهة نظر انقساماتها الطبقية ، لكن الطائفة اليهودية لا تضم فقط طبقات اجتماعية متضاربة وحسب ، بل لقد انقسمت جغرافيا ايضا ، ففي كل بلد كان اليهود فيه اقلية ، أثر فيهم التراث الثقافي القومي على نحو مختلف ، وطبع منظلقتهم الفكرى بطابع مختلف" (١) وفي معرض الحديث عن الاندماج الثقافي والقومي ، يذكر اسحق دويتشر ان اليهود الالمان اخترعوا الكثير من النكات اللاذعة ضد يهود اوروبا الشرقية . وذلك كدليل ان كل جماعة يهودية في اى بلدان كانت مندمجة آنذاك في الاطار الاجتماعي والثقافي لجماه البلد الذى تعيش فيه .

<u>اليهود الليبراليون في الغرب</u>

ومثلما انحاز في الشرق الاشتراكيون مع الاشتراكيين ، كذلك في الغرب انحاز الليبراليون مع الليبراليين . في الغرب ، حيث دارت اكبر المعارك القومية الطاحنة على الساحة الاوروبية ، في المانيا - النمسا - المجر - ايطاليا ، كان يهود هذه البلدان قوميون غير ولكنهم لم يكونوا قوميين يهود ولكن قوميين المان ونمساويين ومجريين وايطاليين .. الخ .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٦

* - يقول بن غوريون : " عندما نقول : امة يهودية موحدة ، ينبغي ان نتجاهل واقع تشتت الامة اليهودية في كل انحاء العالم ، وكون اليهود الذين يقطنون هذا البلد او ذاك هم مواطني تلك الدول التي يعيشون فيها " (احذروا الصهيونية - ص ١٤٥)

ؤاقرأ في دور اليهود القوميين الليبراليين عند الباحث العربي اسعد رزوق ومن كتابه - " الصهيونية وحقوق الانسان العربي " : " ففي الثورات والانتفاضات التي شهدتها اوروبا عام ١٨٤٨ كان اليهود يؤلفون منذ البداية طليعة الثائرين والاحرار في سبيل القضاء على هيمنة الرجعية والحكم المطلق " . وآنذاك ناشد شاعر المانيا اليهودي (هاينريخ هاينه) يهود بلاده ، قائلا : " على اليهود ان يدركوا اخيرا بانهم لن يحققوا التحرر التام الا متى انجز المسيحيون تحررهم بصورة تامة ومضمونة . ان قضيتهم مطابقة لقضية الشعب الالماني ، ولا حاجة بهم الى المطالبة كيهود بما يحق لهم منذ زمن طويل كمواطنين المان " . كما شارك اليهود الالمان في برلمان (فرانكفورت) الذي اعلن الحقوق الاساسية للطبقة البورجوازية الديمقراطية الصاعدة ، " المساواة المدنية التامة وحرية الوجدان الاجتماعي " . وقد اعلن نائب رئيس البرلمان غابريال ريسر (١٨٠٦ - ١٨٦٣) باسم جميع يهود المانيا : " نحن لم نأت البلاد مهاجرين ، بل مولودين فيها ، ولاننا من اهلها ، فلا يحق لنا ادعاء اي مكان اخر كوطن . نحن اما المانيون او بلا وطن "(1). وكان هذا اول جواب سياسي من القومية اليهودية المزعومة على بداية المناداة بالفكرة الصهيونية التي كانت تطلقها آنذاك الدوائر السياسية العليا في لندن وباريس .

"ولم يكد يأتي العام ١٨٦٧ حتى كان اليهود قد حققوا التحرر التام في المانيا والبلاد التابعة للامبراطورية النمساوية - المجرية . اذ شهدت اوروبة آنذاك ذروة انتصار الليبرالية في جميع مرافق الحياة والتفكير " . وهذا يعني ان حوالي مليونين ونصف من اصل ثلاثة ملايين يهودي في اوروبا الغربية كلها ، كانوا قد دخلوا آنذاك في حومة ذلك الصراع الوطني من اجل حرية الالمان وتوحيدهم وتوحيد بلادهم المجزأة تحت النير الاقطاعي في دولة واحدة ، ديمقراطية وبورجوازية .

(1) رزوق ، اسعد - الصهيونية وحقوق الانسان العربي - ج ١ - مركز الابحاث - بيروت ١٩٦٨ - ص ٢٤

" وسارع اليهود الى اعلان ولائهم للفكرة الجديدة القائلة بتوحيد عموم مقاطعات المانيا ودويلاتها تحت راية بسمارك رئيس الرايخ الثاني او الامبراطورية الالمانية في ظل غليوم الاول".

" كما وقفوا الى جانب الليبراليين في صراعهم مع الاكليروس ومحاولتهم انتزاع تلك الامتيازات الهامة من الكنيسة والبابوية في حقول الزواج والتعليم والملكية ، ولا غرو فان يهود المانيا - النمسا - المجر ، كانوا ينتسبون الى الطبقات التجارية داخل البورجوازية الصاعدة في عالم المال والاقتصاد والتجارة . والوحدة القومية مع ما يرافقها من ازالة الحواجز الاقتصادية والعقبات المحلية ، تعود عليهم بشتى المنافع والمكاسب "(١) .

" فقد استطاع اليهود البورجوازيون في المانيا والنمسا ان يطابقوا بين طموحهم السياسي وطموح البورجوازية الالمانية والنمساوية على العموم " .. " وهكذا احتلت البورجوازية اليهودية في اوروبا الغربية مراكز مرموقة في عالم المال والتجارة والاقتصاد، وقطفت ثمار الليبرالية والنفوذ السياسي المنشود على اكمل وجه "(٢) .

ها هو اذن ، المكان الثاني بعد روسيا واوربا الشرقية للتمركز اليهودي الكثيف ، وهم هنا جميعا تقريبا من صنف " البورجوازية المتوسطة والصغيرة على وجه التحديد" ، يشتركون مع اقرانهم ، البورجوازيين المسيحيين ، في وسط اوروبا ، في تلك الدراما القومية العظيمة ، التي قضت نهائيا على ما تبقى من معاقل النظام الاقطاعي في اوروبا الغربية باسرها ، حيث أنشئت الدولة القومية البورجوازية الالمانية تحت زعامة بسمارك . وقد رأى فيها اليهود البورجوازيون الالمان دولتهم القومية ووطنهم القومي ، بل وتحررهم الكامل من نظام الامتيازات الاقطاعي . وبسبب هذه الحرية ومن اجلها غنى لهم شاعرهم وشاعر المانيا القومي هاينه . وفي مؤتمر بتسبورغ للكنيس الاصلاحي اليهودي (١٨٨٥) ، اعلن

(١) المصدر السابق - ص ٢٤ - ٢٥
(٢) = نفسه - ص ٢٦ - ٢٧

الحاخاميون الالمان والنمساويون : " نحن نرى في العصر الحديث عصر حضارة العقل ... نحن لا نعتبر انفسنا امة بعد اليوم ، بل جماعة دينية . ولذا لا نتوقع عودة الى فلسطين "(١). وكان هذا ثاني رد مفحم من الكنيس اليهودي في وسط اوروبا على جوقة "الدالاي" وال "كاليشر" ، التي كانت قد شرعت آنذاك بالغناء عن " الوعد" و " ارض الميعاد" وعن مجد " الله الذي اختار صهيون" .

البورجوازية لا تصارع نفسها

ان حديثنا عن " التنافس الاقتصادي الضاري مع البورجوازية اليهودية " ، وان بورجوازية ما (اليهودية) ، لكي " تحرر نفسها من الحصار الاقتصادي المفروض عليها من قبل البورجوازيات المحلية ودولها "(٢) تضطر للرحيل الى مكان اخر ، الى فلسطين مثلا.. وان مثل هذه الاحاديث يمكن ان تدون على صفحات الكتب العربية او الجرائد العربية وذلك لنفس الاسباب المار ذكرها . وليس من الضروري ان يكون الكلام موجها بالتحديد الى " دراسات يسارية " .

ان ذلك يعني ان البورجوازية ، الطبقة البورجوازية الواحدة في الدولة الواحدة ، يمكن ان تتقاتل مع نفسها . وهذا لا يمكن بالطبع ان يحدث في العلاقات الطبقية الواقعية . فالبورجوازية هي ، في مظاهرها الاقتصادي المحض ، انتصار للاقتصاد النقدي ، المالي ، على الاقتصاد الطبيعي ، العيني والسلعي ، الاقطاعي . وقد انشأت الطبقة البورجوازية مؤسستين اساسيتين متخصصتين بحفظ وتداول الملكية ، وهما البنك والبورصة . فالبورجوازية ترمز الى ملكيتها بالاوراق النقدية والاسهم البنكية التي يتم تداولها بواسطة سوق الاوراق المالية - البورصة . فالعلاقة بين البورجوازي والبورجوازي الاخر في هذا النظام هي علاقة اسهمية - نقدية ، وليست علاقة دينية او عرقية . ففي البنك

---

(١) بذوفه ، إسيب - الدولة والدين في اسرائيل - مركز الابحاث - بيروت ١٩٦٨ ص ٢٢

(٢) دراسات يسارية - المصدر السابق - ص ١٣٨ - ١٤٣

تحفظ ارقام حسابات جميع المالكين البورجوازيين ، بصرف النظر عن عقائدهم الاخرى . واذا كانت مثل هذه النقطة البسيطة غير مفهومة ، فان اى حديث عن البورجوازية يصبح حديثا عموميا وغير محدد . والمهم هنا فهم ابسط علاقة : - ان شخصين (بورجوازيين) يمكن ان يتصارعا اقتصاديا مستخدمين في صراعهما جميع الحيل الاقتصادية ، ولكن ليس بوصفهما ينتميان الى دين معين ، يهودى ومسيحي مثلا ، ولكن بوصفهما مالكين للنقود والاسهم البنكية ليس الا .

وكان هرتزل ، وهو شخص خيالي ولا يوصف ابدا بانه مكين في فهم الوقائع الاقتصادية ، ولكن باعتباره اوروبي وابن تاجر من الاثرياء من الطبقة الوسطى في فيينا ، كان بامكانه ان يدرك هذه المسألة تماما . فقد قال انه " في الماضي" في الزمن الاقطاعي ، عندما كانت ثروة اليهودى تتمثل على شكل مجوهرات وذهب وفضة ، كانوا قد " انتزعوا من اليهود مصالحهم " ، اما الان ، في الزمن البورجوازى ، فبأى شكل يمكن " انتزاع اموالهم المنقولة حين تكون معبرة عنها على قصاصات الورق المحتفظ بها في مكان ما ، وربما حتى في الخزائن المسيحية ". كما ان هرتزل ، وايضا باعتباره اوروبي وبورجوازى ، قد ادرك ان الطبقة البورجوازية لا تتقاتل مع نفسها ، لان الطبقة باعتبارها طبقة لها مصلحة مشتركة داخل حدود الدولة القومية . فقد قال هرتزل وهو يصف الموقف البورجوازى من اليهود في البلدان الاوروبية : " وجدنا انفسنا بعد الانعتاق في دائرة البورجوازية .. ولم تكن البورجوازية المسيحية ضد رمينا فريسة للاشتراكية ، الا ان ذلك ما كان ليساعدنا كثيرا .. لنحن نتحول ، اذ نفلس ، الى بروليتاريين ثوريين ، مموضين جميع الاحزاب الثورية بضباط صف" (1). فالطبقة الواحدة في السوق الواحدة والدولة الواحدة ، لا تتقاتل مع نفسها والا كانت كمن يسعى الى حتفه بظلفه كما يقول مثل عربي قديم .

---

(1) - احذروا الصهيونية - المصدر السابق - ص ٦٧

وفي تاريخ الصهيونية وقائع ذات دلالات شبه تعليمية لبساطتها ووضوحها : ان هرتزل ، وهو من المفروض ان يكون بطل الصراع القومي البورجوازي اليهودي ، حسب الدكتور السلم ، كان قد اجرى حوارا بورجوازيا صرفا مع جهة بورجوازية صرفة غير يهودية ، ولكن لاسباب غير صراعية البتة ، بل على العكس كانت ودية للغاية .

ان هرتزل باعتباره من اصل الماني ، وكان مشبعا بالثقافة الالمانية ومفعما بمحبة الالمان* ، كان يحلم في البداية بانشاء دولة يهودية المانية تحت حماية المانيا . وكان اول من قابل من حكام اوروبا لعرض مشروعه " دوق بادن الاكبر " عم الامبراطور غليوم الثاني .

قال هرتزل للدوق : ما رأيك يا سيدي الدوق اذا اقمنا مشروعا مشتركا " محمية المانية " يهودية في فلسطين ، تمول نفسها بنفسها . المال من يهود المانيا الاغنياء وايضا من البيوتات المالية اليهودية الكبرى في العالم " ، والرجال من اولئك اليهود المهاجرين القادمين الى المانيا من اوروبا الشرقية وروسيا ، وهكذا نكون قد ضربنا عصفورين بحجر واحد ، فمن ناحية نكون حولنا " سيل المهاجرين المتدفق من

---

* - كانت طبقة النبلاء الالمان وخاصة البروسيين هي المثال الاعلى لتيودور هرتزل . وقد سجل في مذكراته في ٢٧ حزيران (يونيو)١٨٩٥ : " ان كان هناك شيء اصبو اليه فهو ان اكون احد اعضاء طبقة النبلاء البروسية العريقة " . وقد فكر في البداية باقامة دولة يهودية تحت الحماية الالمانية وسجل في مذكراته يوم ٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٨ : " ان نعيش تحت حماية دولة المانية القوية والعظيمة والاخلاقية والرائعة الحكم والوثيقة التنظيم - فهذا ليس من شأنه الا ان تكون له افضل الاثار في الشخصية القومية اليهودية " .

(ش . ف - عدد ١٥ - تشرين اول ١٩٧٢ - ص ٧١)

اوروبا الشرقية الى فلسطين بدلا من المانيا . ومن ناحية ثانية تكون قد خلصنا المانيا من اولئك اليهود الذين " يبدون انفسهم مرغمين على الارتماء في احضان الاحزاب الثورية " . لان الحركة الصهيونية ، كما اوضح هرتزل ، " باتت تجد نفسها ملزمة في كل ميدان بشن معركة قاسية ومريرة ضد الاحزاب الثورية ، اذ ترى فيها عدوا لها حقا " . ولما كانت الطبقة البورجوازية الالمانية ، اسوة بالبورجوازيات الاخرى ، قد صعدت من عتبة التجارة الحرة الى الاحتكار ، وصارت تغني مثل غيرها او اكثر من غيرها ، اغنية الرجل الابيض " المانيا فوق الجميع " وتفوق الحضارة الجرمانية ، لذلك غنى هرتزل ، البطل القومي اليهودي المزعوم ، مقلدا من الاغنية المطربة : " سوف ينقل اليهود معهم الى الشرق عنصر الثقافة الالمانية . والدليل على ذلك : - الكتاب الالمان - من اصل يهودي - هم زعماء الحركة . فالالمانية لغة المؤتمر الصهيوني . والاكثرية الساحقة لليهود تؤلف جزءا من الثقافة الالمانية " (1) .

كما يقول المثل ، الاقربون اولى بالمعروف . فهرتزل باعتباره الماني عرض مشروعه في البدء على ابناء بلدته الالمان . وباعتباره " بورجوازي " عرض الامر على البورجوازيين . وكان هذا اول " كلام جدي " عن " الامة اليهودية " و " الدولة اليهودية " يعرض بشكل " رسمي " بعد تأسيس الحركة الصهيونية رسميا . ولكنه - الكلام الجدي - لا ينبع من موقف صراعي بين بورجوازي يهودي وبورجوازي مسيحي ، بل من موقف المصالح البورجوازية المشتركة ضد الفقراء من اليهود الباحثين عن لقمة العيش " وبالطبع ضد الفقراء من غير اليهود ايضا .

صرفت الادارة الالمانية النظر في حينه عن مشروع هرتزل لان علاقاتها مع السلطان العثماني تحقق مكاسب اكبر . وبعد اكثر من نصف قرن من ذلك الحوار البورجوازي والامبريالي ، كتب الزعيم الاسرائيلي المعتدل أوري أفنيري ، وهو يهودي الماني من هانوفر ، كتب بلهجة تنم عن الاسف

---

(1) الصهيونية وحقوق الانسان - المصدر السابق - ص ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١

لان المانيا رفضت في حينه مشروع هرتزل ، فقال : " ماذا بوسع هرتزل ان يقدم الى غليوم الثاني ، افضل من مجتمع اوروبي مرتكز على تقاطع طرق الشرق ، كطليعة للمصالح الالمانية والثقافة الالمانية " (١) .

---

(١) - أفنيري ، أوري - اسرائيل بدون صهيونية - بالفرنسية - منشورات دوسوي ١٩٦٩ - ص ٥٣ - ٥٤

اليهود والصراع الطبقي في روسيا

عند نهاية القرن التاسع عشر كان نصف يهود العالم يعيشون في الامبراطورية الروسية — خمسة ملايين من اصل عشرة ملايين في العالم كله .

وقبل قليل قرأنا عن تركيبهم المهني حسب تصنيف اسحق دويتشر حيث لا يوجد سوى عدد ضئيل من " البورجوازية والتجار" وهو تصنيف يشمل يهود روسيا وبلدان اوروبا الشرقية عموما .

لدينا الان لائحة طبقية للوضع في روسيا تعود لعام ١٩٠٥ يرسمها لينين بالذات . وعندما يحدد لينين أين كان يقف مختلف اصناف الناس في ساحة الصراع الطبقي حيث كان هو يناضل كقائد لاحد المعسكرين ، يصير مثل هذا التحديد ليس مجرد واقعة تاريخية وحسب ، وانما واقعة تاريخية ومعها مدلولها السياسي او الايديولوجي.* . وعندما يكون الحديث عن الخزان الرئيسي للتجمعات اليهودية (نصف يهود العالم في دولة واحدة) فانه يصبح من المفهوم تماما ماذا يعني اي حديث عن فكر يهودي قومي او ليبرالي او اشتراكي . وابدأ بلينين وسأعود اليه مرات عديدة :

في الثاني والعشرين من كانون الثاني ١٩١٧ قرأ لينين في اجتماع للعمال السويسريين في زوريخ تقريرا عن ثورة ١٩٠٥ في روسيا التي اندلعت في يوم " الاحد الدامي" (١٩٠٥/١/٢٢) عندما تقدم عمال مدينة (بطرسبورغ) بمطالب تتعلق بتحسين ظروف معيشتهم الى القيصر الروسي وكان يتقدمهم احد الكهنة " الكاهن غابون" . فقد رد حرس القيصر في

---

* — لا تعدل شهادة لينين اية شهادة اخرى في مجال الصراع الطبقي في روسيا . فهو اكثر من مؤرخ ومخطط ومفكر . فقد كان قائد احد المعسكرين الطبقيين الجبارين المتقابلين. وباعتبار ان النصر كان حليفه في ذلك الصراع فان تصنيفاته الطبقية من المفروض ان تؤخذ كوقائع تاريخية غير قابلة للدحض .

(قصر الشتاء) من الفرسان القوازق على المسيرة السلمية بالسلاح الرصاص فقتلوا على الفور الف عامل وجرحوا اكثر من الفين . ثم اندلعت الشرارة في الامبراطورية الروسية كلها . ويمكن ان نقرأ في اللائحة الطبقية التي حددها لينين آنذاك على النحو التالي :

١ - القيصر " رئيس الطبقة السائدة ، طبقة كبار الملاكين العقاريين والمستعدين للدفاع عن احتكارهم وامتيازاتهم وارباحهم بكل وسائل العنف " .

٢ - " مليونين او ثلاثة ملايين من البروليتاريين " تحت قيادة منظماتهم الثورية وفي طليعتها حزب لينين .

٣ - ظهور بوادر حركة ثورية " في اعمق اعماق ذلك الجمهور الذي يتراوح تعداده بين ٥٠ و ١٠٠ مليون من الفلاحين " .

وهكذا ، كما يقول لينين ، " دخل بلد شاسع يعد ١٣٠ مليون نسمة في الثورة . وهكذا غدت روسيا الغافية روسيا البروليتارية الثورية والشعب الثوري " (١)

وفي اشارة الى ابرز الوقائع ، فقد تجاوز عدد المضربين من عمال الصناعة " نصف مليون" بالاضافة الى " عدة مئات الالاف من عمال السكك الحديدية ومستخدمي البريد والبرق " . " ان الاضراب العام الذي شنه عمال السكك الحديدية اوقف حركة النقل الحديدية في عموم روسيا وشل قوى الحكومة بصورة قاطعة " (٢) . كما توقفت الدراسة في كل الجامعات واصبحت قاعات المحاضرات منتديات للقوى الثائرة ضد القيصرية . وخلال هذه الاحداث " مر بعض المدن في روسيا بمرحلة جمهوريات محلية صغيرة كنست منها سلطة الحكومة " . وفي "خريف ١٩٠٥ ، اتسعت حركة الفلاحين كان اكثر من ثلث الاقضية في البلاد مسرحا لما يسمى بـ " الاضطرابات الفلاحية " ولانتفاضات حقيقية شنها الفلاحون . فاحرقوا قرابة الفي عقار وتقاسموا الخيرات التي انتزعها الضواري النبلاء من الشعب (٣) .

---

(١) لينين - المختارات - م ١ - ج ٢ - دار التقدم - موسكو ١٩٦٦ ص ٤٥٤ - ٤٥٦

(٢) المصدر السابق - ص ٤٦٧

(٣) = نفسه - ص ٤٦٨

" واشتدت حركة التحرر الوطني بين الشعوب المظلومة في روسيا فان اكثر من نصف سكان روسيا ، ٥٧ % على وجه الدقة ، يعانون من الاضطهاد القومي ، وليس لهم حق التكلم بلغتهم الام بكل حرية ، وتجرى روسنتهم (جعلهم روسا) بالقوة . فان المسلمين ، مثلا ، الذين يعدون بعشرات الملايين في روسيا ، قد اسسوا آنذاك عصبة اسلامية بسرعة رائعة ".(1) .

<u>موقع يهود روسيا</u> : ثم حدد لينين موقع يهود روسيا في هذه الثورة وفيما يلي الفقرة الكاملة من تقريره عن اليهود : " ان حقد القيصرية قد تحول ضد اليهود على الاخص . فمن جهة ، كان هؤلاء يقدمون نسبة عالية جدا (بالقياس لعدد السكان الاجمالي) من قادة الحركة الثورية [نسبتهم آنذاك لعدد سكان روسيا ٣ %] . وللمناسبة تجدر الاشارة الى ان مأثرة اليهود تتقوم اليوم ايضا في انهم يقدمون نسبة عالية من ممثلي التيار الاممي بالقياس الى ما تقدمه الشعوب الاخرى . ومن جهة اخرى ، كانت القيصرية تعرف جيدا جدا كيف تستغل احط الاوهام ضد اليهود عند اشد السكان جهلا <u>وتنظيم مذابح اليهود ، ان لم تقترفها بنفسها</u> (في تلك الفترة بلغ عدد القتلى في ١٠٠ مدينة اكثر من ٤٠٠٠ وعدد المشوهين اكثر من ١٠٠٠٠) أى هذه المذابح الفظيعة الفاتكة باليهود الآمنين وبنسائهم واطفالهم ، التي استثارت اشد الاشمئزاز في العالم المتمدن باسره ".(2). وقبل ان يختم لينين حديثه اشار بطريقة غير مباشرة الى ان الرأسماليين الغربيين لم يكونوا بعيدين تماما عن مذابح اليهود في روسيا . فالرأسماليون الغربيون الذين كانوا يستثمرون روسيا بواسطة تصدير البضاعة ورأس المال ، كان من <u>مصلحتهم ايضا توجيه القوى في الامبراطورية الروسية بعكس المسار</u>

1) المصدر السابق – ص ٤٦٩
2) = نفسه – ص ٤٧٠

الذي يتضارب مع مصالحهم : « إن البورجوازية تعرف جيدا جدا كيف تجمع بين اقوالها المنافقة ضد " الفظائع الروسية " وبين اوقح الصفقات المالية ، ولا سيما التأييد المالي الذى تسديه للقيصرية ، والاستثمار الامبريالي لروسيا بواسطة تصدير الرساميل" (١) .

في هذه الدراما الطبقية الهائلة الاتساع ظهر يهود روسيا (نصف يهود العالم) وبسبب من بنيتهم المهنية (خارج حدود الصناعة والزراعة) ، واينا لضالة حجمهم ، وكأنهم على هامش الصراع تماما . وكل ذنبهم انهم وجدوا أن املهم في الحرية ، وهو أمل يشتركون فيه مع ٥٧٪ من القوميات الاخرى غير الروسية في الامبراطورية ، يرتبط بانتصار ذلك المعسكر الذى يقف على اليسار والمؤلف من عشرات الملايين .

ولكن هذا الوضع البائس لليهود الروس لم يمنع القيصر وطبقة النبلاء الاقطاعيين وحلفائهم الرأسماليين الاخرين ، ومن خلف الحدود ، من تحويل المعركة باتجاههم . وقد سلكوا هنا نفس السلوك الذى يعبر عنه المثل الشعبي الدارج عندنا في الارياف والذى يقول : ان من لا يستطيع ركوب الجمل يركب فوق بردعته . فقد حرضوا الجهلاء ورعاع الناس ضد اليهود وهم فئة اجتماعية خارج المجابهة كليا ، فسببوا لهم مجزرة مروعة .

لدينا هنا شهادة من لينين بالذات أن اللاسامية التي جرى التعبير عنها بتلك المجزرة الرهيبة ضد اليهود الروس ، ولدت من عملية تحويل للمعركة الطبقية قام بها المالكون ليس ضد اعدائهم الطبقيين الحقيقيين ،" ثلاثة ملايين بروليتارى " او " خمسين الى مئة مليون فلاح " ، بل ضد عدو بديل هم يهود روسيا الذين لم يكونوا قادرين على ان يكونوا اعداء لاية جهة من تلك الجهات المتصارعة والهائلة الحجم والقوة . واكثر من ذلك يشهد لينين ان البوليس القيصرى كان يقوم بتنظيم مثل هذه المذابح لليهود .

---

(١) المصدر السابق — ص ٤٧٠

وعلى ذلك ، فان تلك الرواية عن " ظهور بوادر العداء للسامية " بسبب او " من جراء التنافس الاقتصادي الضاري " بين بورجوازية يهودية وغير يهودية ، انما هي رواية غير واقعية بالنسبة لنصف يهود العالم آنذاك .

وكان الكاتب الياس هرتصر ، وهو خبير في مسائل الثورة الروسية والصراع الطبقي في روسيا ، قد اشار الى هذا الاتجاه التحويلي في ولادة اللاسامية في روسيا ، فقال : " لقد بدأت سياسة الحكومة القيصرية في ايجاد قناة لتصريف الغضب الشعبي المستفحل بواسطة " اللاسامية " واتهام اليهود بالقتل والتخريب " (١).

اما بالنسبة للسادة الصهيونيين الذين يمثلون ، بحسب " دراسات يسارية " قوة من " قوى التاريخ الحية " (٢) التقدمية وغير "النكوصية " فلدى الروس البلاشفة وثائق ذات مغزى طبقي ودلالة مختلفة تماما . فلديهم مثلا تعميم بوليسي صدر في ١٩٠٦ عن رئيس البوليس القيصري " زوباتوف " الى جميع اقسام الشرطة ، يقول فيه : " يجب مساندة الصهيونية وبشكل عام الضرب على وتر المشاعر القومية " (٣) . ولديهم وثيقة "بيان" صدر عن اللجنة التنفيذية للاممية الشيوعية بخصوص نشاط المنظمة الصهيونية "بوالي تسيون " التي أنشئت في عام ١٩٠٦ في روسيا ، اشارت فيه الى ان ابطال الصراع الصهيونيين لم يكن هدفهم الصراع مع بورجوازيين مسيحيين او " محليين " وانما مع جبهة العمال والبروليتاريا المؤلفة من مسيحيين ويهود ومسلمين . قال البيان : " ان مشروع فلسطين ومحاولة صرف جماهير الشغيلة اليهود عن النضال الطبقي بالدعاية للهجرة الجماهيرية الى فلسطين ، ليسا فقط قوميين وبورجوازيين صغيرين ، بل هما ايضا في جوهرهما معاديان للثورة " (٤) .

---

(١) الماركسية والشرق ـ المصدر السابق ـ ص ٥٩٧
(٢) دراسات يسارية ـ المصدر السابق ـ ص ١٣٧
(٣) احذروا الصهيونية ـ المصدر السابق ـ ص ٦٩
(٤) المصدر نفسه ـ ص ٦٩

ان اولئك الذين كانوا يقودون معسكر اليسار الطبقي كانوا يشاهدون في مواجهتهم الرؤوس الصهيونية متحالفة مع مختلف انواع المالكين ، من نبلاء القيصر الى الرأسماليين الكبار والصغار ، والمتدخليــن العسكريين ضد الثورة الروسية ، ومع البوليس وكل من له مصلحة في التحالف ضد معسكر اليسار. " ان جميع القوى الرجعية - كتب ايفانوف - في اوروبا ، وبنوع خاص في روسيا ومن بينها جميع المشتركين في الحملة التنكرية الصهيونية " كانت في تلك الاوقات الحاسمة في التاريخ تستهدف بكل اصرار " عزل اليهود في عصر ادت فيه المسألة بذل معنى الكلمــة الى من سيقف الى هذا الجانب ، ومن سينتقل الى الجانب الاخر مــن المتاريس الثورية " . فقد كانت المسألة آنذاك تحدد بالسؤال :" هل سيتمكن الصهاينة والقوميون اليهود الاخرون (بتأثير اللاسامية) مــن تحويل الضئيلة اليهود في كل بلد ، حيث عاش اليهود ، الى عنصــر " يعي اختلافه العنصري وعزلته " ، الى احتياطي للبورجوازيــة ، وقاعدة لشبكة عملاء الامبريالية ، او هل ستكون الحركة الثوريــة والتضامن الاممي الطبقي للضئيلة في نضالهم ضد العدو المشترك - طبقة المستثمرين - حجر عثرة في طريق مثل هذه المحاولة ؟ وبكلمة اخرى ، كانت القضية في كل بلد معلقة على نتيجة تصارع قوى الثورة والثورة المضادة "(١).

ولدى البلاشفة الروس وثائق تؤكد ان الصهاينة كانوا في الحرب الاهلية على الجبهة المقابلة من خط المواجهة . وانهم كانوا حلفاء لجميـع اصناف البورجوازية وممثليها العسكريين وحتى اولئك الذين كانــوا يشاركون في تنظيم المذابح ضد اليهود : " لقد اشترك الصهيونيــون بحكومات دينيكين ، والقائد سكوروبادسكي وبتيليورا المزعومة وقاموا باعمال نشيطة من اجل خلق الفصائل العسكرية الصهيونية التي شهرت السلاح في وجه السوفيات . ونشير هنا الى انه ما بين ١٩١٨ و ١٩٢١ ، نظم اتباع دينيكين ، وبتيليورا ، وبولاك - بولاخوفيتش ، واتبــاع ماخ ، (١٥٢٠) مذبحة عذب وقتل فيها عشرات الاف اليهود ".

ولكن العداء للثورة الروسية وكذلك قتل اليهود " لم يعرقل مطلقــا التعاطف الفكري والاقتصادي والعسكري لقادة الوكالة اليهودية المالية مع هذا النشاط "(٢) .

---

(١) المصدر السابق - ص ٦٧

(٢) المصدر السابق - ص ٧٧ - ٧٨

لقد وعد مؤلف " دراسات يسارية " منذ البداية انه سوف يقوم بعملية تصحيح للتاريخ اليهودى — " اعادة النظر من جديد في المفاهيم السائدة حول اليهود وتاريخهم .. بغية تعديلها بصورة تجعلها اقرب الى واقع الامور "(١). والحال ان ما فعله ، كما رأينا أنه تحدث عن تاريخ لليهود في القرن التاسع عشر غير تاريخهم الاجتماعي والسياسي ، فقد تصور صراعا طبقيا وقوميا بين يهود وغير يهود لم يحدث اطلاقا . ~~الغرب~~ فيهود الغرب كانوا في الواقع مندمجين تماما مع جبهة القوى الصاعدة التي أنشأت في اوروبا الدولة القومية البورجوازية والديمقراطية البورجوازية . ولم يظهر الابطال القوميون المزعومون ، الصهاينة ، الا في نهاية المطاف ، ولكي يعرضوا خدماتهم على سادة الدولة القومية البورجوازية ، وعلى وجه الخصوص لكي يبدوا استعدادهم لتقديم الخدمات السياسية والحربية خارج القارة الاوروبية .

اما في الشرق ، حيث يوجد اكثر من نصف يهود العالم آنذاك والذين كانوا برمتهم تقريبا منحازين الى معسكر القوى الاشتراكية الجديدة ، فقد كان الصهاينة يقفون على خط المجابهة في الجبهة الاخرى ضد غير اليهود واليهود على السواء .

ولا مجال هنا للتلاعب بالالفاظ : ففي نفس الوقت ، عندما كان اليهودى البلشفي الروسي تروتسكي يقود الجيش الاحمر لاسقاط القيصرية بهدف تحرير جميع المظلومين من اليهود وغير اليهود ، كان الابطال الصهاينة يقدمون الخدمات كمرافقين لتلك الجيوش التي ارسلتها دول الرأسمالية الغربية للتدخل ضد الثورة البلشفية . ولا يوجد لدى الصهاينة ما يدافعون به عن انفسهم في تلك المخازي المخجلة من التاريخ : اقيموا الدنيا واقعدوها . لا تجعلوا احدا يعرف الحقيقة من الباطل . قولوا عن الابيض اسود وعن الاسود ابيض . " انشروا الخبر على نطاق واسع بين يهود مناطقكم ، وأقيموا الاجتماعات الشعبية ، واتخذوا القرارات ،

---

(١) دراسات يسارية — المصدر السابق ص ١٠

أبرقوا . ميركاز " . هذا هو نص برقية لجنة بتروغراد الصهيونية الى لجنة كييف في ١٧ تشرين الثاني ١٩١٧ ، تزف اليها النبأ السعيد " وعد بلفور " . وتطلب تعميم الخبر على جميع يهود روسيا واقامة الاعراس . وكان هذا ، كما يقول ايفانوف ، " في نفس فترة الشروع العملي بالمحادثات بين الانكليز والمكرسات الامبريالية الاخرى حول التدخل المسلح ضد الجمهورية السوفياتية الفتية "(١) . فلدى الشعوب وثائق تؤكد ان الصهيونية ليست " المسألة الوطنية "(٢). للبورجوازية اليهودية أو للشعب اليهودى ، ولكنها في التاريخ والوثائق كانت تعمل كجهاز سياسي وأمني يعمل على نطاق دولي ويقدم خدمات حربية .

---

(١) ـ احذروا الصهيونية ـ المصدر السابق ـ ص ٧٥

(٢) ـ دراسات يسارية ـ المصدر السابق ـ ص ٨٩

تابع الفصل الاول

يجب اولا أن توجد الامة

ان البضاعة الثقافية عن " قومية يهودية " او " قومية بورجوازية يهودية " وهي التي جرى ترويجها في اسواق الايديولوجيا الغربية في السنوات الاخيرة ، كانت قد عرضت قبل ثلاثة أرباع القرن في اسواق اوروبا . والذين يعنيهم الامر ، ابطال الصراع السياسي والايديولوجي كانوا آنذاك قد صنفوا هذه السلعة وسجلوا اوصافها وكشفوا عن هوية المصانع التي كان لها مصلحة في تصنيعها وطرحها في السوق اليهودي في ذلك الزمن . وبالنسبة لاولئك المتحدين أشار الجدال الى أن المسألة بسيطة وتفهم عن ظهر قلب : فلكي توجد القومية يجب اولا ان توجد الامة ، ولكي توجد الامة يجب اولا ان توجد ارض الامة ولغة الامة وايضا وكذا ضروري تاريخ الامة . اى انه يجب ان يكون قد مر على هذه الامة تاريخ مشترك اقتصادى وسياسي وثقافي لكي تشعر في الوقت المناسب ، او في الاوقات العصيبة على الاقل ، ان مصالحها مشتركة وان روحها الجماعية موحدة .

ومنذ وقت مبكر (١٩٠٣) شن لينين هجوما على حزب العمال اليهودى الروسي " البوند " ، لان هذا الحزب تبنى "فكرة امة يهودية " . فقد كتب لينين : " ومن سوء الحظ ان هذه فكرة صهيونية خاطئة تماما ورجعية في جوهرها " . واستشهد لينين بالمؤرخ الروسي اليهودى كارل كاوتسكي الذى أكد ان اليهود قد كفوا " عن الوجود كأمة ، هي التي لا يمكن ان يقوم لها كيان بدون ارض " . فالتعريف العلمي " لمفهوم القومية " عند كاوتسكي يقتضي وجود شرطين " اللغة والارض " وهما شرطان تفتقدهما القومية اليهودية المزعومة . ويتابع لينين وهو يستشهد بالكاتب الاشتراكي الفرنسي الفريد ناكيه : " وهذا ما كتبه اينا حرنا بحرف يهودى فرنسي ، الراديكالي الفريد ناكيه (في صحيفة باريسية) في جداله مع اللاساميين والصهيونيين . فهو يقول عن

برنار لازار الصهيوني المعروف ، اذا كان حلا لبرنار لازار ان يعتبر نفسه مواطنا من شعب خاص ، فهذا شأنه . اما انا فانني اصرح ، انا الذي ولدت يهوديا .. بانني لا اعترف بقومية يهودية .. وليس لي قومية غير القومية الفرنسية .. هل يشكل اليهود شعبا ؟ انني اجيب ، وهذا بالرغم من انهم شكلوا شعبا في ماض انصرم منذ عهد بعيد ، جوابا قاطعا كلا " . " فالشعب يستلزم مقدما عدة شروط غير متوفرة هنا . لا بد له اولا من ارض يتطور عليها ، ولا بد له ، في ايامنا هذه على الاقل ، وبانتظار الاتحاد العالمي الذي سيوسع هذا الاساس ، من لغة مشتركة . والحال ان اليهود لم يعد لهم من ارض ولا من لغة مشتركة . ولا اعتقد انني اضيف شيئا جديدا ، اذا قلت ان برنار لازار ، مثله مثلي ، لا يعرف كلمة واحدة من العبرية ، وان الصهيونية ، اذا تيض لها النجاح ، ستواجه كبير الحرج في التفاهم مع مشايعيها من الاجزاء الاخرى من العالم " . " ان اليهود الالمان والفرنسيين متمايزون تماما عن اليهود البولونيين او الروس . واذا سمحنا لانفسنا ان نزعم مع دريمون (من زعماء الحركة اللاسامية في فرنسا) ان اليهود يشكلون امة فان هذه الامة ستكون مصطنعة "(١) .

وفي ١٩١٣ كتب لينين في رده على اولئك الذين كانوا ينادون "بالاستقلال الذاتي القومي الثقافي" ليهود روسيا . واستشهد ايضا بالمؤرخ كاوتسكي " ان يهود غاليسيا (منطقة مشتركة بين روسيا وبولونيا) وروسيا هم طائفة اكثر منهم امة ، والمحاولات المبذولة لتأسيس الجماعة اليهودية في امة محاولات تكريس لطائفة "(٢) . ومفهوم بالطبع معنى ان لينين كان يتحدث عن اكثر من نصف يهود العالم حيث المكان الوحيد الذي كان لليهود فيه وجود اجتماعي محسوس .

---

(١) - لينين - نصوص حول المسألة اليهودية - ترجمة جورج طرابيشي - دار الطليعة - بيروت ١٩٧٢ - ص ٣٥ - ٣٦

(٢) - المصدر السابق - ص ٤٩

وفي عام ١٩١٣ ايضا رد لينين على ليبمان من قيادة " البوند" ، فوصفه بانه غير اشتراكي بل " بورجوازي صغير قومي النزعة " لمجرد ان ليبمان هذا حاول ان يجادل في مسألة اندماج العمال اليهود في وحدة واحدة مع عمال جميع القوميات في الامبراطورية الروسية آنذاك . فقد كتب لينين " من اصل الملايين العشرة والنصف من اليهود في العالم قاطبة يعيش قرابة النصف في العالم المتمدن ، في شروط احد أقصى من التمثلية (الاندماج) ، بينما يعيش يهود روسيا وغاليسيا ، التعساء ، المرهقون المحرومون من الحقوق ، المسحوقون من قبل " المئة السود" (حزب القيصر) الروس والبولونيين ، يعيشون وحدهم في شروط حد أدنى من " التمثلية" وحد اقصى من الخصوصية ، الى حد فرض " منطقة اقامة جبرية " على اليهود ، والى حد تعيين " معدلات ونسب مئوية " لدخول المدارس ، " ان اليهود في العالم المتمدن لا يشكلون امة . فهم قد تمثلوا اكثر من غيرهم كما يقول كاوتسكي و أ. باور . ويهود غاليسيا وروسيا لا يشكلون امة . فهم ما زالوا لسوء الحظ طائفة (لا بجريرتهم بل بجريرة المئة السود) " . " فعلام يدل هذا ؟ انه يدل على ان اولئك الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها على " التمثلية " [يقصد الصهيونيون الذين يرفعون شعار عدم الاندماج] انما هم فقط اليهود البورجوازيون الصغار الرجعيون الذين يريدون ان يعكسوا اتجاه سير عجلة التاريخ ، لا من نظام روسيا وغاليسيا (الاقطاع الرجعي) باتجاه نظام باريس ونيويورك (البورجوازي الديمقراطي) بل بالاتجاه المعاكس" (١) أي ، عمليا ، المعاكس لسير التاريخ التقدمي .

وفي ١٩١٣ ايضا تصدى ستالين ، من قيادة الحزب البلشفي الروسي في كتابه " الماركسية والمسألة الوطنية" ، لدعاة الامة اليهودية من الصهيونيين . حيث يعرف الامة تعريفا ماركسيا ، وهو ما يزال التعريف الماركسي الرسمي للامة ، يستبعد اليهود نهائيا من اطـــاره . فالامة

---

(١) – المصدر السابق – ص ٦٣

" هي جماعة اناس ثابتة تألفت تاريخيا ، نشأت على اساس اللغة والارض والحياة الاقتصادية والخصائص النفسية التي تتجلى في جماعة الثقافة " وهذا التعريف البسيط والواضح ، كما يقول ناجي علوش ، " ينفي نفيا قاطعا امكانية وجود امة يهودية ، لعدم توفر كل الشروط الواردة فيه لليهود . فاليهود ليسوا جماعة اناس ثابتة . ولا تربطهم جماعة لغة وارض وحياة اقتصادية وحقائق نفسية "(١)، وقد رد ستالين على بعض الملامسات الثانوية في حياة الامة ، وهي ما يتستر به الصهيونيون ، مثل "وحدة الدين" و " الاصل المشترك" ووجود " دولة يهودية " قبل الفي سنة في فلسطين . وكذلك بعض الطقوس الدينية عن " ارض الميعاد " و " المسيح المنتظر " فقال : " كيف يمكن الكلام جديا عن ان الطقوس الدينية الجامدة ، والبقايا السيكولوجية المتبخرة تؤثر على مصير اليهود المذكورين (يهود مختلف البلدان) تأثيرا اقوى من تأثير الوسط الاجتماعي - الاقتصادى والثقافي الحي الذى يحيط بهم "(٢) . فقد اكد ستالين ان الارض هي " العمود الفقرى للامة " وهي " السوق الوطنية " ايضا . وحول ما اذا كان تخصيص منطقة خاصة يجعل من اليهود الروس امة ، رد ستالين بقوله : " القضية قبل كل شيء ، هي ان اليهود لا يملكون فئة واسعة مستقرة ، مرتبطة بالارض ، توطد الامة توطيدا طبيعيا ، ليس فقط كعمودها الفقرى ، بل كذلك كسوقها الوطني . من الخمسة او الستة ملايين من اليهود الروس ٣ أو ٤ في المئة فقط مرتبطون بشكل ما بالزراعة . وال ٩٦ بالمائة من الباقين مشغولون بالتجارة والصناعة وفي مؤسسات المدن ، ويعيشون في المدن بوجه عام ، وعلاوة على ذلك فهم مبعثرون في روسيا ، ولا يشكلون الاكثرية في اية مقاطعة كانت"(٣). دلالة هذا كله ان اى حديث عن الطبقة البورجوازية القومية والسوق البورجوازية القومية خارج اطار وجود الامة او المجتمع المدني الواحد انما هو حديث اقرب الى التصور اذا لم يكن الى التوهم . فالبورجوازية

---

(١) - علوش ، ناجي - الماركسية والمسألة اليهودية - دار الطليعة - بيروت ١٩٦٩ - ص ٤٠

(٢) - المصدر نفسه - ص ٤١

(٣) - = = - ص ٤٢

وبالتحديد البورجوازية حاملة النزعة القومية ، في - وانا انقل العبارات بين مزدوجين عن البيان الشيوعي -- تطور يحصل في مجتمع الامة " داخل المجتمع الاقطاعي " على وسائل الانتاج والتبادل ، وعند حد معين من هذا التطور يصبح " التنظيم الاقطاعي للزراعة والصناعة " ، وهو نظام القنانة والسخرة والعبودية الذى يشمل الزراعة والحرف ايضا ، غير قادر على استيعاب القوى المنتجة في تقدمها المطرد . وهكذا يصبح نظام الملكية الاقطاعي في الامة ضيقا لتطور الانتاج والتبادل . ويتحتم عند هذه المرحلة تحطيم هذه القيود والتحول في العلاقات الاقتصادية الى نظام " المزاحمة الحرة " التي يرافقها ويحميها " نظام اجتماعي وسياسي يناسبها " وهو نظام الدولة البورجوازية القومية . فكلمة السر في التطور نحو البورجوازية هي " المزاحمة الحرة " حيث تتبلور انطلاقا منها " السيطرة الاقتصادية والسياسية للطبقة البورجوازية " .

استنادا الى هذه الوقائع البسيطة والمألوفة عن الطبقة البورجوازية القومية والسوق البورجوازية القومية ، فان من يشرع في القراءة في كتاب " دراسات يسارية " حول هذه المفاهيم لا يمكن ان يتخلص من الشعور وكأن الدكتور الحاكم يتحدث لغة اصطلاحية غامضة لا تنطبق على ما هو مألوف . فما معنى القول مثلا " وبما انه لم يكن بالامكان توفير مثل هذه السوق الوطنية اليهودية في اوروبا اتجهت الانظار الى الخارج "(١) . فهل يعقل مثلا ان تكون الطبقة البورجوازية مثل مجموعة من التجار ، والسوق القومية او الوطنية مثل صف من الدكاكين ، بحيث يمكن نقل هذه السوق واقامتها في اى مكان ؟ ان سر الطبقة البورجوازية لا يتضمن في السلعة التي تبيعها بقدر ما يتضمن في السلعة التي تشتريها . ان البورجوازى المالك ، يشترى من السوق ، سوق المزاحمة الحرة ، السلعة الرئيسية ، التي تسبب ثراءه وهي قوة العمل " ولذلك فهو يناضل ضد العلاقات البطريركية والاقطاعية بهدف تحرير قوة العمل من القيود التي تحتجزها لكي يتسنى له استثمارها . وهذا هو القاسم المشترك بين البورجوازى والفلاح والعامل ،

---

(١) - دراسات يسارية -- المصدر السابق - ص٠(٨٦)

الذى يتخذ رموزا ايديولوجية مثل وحدة الوطن او " حرية ، مساواة ، اخاء " وما شابه ذلك . فالسوق هي مكان للتبادل ، وهي للشراء اكثر مما هي للبيع . انها تحول في العلاقات مسرحه الامة باسرها وارض الوطن بكاملها . فالطبقة البورجوازية الصاعدة عندما توجه نداءها بـ " توحيد ارض الاباء والاجداد " تعني ، اقتصاديا ، ان على الارض وما تحتها وما فوقها من ثروات ومناجم ، وجميع وسائل الانتاج ، وكذلك قوة العمل في المقدمة ، ان تدخل كلها الى نظام السوق الذى يعمل بموجب قانون " العرض والطلب " او " المزاحمة الحرة " . ولم يسمح احد ان " توحيد ارض الاباء والاجداد " يمكن ان يجرى في قارة اخرى ، كما تصور مؤلف " دراسات يسارية " ولم يسمح احد ايضا ان ارض الاباء والاجداد يجرى " توسيعها " تحت لواء الدعوة القومية . كما لم يسمح احد ان القوميين البورجوازيين يوجهون خطابهم الايديولوجي للامة بلغة لغة او على وجه التحديد بـ ٨٥ لغة كما هو حال لغة الاصل بالنسبة للسادة الصهيونيين . واعتقد ان الدكتور عبدالوهاب المسيرى على حق عندما لاحظ ان حديث الدكتور العظم من وجود طبقة بورجوازية يهودية تفتش لنفسها عن سوق قومية يهودية " خارج القارة الاوروبية " لا يوجد له ما يبرره في الوقائع الاقتصادية . وهذا ما جعل الدكتور العظم يعتمد على اقوال الصهيونيين بهذا الخصوص . فقد كتب المسيرى : " والطريف ان الدكتور العظم لم يدعم مقولته المحورية هذه .. بتحليل الحقائق الاقتصادية الخاصة بالبورجوازية اليهودية ، وانما دعمها بالاقتباس من كتابات الصهاينة . وهي الكتابات المليئة بالاوهام عن الذات "(١) .

ولما كان الامر هكذا ، فقد تحتم اذن ان يساوى الدكتور العظم بين الشعار القومي البورجوازى " القضاء على التبعثر الذى تركه الاقطاع " وبين الشعار الصهيوني " القضاء على التبعثر اليهودى " في مختلف البلدان . وهذا بالفعل مفارقة غريبة . لان اشخاصا مثل دافيد بن غوريون (ليتوانيا) ، وابا ايبان (جنوب افريقيا وغولدا مائير (امريكا)

---

(١) الايديولوجيا الصهيونية — ج٢ — المصدر السابق — ص ١٦١ — ١٦٢

وجابوتنسكي (روسيا) ، ومناحم بيجن ، (بولونيا) ، ووايزمن (انكلترا) .. وغيرهم ، ان اشخاصا كهؤلاء خارجين في الحقيقة والواقع عن الارادة الوطنية لاوطانهم وكانوا في الحقيقة والواقع يعملون مع الدوائر الاستعمارية الكبرى في اوروبا من اجل مصالح تخص تلك الدوائر بالدرجة الاولى ، لا تنطبق عليهم تلك الصور الرومنتيكية او الشاعرية الجميلة التي تربط الانسان فعلا بوطنه ، خاصة عندما تتم بشكل قسري ، كما فعل الدكتور المسلم ، عملية ربط مشاعر مثل هؤلاء بارض فلسطين "بالتحديد" أو ان يقال عنهم انهم لا يشعرون "بالراحة الحقيقية الا فوق ارضهم" أو أرضهم "الموعودة" .. وهل يعقل مثلا ان يكون نشيد "بلاد العرب اوطاني" مثل نشيد جابوتنسكي "لنهر الاردن ضفتان ، ضفة لنا ، والضفة الاخرى ايضا"(١) او مثل نشيد "الهاتكفا" ثم يقال ان مثل هذه الاناشيد التي ينشدها مواطنون اوربيون (يهود) هي اناشيد وطنية لا تختلف عن اناشيد الاخرين ؟ .

قراءة قومية في ايديولوجيا غير قومية

قال رودنسن : "والصهيونية هي حركة ايديولوجية واسعة المدى .. ولقد كانت دائما متعددة الاشكال وشملت نزعات كثيرة متنافرة . كما نلاحظ من اقل نظرة الى تاريخها .. والى الشيع والانقسامات التي ولدتها والمعارك المستمرة في داخلها". (٢)

بالنسبة لعالم اجتماع مثل رودنسون لا يلزم من اجل فهم الايديولوجيا الصهيونية اكثر من القاء نظرة خاطفة "أقل نظرة" حتى تكون مفهومة تماما . وبالطبع ، شرط ان تكون النظرة واقعية ، غير متحيزة ، وبدون شروط مسبقة . وعند ذلك تظهر الايديولوجيا على حقيقتها "متعددة الاشكال وشملت نزعات كثيرة متنافرة" وهذا امر في غاية البساطة والبداهة ، لان الايديولوجيا الصهيونية لا تمثل امة واحدة ولا قومية

---

(١) منصور ، كميل – الصهيونية المستحدثة – مركز الابحاث – بيروت – ١٩٧١ – ص ١٢

(٢) رودنسون ، مكسيم – اسرائيل ، واقع استعماري ؟ ترجمة احسان الحصني منشورات وزارة الثقافة .. دمشق ١٩٦٧ ص ١٥ – ١٦

واحدة ولا سوقا اقتصادية واحدة ايضا .

فالايديولوجيا الصهيونية كان لها هدف رئيسي ، هو الانصار من اجل بناء مستعمرة يهودية خارج القارة الاوروبية - فلسطين في نهاية المطاف . ولما كان الايديولوجيون الصهاينة ينتسبون الى يهود مختلف البلدان وكانوا مشبعين بمختلف الثقافات الوطنية في البلدان التي يعيشون فيها ، لذلك استعاروا من هذا الفضاء الثقافي الواسع - اذا صحت التسمية - الافكار التي لاءمت استعداد ومزاج كل واحد منهم حسب ما هو مهيأ له .

عندما افترض الدكتور المسلم ان الصهيونية (الايديولوجيا) هي الفكر السياسي للطبقة البورجوازية اليهودية ثم جاء يقرأ في النصوص من هذه الايديولوجيا ، في محاولته للبرهان على صحة افتراضاته ، أتت النتائج متوافقة مع الافتراضات . فقد اضطر انسجاما مع السياق الفكري لارائه أن يقرأ النصوص بطريقة انتقائية . وهذا ما نلمسه في الواقع عندما شرع في قراءة " النصوص الاساسية " للصهيونية في كتاب " الفكرة الصهيونية " فقد تجنب التطرق الى اتجاهات فكرية اساسية في الصهيونية مثل الاتجاه الاشتراكي والاتجاه الديني . فلم يستشهد باى ايديولوجي ولم يقتبس أى نص من هذه الاتجاهات ، ويظهر انه قد اضطر ايضا ، كما سأوضح الى الاجتزاء من الخطاب الواحد ما يخدم البرهان على الاتجاه القومي البورجوازى والتغاضي عن الاقسام الاخرى في الخطاب ذاته مما يؤكد الاتجاهات الفكرية الاخرى .

فمثلا ، حذف من اعتباره فكر زعيم الاتجاه الاشتراكي الصهيوني ، دوف بيربوروشوف (١٨٨١ - ١٩١٧) . فقد كان بوروشوف ماركسيا ، او هو على الاقل كان ينسب نفسه كذلك . وكان قد انضم لمدة قصيرة الى الحزب البلشفي الروسي . وهو مؤسس حركة عمال صهيون الروسية (بوعال صهيون) التي اصبحت حركة عالمية وكان لها تأثير سياسي ملموس على سير الحركة الصهيونية . وقد كتب اسعد رزوق ان " الدور الايديولوجي الذى ساهم

به بوروشوف في الحركة العمالية الصهيونية يقوم على محاولة وضع نظرية صهيونية على اساس من المادية الديالكتيكية . لذا حاول استخراج تلك العناصر من كتاب كارل ماركس " راس المال " التي تؤيد وجهة نظره " ، ويضيف اسعد رزوق " في برنامج حركة عمال صهيون (برنامجنا ١٩٠٦) نجد بوروشوف يدعو لتشكيل صهيونية بروليتارية تكون بمثابة النواة والاداة التنفيذية لمطامع الصهيونية " . " وقد كان لتعاليم بوروشوف ابلغ الاثر في اشتراكية الاحزاب الصهيونية في اسرائيل . فالمابام والماباى وآحدوت هاعفودا تستمد الكثير من افكاره وتعمل على وضعها موضع التنفيذ . يعتبر ، الى جانب حاييم ارلوزوروف وآرون دافيد غوردون ، من اهم مصادر الاشتراكية الصهيونية لدى الاحزاب الاشتراكية القائمة حاليا "(١) . ولم يخطر في بال بوروشوف ابدا ان الحركة الصهيونية هي حزب للبورجوازية اليهودية بل حزب للبروليتاريا اليهودية وحدها او للبروليتاريا وللبورجوازية الصغيرة التي سوف تتحول بدورها الى البروليتاريا . فقد كان ينظر الى " البورجوازية اليهودية العليا " اى اصحاب بيوت المال والمصارف في الغرب باعتبارهم مندمجين مع اقرانهم المسيحيين ويقومون باعمالهم على نطاق عالمي (امبريالي) لا قومي . فقد كتب : " ولان البورجوازية الكبيرة لا تحصر نفسها في السوق المحلية لا يمكن اعتبارها ذات مشاعر قومية باى شكل من الاشكال ، فهي ذات نظرة عالمية صرفة .

ان البورجوازية اليهودية تجد ان خدمة مصالحها يمكن ان تتم بافضل شكل عن طريق الاندماج "(٢) كما اخرج " البورجوازية الوسطى " من دائرة العمل من اجل ما يسميه " الانعتاق اليهودى " . والذى كان يعنيه بالبورجوازية الوسطى هي الاقلية التجارية البورجوازية في روسيا واوروبا الشرقية في المجتمعات اليهودية وكان يرى ان موقف هذه

---

(١) ـ الفكرة الصهيونية ـ النصوص الاساسية ـ ترجمة لطفي العابد وموسى عنز ـ تعريف الدكتور اسعد رزوق ـ مركز الابحاث ـ

الطبقة يظل متعلقا بالمحافظة على مصالحها حيث لا اذا حدثت هذه المصالح بشكل جدي من جانب النزعات اللاسامية . فهو يكتب :
" اذا استطاعت هذه الطبقة ان تنجح في الاحتفاظ بمركزها كطبقة متوسطة ، وطالما ان المقاطعة والعزل المفروض من اللاسامية لا يؤثران على مصالح افرادها المادية ، يظل اصحاب هذه الطبقة يركزون مصالحهم السياسية في بلاد المنفى ، وكذلك مصالحهم الشخصية تبقى خارج الدائرة اليهودية " . " وبكلام اخر - اضاف بوروشوف - ما دامت البورجوازية اليهودية المتوسطة تحتفظ بمركزها الاقتصادى فانها الى حد لا تهتم بالمسألة اليهودية " ان طاقة هذه الطبقة يمكن في رأيه ان تسهم " الى درجة معينة " في الحياة اليهودية ولكن الطبقة المتوسطة ، بشكل عام ، لا يمكن ان تشكل اساسا لحركة الانعتاق اليهودى "(١) .

لقد وضع بوروشوف كل امله في الطبقة اليهودية البروليتارية واعتبرها الطبقة الوحيدة القومية والطبقة الوحيدة التي سيعول عليها في بناء الحياة اليهودية الجديدة في فلسطين . فكتب : " ان قومية الطبقة التقدمية الحقيقية - قومية البروليتاريا الثورية المنظمة للشعوب المضطهدة - تعبر عن نفسها من خلال مطالب سوية ومحدودة تتجسد في برنامجها الادنى من اجل تأمين ظروف الانتاج الطبيعية للامة وكذلك لتأمين قاعدة طبيعية لعمل البروليتاريا وللنضال الطبقي "(٢) . " وبالنسبة لنا نحن البروليتاريين الصهيونيين فان لهذه الطبقة اهميتين اثنتين : اولا ان البروليتاريا اليهودية قد بدأت تأخذ طابعا اجتماعيا مميزا عن المجموعة الكبيرة منذ وقت قليل (ولكن البروليتاريا اليهودية يجب تحليل البورجوازية الصغيرة بشكل صحيح لانها تشكل مورد قوتها البشرية) .

---

(١) - المصدر السابق - ص ٢٤٨ - ٢٤٩
(٢) - المصدر نفسه ص ٢٤٥

ثانيا ، تشكل جماهير المهاجرين المختلفة من البورجوازية الصغيرة والبروليتاريا - المستقبلة ، المصدر الرئيسي لليهود الذين سيعملون من اجل اعادة الحياة الطبيعية لليهود"(١) .

لا صهيونية الا الصهيونية البروليتارية ولا صهيونية الا الصهيونية الاشتراكية . يقول بوروشوف : " والصهيونية لا يمكن ان تتحقق اذا لم تتحقق الصهيونية البروليتارية .. ان البروليتاريا اليهودية بحاجة للثورة اكثر من غيرها " " ان هدف الصهيونية النهائي في فلسطين هو ايجاد حكم سياسي اقليمي ذاتي . وبالنسبة للبروليتاريا اليهودية ، فان ذلك يشكل خطوة نحو الاشتراكية "(٢). هكذا فكر بوروشوف ومن اجل اهداف صهيونية غير بورجوازية عمل وناضل . وازاحة افكار بوروشوف جانبا يعني عمليا ان نلقي الى البحر باحد التيارات الايديولوجية الرئيسية في الحركة الصهيونية والتي كان لها اثر كبير على تنظيم وتأسيس المستوطنة اليهودية في فلسطين اعتبارا من مطلع هذا القرن وحتى بناء الدولة في ١٩٤٨ على الاقل . في الصهيونية كان بوروشوف ايديولوجي مؤسس ، وفي تاريخ الحركة الصهيونية كان يمثل تيارا سياسيا له وزن كبير . وقد قال رودونس : " ان الجماهير التي كونت القوة الحية للحركة الصهيونية والتي بدونها لم يكن بمقدور المنظمة ان توفر لنفسها قاعدة واسعة ، كانت مشبعة بالمثل الاشتراكية بعمق . تلك المثل التي تتعارض تعارضا شديدا مع المفاهيم الهرتزلية "(٣) .

وكان الدكتور العظم قد قيد نفسه بفكرة مسبقة تقول ان " الدعوة الصهيونية ، بافكارها وبرامجها ، اقرب بكثير الى الحركات القومية العلمانية المحتوى في البلقان والمانيا منها الى التوراة والتلمود" وانها " تشكل خروجا صريحا عن الدين اليهودي "(٤) . لذلك كان لا بد

---

(١) - المصدر السابق - ص ٢٤٩
(٢) - المصدر نفسه - ص ٢٥١ - ٢٥٢
(٣) - اسرائيل واقع استعماري ؟ - المصدر السابق - ١٠١
(٤) - دراسات يسارية - المصدر السابق - ص ١٢٦ - ١٢٧

ان يبحث النظر عن اية افكار قد تشوش الصورة اللادينية للحركة الصهيونية . وهذا هو السبب ، كما اظن ، الذى يجعله يعتبر الاتجاه الديني في الصهيونية وكأنه غير موجود . هذا مع العلم ان الاتجاه الديني ، في الفكر والسياسة ، هو من الاتجاهات الاساسية في الصهيونية . وسأكتفي هنا بالاشارة الى احد المؤسسين الكبار للتيار الصهيوني الديني واحد زعماء حركة المزراحي الدينية العالمية ، وممثل الكتلة الدينية في اول كنيست اسرائيلي ينعقد بعد تأسيس الدولة اليهودية في فلسطين . وهو الحاخام مايير بار ايلان (١٨٨٠ – ١٩٤٩) وهو ايضا ابن الحاخام وعالم التلمود نفتالي تيزيفي يهودا برلين (١٨١٧ – ١٨٩٣) . وباعتباره حاخام ابن حاخام لذلك كانت صهيونيته متعصبة للغاية ، " حارب النزعات المعادية للصهيونية لدى المتعصبين للدين ، كما حارب الاتجاه العلماني لدى الكثيرين من الصهيونيين" . وكان يرى " ان اليهودية لا تعترف بدولة تبتعد عن شؤون الدين " وكان يعتقد " دولة المستقبل" تقع في التناقض فيما لو حاولت "الفصل بين الدين والدولة "(١) . كتب في ١٩٢٢ : " عندما يصبح لنا دولة ويحاول اى شخص ان يفصل الكنيس عن الدولة ، فانه لا يكون قد احدث انفصالا بل تناقضا . من يقول : لنترك رجال الدين يهتمون بالقضايا الدينية وان يبقوا بعيدا عن شؤون الدولة ، يكون كمن يقول : لنقسم التوراة الى اجزاء ، نقبل منها الاجزاء الصغيرة المتعلقة بالقضايا الروحية والاخلاقية ، ونتخلص من القسم الباقي المتعلق بالعادات والاعمال اليومية ونستبدله بقوانين جديدة " . " اننا نؤمن بان ليس هناك من بديل للتوراة وبانه لا توجد هناك اية وسيلة لتوحيد جميع مذاهب وفئات الشعب اليهودى في دولة متجانسة سوى اعادة احياء كل جانب من حياتنا على اساس تراثنا من التوراة "(٢) . وهذا الاتجاه الديني المتعصب هو

---

(١) – الفكرة الصهيونية – المصدر السابق – ص ٤١٨

(٢) – المصدر نفسه – ص ٤٢٠ – ٤٢٢

الذى اصبح المناخ السياسي العلماني الذى يتولى القيادة في دولة اسرائيل . لذلك جعلوا من الحاخام بار ايلان رمزا من رموز الدولة . فاطلقوا اسمه على عدد من المؤسسات والمعالم البارزة في اسرائيل وسميت باسمه " جامعة بار ايلان " ٪ وتستمد دار الحاخامية في اسرائيل ، وهي جهاز ايديولوجي ديني له سطوة هائلة على المجتمع نهجها التعصبي في تطبيق الشريعة على اليهود الاسرائيليين من تعاليم هذا الحاخام (١) .

اما في القراءة الاستثنائية من الخطاب الواحد ، فقد كتب الدكتور العظم : " وكأى برجوازى عادى في عصر توسع التجارة الاوروبية الاستعمارى يتصور الكالاى انه بالامكان حل المشكلة الوطنية اليهودية بشراء " الارض المقدسة " من العثمانيين . اما الوسيلة العملية التي يقترحها لتنفيذ الفكرة فهي الوسيلة التي يفكر بها كل رأسمالي عادى : انشاء شركة تجارية لتقوم بعقد الصفقة " .

" اما بالنسبة لكاليشر فاننا نجد اول تعبير ظهر لديه عن الفكرة وتطلعاتها جاء في رسالة كتبها عام ١٨٣٦ الى رئيس فرع برلين لبيت روتشيلد ، شرح له بان خلاص اليهود ، عن طريق عودتهم الى وطنهم لن يتم بالوسائل الغيبية والاعجازية حسب الاعتقاد الديني السائد بل عن طريق " العلل الطبيعية " وجهد الانسان وارادة المقومات "(٢) .

(ويؤشر الدكتور العظم انه اقتبس هذه النصوص من نسخة الاصل الانكليزية من كتاب " الفكرة الصهيونية " ومن الصفحتين ١٠٦ و ١١٤) لا ادرى كيف ورد تحريف الاسماء في النسخة الانكليزية التي اقتبس منها الدكتور العظم بعض آراء "الكالاى" و "كاليشر" الرأسمالية ، والعلمانية والبرجوازية!! اما الدكتور اسعد رزوق ، في النسخة العربية ، فيعرف الكالاى بانه هو الحاخام يهودا القالي (١٧٦٨ — ١٨٧٨) . وهو من العرب ، ولد في سرايفو ، وهو ايضا ابن حاخام . وكان شغلها يتحيونا

(١) — الدولة والدين في اسرائيل — المصدر السابق ص ٦٤ و ٧٤ و ٨٥
(٢) دراسات يسارية — المصدر السابق — ص ٦٤

"خضع لتأثير نزعات "القبّالة" ، في صوفيتها وميلها الشديد الى الحلولية وتفسيرها الرمزي لجميع الاعداد والحروف في التلمود" . اي انه تقريبا كان يفهم العالم الواقعي بطريقة الحد على اصابعه (وقد نشر كراسا بعنوان " اسمعي يا اسرائيل" دعى فيه الى اقامة مستعمرات يهودية في فلسطين ،" ولكن الفكرة التي دعى لها كانت مغايرة للمفهوم الديني الشائع ، فراح يبحث عن تلك النصوص التي تبرهن على فكرة الخلاص الذاتي وتبررها " ؛ " واستند في ذلك الى اسطورة يهودية كان الصهيونيون قد غالوا في زخرفتها والزيادة عليها وهي تقول : بان المسيح الاول سوف يسبق مجيء المسيح المنتظر ويقود اليهود " في حروب ياجوج وماجوج " لفتح فلسطين بحد السيف " . ويضيف اسعد رزوق ، ان هذا الحاخام " ادرك ضرورة الاعتماد على التأييد المالي والنفوذ السياسي لمشاريعه ، فراح يسافر الى العواصم الاوروبية ويوجه النداءات الى كبار المتمولين اليهود ، امثال مونتفيوري وآدولف كريميو ، محاولا استنهاض الهمم في طليعة يهودية تسعى لخلاص الارض المقدسة "(١) .

والحقيقة ان الحاخام القالي لم يفكر " كأي بورجوازي عادي " ولا مثل " كل رأسمالي عادي" ، فالرأسمالي العادي لا ينشيء شركات من اجل الاحسان او مساعدة الاخرين وانما من اجل الربح و حسب . والحاخام دعى الى انشاء شركة تكون شبيهة بجمعيات المحسنين يشترك فيها جميع اليهود من اجل التبرع لصالح اخوانهم . قال : " اني اسأل اخوتنا ان يشكلوا شركة ، على غرار شركات التأمين وشركات السكك الحديدية .. وعند اعادة تطبيق اسم اسرائيل على ارضنا سيتحمس اليهود اجمعين لمساعدة هذه الشركة بكل وسيلة يملكونها " . ولم يفكر الحاخام القالي بتنظيم اليهود كما يفكر المنظم السياسي البورجوازي او الرأسمالي . ولكنه كان يتصور تنظيما دينيا كتمهيد لظهور المسيح المنتظر .

---

(١) ـ الفكرة الصهيونية ـ المصدر السابق ـ ص ٦

فقد قال : ان تنظيم " جسم يهودي عالمي نوعي بحد ذاته خطوة اولى للخلاص ، لانه من هذا التنظيم سيتكون مجلس حكماء معتمد ، ومن مجلس الحكماء هذا سيظهر المسيح المنتظر ابن يوسف " . ولم يفسر التالي بالعودة الى فلسطين بهدف انشاء سوق قومية مثلا ، بل كان يتصور ان عودة اليهود الى فلسطين سوف تتيح لهم تطبيق الطقوس الدينية والشعائر الدينية بشكل صحيح . فقد كتب : " وحتى قبل عودتنا الى الارض المقدسة التي اليها بعون الله سنعود ، يجب علينا اولا تعيين حكماء كي يعملوا على مراقبة الوصايا التي ستطبق ، وخاصة في الارض المقدسة ، مثل قانون ترك الارض بورا في السنة السابعة ، لان النعم التي ستحل علينا من الارض تعتمد على ايماننا الذي يلازم هذه القوانين "(١) . وفي نفس الخطاب الذي اقتبس منه الدكتور العالم بعض الافكار التي حسبها رأسمالية او بورجوازية ، يقول الحاخام يهودا التالي : " مكتوب في التوراة : " أرجع يا رب الى ربوات ألوف اسرائيل" (العدد ١٠/٣٦) وقد علق الحاخامون على هذه الاية في التلمود (يباموت ٦٤ أ) بما يلي : انها تبرهن بان الشعور بالحضور الالهي يتم فقط اذا تم وجود اثنين وعشرون الفا من اليهود معا . ومع هذا نصلي كل يوم : " دع عيوننا تشاهد عودتك برحمة الى صهيون" (صلاة السيدة – العبادة الصامتة – تصلى ثلاث مرات يوميا) . فعلى من سيقع الحضور الالهي ؟ على الصخر والحجارة ؟ اذن كخطوة اولى لخلاص نفوسنا يجب ان نعمل على اعادة اثنين وعشرين الفا الى الارض المقدسة ، فهذه تهيئة ضرورية لحلول دلالات ا غير معروفة "(٢) . ومن البين هنا ان الحاخام التالي ابعد ما يكون عن التصور العلمي ، الرأسمالي ، البورجوازي . انه بالاحرى يتحدث لغة صوفية رمزية يمكن ان تكون مفهومة فقط من قبل رعيته المداومين على الصلاة في الكنيس .

---

(١) – الفكرة الصهيونية – المصدر السابق – ص ١٢

(٢) – المصدر السابق – ص ١٠

اما الايديولوجي القومي البورجوازي الاخر ، حسب تقدير الدكتور العالم الذى كان يؤمن بان خلاص اليهود "لن يتم بالوسائل الغيبية والاعجازية حسب الاعتقاد الديني السائد بل عن طريق الحلول الطبيعية" وحسب ، أعني "كاليشر" . فهو الحاخام زفي هيرش كاليشر (١٧٩٥ – ١٨٧٤) . وهو بولوني وقد "بقي حاخاما طيلة اربعين سنة" تقريبا ! ويكتب اسعد رزوق ان هذا الحاخام "شدد على ابراز العلاقة بين اليهودي والارض المقدسة وشرط تحقيق الايمان بالمسيح الموعود" . وقد ورد في رسالة بعث بها عام ١٨٣٦ الى كبير فرع عائلة روتشيلد في برلين : "ان بداية الخلاص سوف تأتي عن طريق اسباب طبيعية نتيجة للجهد الانساني وعن طريق ارادة الحكومات لجمع شمل اسرائيل المبعثرة في الارض المقدسة" .

واضاف الدكتور رزوق ، ان هذا الحاخام راح "يتنقل في البلدان الاوروبية حرضا شبانها اليهود على وضع افكاره موضع التنفيذ" . وانه كان يعد اليهود "بان الخالق سوف يعجل بيوم الخلاص المرتقب حين يرى اقبالهم على الذهاب الى فلسطين وتطوعهم للاستيطان هناك وبالتالي سوف يبارك مساعيهم" وكان ايضا ، مثل التالي يحلم رعيته بان استعمار فلسطين "يتيح لنا فرصة مراعاة الوصايا الدينية"(١) .

وفيما يلي النص الكامل حيث اقتبس الدكتور العالم دلالته البورجوازية من اقوال الحاخام كاليشر ، يقول هذا الحاخام في كتابه (السعي لصهيون) : "عزيزي القارئ : الق جانبا الفكرة التقليدية القائلة بان المسيح المنتظر سينفخ بالبوق العظيم فترتعد منه كل الارض . بل على العكس ، فالخلاص سيبدأ بمساندة المحسنين وبكسب موافقة الامم على لم شمل بعض الاسرائيليين في الارض المقدسة" . ثم يضيف : "عبر النبي أشعيا (٢٧ : ٦ و ١٢/١٣) عن هذا الرأى ، قال "في المستقبل يتأصل يعقوب . يزهر ويفرع اسرائيل ويملأون وجه المسكونة ثمارا .. ويكون

---

(١) المصدر السابق – ص ١٣

في ذلك اليوم ان الرب يجني من مجرى النهر الى وادي مصر . وانتم تلتقطون واحدا واحدا يا بني اسرائيل . ويكون في ذلك اليوم انه يضرب ببوق عظيم فيأتي التائهون في ارض آشور والمنفيون في ارض مصر ويسجدون للرب في الجبل المقدس في اورشليم " . اذن هذا يبين لنا الله ان بني اسرائيل سوف سوف لا يعودون من المنفى كلهم سواء انما سيجتمعون بالتدريج ، تماما كما تجمع حبات القمح من السنابل. ويعني هذا " في المستقبل يتأصل يعقوب " في الاية المذكورة اعلاه ان الله القدير سيجعل هؤلاء الذين جاؤوا اولا - في بداية الخلاص - بمثابة البذور التي تزرع في الارض لتنتج اغصانا كثيرة " (١).

وهكذا ، فلكي يتحول هذان الحاخامان الى مفكرين قوميين بورجوازيين اضطر الدكتور العالم الى حذف الاقسام غير البورجوازية (الدينية) من خطاباتهما . واخشى ان يكون قد شعر بالاحراج من لتبيهما فلم يعرض بهما حسب الاسلوب الذى يقتضيه اسلوب البحث العلمي والاكاديمي . لان " الكالاى" ليس هوية للحاخام يهودا القالي ، و " كاليشر" ليس هوية للحاخام زفي هيرش كاليشر ، كما ان الدكتور العالم قرأ في معاني اقوال هذين الحاخامين بطريقة غير موضوعية . ففي الرسالة التي وجهها الحاخام كاليشر الى رئيس فرع بنك روتشيلد في برلين ، أوضح الدكتور العالم وكأن الحاخام يعطي دروسا ("شرح له ") لمدير البنك في "العلل الطبيعية " . بينما في الترجمة التي قدمها اسعد رزوق للرسالة يفهم القارىء المعنى الحقيقي وهو ان الحاخام قد حصلت لديه قناعة أن "بداية الخلاص" ، البداية وحسب ، يجب ان تأتي نتيجة الجهد الانساني و " الاسباب الطبيعية " ثم يتدخل الله بعد ذلك لمساعدة العاملين (كما ان الدكتور العالم ، في تفسيره لعلاقة يهود القالي بانتريسا ، اليهود في الغرب ، " العالم الغربي" ، أوضح وكأن الحاخام ينوى

---

(١) - المصدر السابق - ص ١٤

ان يستخلم لصالح مشاريعه او انه سوف يتشارك معهم على قـدم المساواة . يقول الدكتور العظم عن القالي انه " كان يعلم جيداً ان تحقيق دعوته مرتبط ارتباطا وثيقا بمصالحهم واموالهم ونفوذهم السياسي " (٣) . بينما كان نظر الدكتور اسعد رزوق يوحي بالمعنى الحقيقي ، فالحاخام القالي " ادرك ضرورة الاعتماد على التأييد المالي والنفوذ السياسي " . واستنادا الى هذا الادراك وجه نداءاته " محاولا استنهاض الهمم في صليبية يهودية تسعى لخلاص الارض المقدسة " وهذه لفتة نافذة من الدكتور رزوق ، لان الرهبان والقسس الذين داروا في اوروبا للتحرض على الحروب الصليبية كانوا يؤمنون بدورهم كايديولوجيين يعبرون عن مصالح قوى اجتماعية لها مصلحة في التوجه لغزو بلاد المسلمين وكانت تمول العملية برمتها المدن الايطالية البورجوازية التي كانت تحلم باعادة السيطرة على طرق التجارة الى الهند (١) .

وواقع الامر ان رجال الدولة ورجال المال في العواصم الاوروبية الكبرى في الغرب (روتشيلد ، مونتفيوري ، كريميو ، وآخرون) ، كانوا قد حاولوا استثمار رجال الدين (الحاخاميين) منذ بداية تفكير هذه العواصم باستثمار اليهود لصالح المشروع الصهيوني . فالحاخامون ، في هذه الحالة الاختبارية بالذات ، يعملون كأيديولوجيين مع القوى الاجتماعية الرأسمالية الحاكمة في اوروبا الغربية . ماذا يمكن ان يحصل عندما يلتقي حاخام من الشرق (بولونيا ، الصرب ، روسيا .. الخ) مع رجل دولة رأسمالي من الغرب ؟(٢) الذى حصل ، وما يحصل دائما عندما يلتقي رجل دين مع رجل سياسة ومال ، ان رجل الدين (الحاخام) - يجب ان يفهم ان ما هو مطلوب لا يتحقق الا بالوسائل الارضية "الاسباب الطبيعية" ، تأسيس الشركات ، تأسيس الاحزاب ،

---

(١) - مجلة شؤون عربية - عدد ٢٦ نيسان ١٩٨٣ - ص ١٣٠
(٢) - محمود ، امين عبدالله - مشاريع الاستيطان اليهودي - المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب - الكويت ١٩٨٤ ص ٦٦
(٣) - دراسات سياسية - المصدر السابق ص ٦٤

اقامة المنظمات المسلحة ..الخ ، تماما مثل ما تفعل الشعوب الاخرى " لتتندو بالايطاليين والبولونيين .. الخ " . والحاخام عندما يعود الى رعيته يومتلي منبر الكنيس للخطابة سوف يقول لهم انه ليس من الضروري ان ينفخ المسيح المنتظر ببوقه فيأتي جميع يهود العالم دفعة واحدة الى فلسطين مثل رف الحمام . اذ ان البداية يمكن ان تكون بالتدريج " واحدا واحدا " أو "اثنين وعشرين الفا " وبعد ذلك سوف يظهر المسيح المنتظر. اذن ، لكي يبرهن لرعيته عن صحة فكرة واقعية فانه يبدأ بدعمها بواسطة نصوص ينتقيها لهذا الغرض من كتبه التي يؤمن بها ، التوراة والتلمود . ورجل الدولة البورجوازي في الغرب كان يعلم تماما كيف سيصيغ الحاخام خطابه . وكان مثل هذا الاسلوب يرضيه ، لانه كان يرغب في ان يظهر المشروع (الصهيوني) وكأن اليته تجري بوحي من الله . ان رجل الدولة البورجوازي يعلم بدقة أن "استخدام وسائل السيطرة على الناس مثل الدين مثلا ، لا يؤدي الغرض منه الا اذا قدم بشكل مموه "(١). والحاخام في هذه الحالة كان يعمل كأداة تمويه ممتازة بحيث يظهر الهدف لرعيته صحيحا ولا يتضمن عناصر مشوشة . والخطأ الذي وقع فيه الدكتور العظم ، كما اتصور ، انه نقل الحاخاميين من مكانهما الطبيعي كأيديولوجيين يعملان مع قوى رأس المال الغربي ، واراد تنصيبهما في مكان اخر كايديولوجيين قوميين بورجوازيين لقوة اجتماعية يهودية "الطبقة البورجوازية اليهودية " وهي قوة غير موجودة اصلا كقوة اجتماعية منفصلة ، ولذلك كان عليه ان يستمد النصوص الدينية والصوفية من خطاباتهما .

ومثلما حصل لهذين الحاخامين حصل تقريبا للزعيم الصهيوني ليونسكر (١٨٢١ - ١٨٩١) . وهو من اكبر الايديولوجيين الصهيونيين في المرحلة

---

(١) - هوركهايمر - ماكس - بدايات فلسفة التاريخ البورجوازية - ترجمة محمد علي اليوسفي - دار التنوير - بيروت ١٩٨١ - ص ٢٠

التي سبقت التأسيس الرسمي للحركة الصهيونية ومؤلف الكراس الشهير "التحرر الذاتي" . فقد كان بنسكر مواطنا روسيا ، علمانيا وليبراليا حقا . وكان قد ارتد الى الصهيونية بسبب موجة العداء للسامية التي حصلت في روسيا عند نهاية القرن التاسع عشر ، وبالتحديد على اثر المذبحة التي حصلت لليهود سنة ١٨٨١ .

وبنسكر اقترح في كراسه "التحرر الذاتي" ان تقوم مجموعة " من الرأسماليين" بتأسيس" شركة مساهمة" بهدف شراء قطعة ارض"(١) في اى مكان من العالم يهدف مساعدة اليهود وانقاذهم من الشروط اللاسامية التي يخضعون لها . والدكتور العظم ، تجاه مثل هذه المقترحات ، رأى ان بنسكر مفكر قومي يهودي بورجوازي . بينما بنسكر ، في الواقع ، لم يخطر له على بال ان اليهود امة او قومية بورجوازية او غير بورجوازية . فقد كتب في "التحرر الذاتي" : ان الامة اليهودية تفتقر الى كل الصفات التي تتصف بها الامة ، فهي تفتقر الى صفات الحياة القومية ، اذ لا يمكن ان تكون امة دون لغة مشتركة وعادات مشتركة وكذلك ارض مشتركة " ويقول ايضا : " اليهود ليسوا امة لانهم يفتقرون الى الصفات القومية الناجمة عن السكن معا في بلد واحد وتحت ظل حكم واحد "(٢). بالاضافة الى ذلك ، فان بنسكر لم يكن ينوى ان يأخذ اليهود البورجوازيين الى الوطن "القومي" ، وانما فقط " اليهود النازحين الذين يعيشون الان كطبقة بروليتارية عالة على المواطنين الاصليين " . وقد كتب : "انه من الافضل لليهود الغربيين الذين يكوّنون نسبة قليلة من السكان ، ولذلك فان حالتهم في البلاد التي يعيشون فيها هي احسن ، من الافضل لهؤلاء ألا يهاجروا . كذلك يستطيع الاغنياء البقاء حيثما هم حتى في البلاد التي لا تسامح فيها "(٣).

---

(١) دراسات يسارية — المصدر السابق — ص ٩٥ — ٩٦

(٢) الفكرة الصهيونية — المصدر السابق — ص ٨٢ — ٨٣

(٣) المصدر نفسه . — ص ٩٤

وفي نهاية هذا الفصل ، وبعد ان قرأنا تعريفا للصهيونية عند روبنسون يؤكد على كونها تركيبة ايديولوجية متعددة المصادر الثقافية والمنازع السياسية ، يمكن ان نختم الكلام بتعريف من قبل احد مؤسسيها هذه المرة . وهو الحاخام سولومون شيختر (١٨٤٧ - ١٩١٥) وهو احد المؤسسين البارزين في الصهيونية الامريكية وكما يقال ، فان اصحاب البيت ادرى بما فيه . وتعريف شيختر يؤكد ان الايديولوجية الصهيونية ليست التعبير عن النزعة البورجوازية اليهودية وانما هي تعبير مركب من جميع المنازع الفكرية ولا يجمع بينها سوى قاسم مشترك واحد ، وهو انها تدعو الى وطن قومي خاص لليهود. يقول شيختر : " ان الصهيونية مثل اعلى ولذلك لا يمكن تعريفها ، ولهذا السبب فانها خاضعة لتفسيرات عديدة وقابلة لاشكال مختلفة ، يمكن ان تعني بالنسبة لواحد بعث الوعي القومي اليهودي ولآخر بعثا دينيا ، بينما بالنسبة لثالث فانها يمكن ان تكون بمثابة طريق يوصل الى الثقافة اليهودية ، ولرابع يمكن ان تشكل الحل النهائي والوحيد للمسألة اليهودية" . ويضيف : " وبسبب هذه الجوانب المتعددة استطاعت الصهيونية ان تجمع ضمن برنامجها عناصر متشعبة تمثل يهود العالم اجمع وتمثل تقريبا جميع صنوف الثقافة والتفكير كأي حركة عالمية عظيمة اخرى . وانه لشيء طبيعي ان يؤكد كل ممثل لها الجوانب الخاصة الاقرب الى طريقة تفكيره والاكثر ملاءمة لطريقته في العمل ، لكن جميعهم يتفقون على نقطة واحدة وهي انه ليس من المرغوب فيه فحسب بل من الضرورة المطلقة ، ان تستعاد فلسطين ، أرض الاباء ، بهدف اقامة وطن لقسم من اليهود على الاقل ليعيشوا فيها حياة قومية مستقلة " (١) .

---

(١) - المصدر السابق - ص ٣٧٤ - ٣٧٥

الفصل الثاني

السوق القومية الصهيونية

قبل الانتاج لا احد يبحث عن سوق . وهذه مسألة من الفروض أن لا تحتاج الى جدال . واذا كان الصهيونيون قد رغبوا في ان يكون لهم في المستقبل سوق ، عندما كانوا مجموعة من الاشخاص في اوروبا ، فهذه تبقى مجرد رغبة او تصور . اما بعد ان اسس هؤلاء مجتمعا في فلسطين ومن ثم دولة فقد اصبح لديهم بالضرورة "سوق قومية" للبيع والشراء والتسويق .. والخ . ويظهر ان وجود انتاج وسوق في اسرائيل قد أثر على الدكتور العظم تأثيرا مبالغا فيه ، لدرجة انه كاد ان يصور السوق الاسرائيلية على شكل حيوان خرافي قادر على ابتلاع اسواق العرب مثلما يبتلع الحوت اسماك السردين ! ولو بقي الامر في حيز الاقتصاد المجرد لهان الامر ، او على الاقل لما كان هناك ضرورة لخوض محاججة واسعة . ولكن الدكتور العظم يستنتج من السوق الاسرائيلية ما معناه ، ان الحكومة الاسرائيلية تتشوق الى ايقاف التعامل مع العرب بواسطة الوسائل الحربية لكي يتسنى لها وضع وسائلها الالتهامية (سوقها) على ساحة المعركة !

وحتى لا يفهم أننا نذهب بعيدا عن الايديولوجيا ، تجدر ملاحظة ان التحرك هنا يتم من قرب المدخنة الى قرب الالات في المصنع . وهذه صورة حسية مبسطة لعلاقة الايديولوجيا بالسياسة الاقتصادية . فبواسطة الايديولوجيا السائدة ، اضافة لقوة القانون وعصا الشرطة ، يتم اعادة انتاج علاقات الانتاج في المجتمع . أي ابقاء الطبقة ، أو الفئة ، المهيمنة في الاقتصاد في مكانها من الهيمنة . وهذه اضافة توضيحية شديدة الاهمية بالنسبة لفاعلية الايديولوجيا ، أضافها الى نظرية الايديولوجيات (لويس التوسير) ، عندما قال : " يتم تجديد انتاج علاقات الانتاج بمجملها بواسطة البناء الفوقي ، الحقوقي – السياسي ، والايديولوجي" . وهذا التجديد يتم في كل لحظة من لحظات عمليات الانتاج وفي كل عملية تبادل تجرى في السوق . ان ابقاء الفئات المهيمنة في الاقتصاد فوق

كرسي الهيمنة ، يضيف التوسير ، " يتم ضمانه بممارسة سلطة الدولة عبر اجهزة الدولة ، جهاز الدولة القمعي من جهة ، واجهزة الدولة الايديولوجية من جهة اخرى "(١). فالايديولوجيات السائدة هي التي تتولى عمليات الاقناع والتبرير والتمويه ، بحيث يشعر كل انسان من العاملين ، مدير المصنع في غرفته الزجاجية والعامل خلف آلته ، الجندي في خندقه على الحدود والجنرال في غرفة العمليات ، الشماسر في ساحة الرقص والخادم على باب الفندق ، انه يؤدي "واجبه" الذي تفرضه اما قوة " القضاء والقدر" او "الواجب المقدس" او " المصلحة العليا" . وبالنسبة لاسرائيل بالذات فان كل الرموز الايديولوجية التي تعمل على تثبيت كل انسان في مكانه تنبع تقريبا من ثلاثة مصادر : "التوراة" ، "المسيا المنتظر" ، " امن اسرائيل" ويمكن ان يضاف اليها منبع ايديولوجي رابع وهو "ذكرى الكارثة والبطولة" ، حيث تدعي ايديولوجيا الفئات الحاكمة انه قد وقع على اليهود ظلم فاق كل المظالم التي وقعت على العالم باسره ، ولذلك ، كما ترغب الايديولوجيا يجب على اليهودي اليمني ان يحمد الله لانه يعمل مبلط شوارع مثلا . ولنعد الى السوق الاسرائيلية كما يراها الدكتور المظم ، فقد كتب : "بالنسبة للتفكير الاستعماري الاسرائيلي حول المواد الخام الرخيصة والاسواق المفتوحة لبضائعها وبالتالي لاستغلالها ، نسوق الامثلة التالية من اراء الخبراء الاسرائيليين المعاصرين في شؤون الاقتصاد" . ثم يشرع في الاقتباس من كتاب " من الفكر الصهيوني المعاصر " ومن مقال الكاتب الاسرائيلي (شاوول زارحي) دون ان يتطرق الى اراء خبراء اخرين . وماذا قال بالتالي هذا الخبير ، او هؤلاء الخبراء ؟ ، يكتب : " لا يمكن لاسرائيل ان تجد وسيلة استعمال امكانات تطور صناعتها بزيادة الصادرات الى البلدان السائرة في طريق النمو ، طالما انها مبتورة عن بلدان

---

(١)- التوسير - دراسات لا انسانوية - ترجمة سهيل القش - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨١ - ص ٨٨

المنظمة ، الذين هم اقرب جيرانها ، ويشكلون بذلك سوقا طبيعية لتصريف منتجاتها الصناعية : البلدان العربية " ، وهو يرى انه لن يفك هذا الاختناق الصناعي الاسرائيلي بسبب الحاجة الى اسواق العرب الا السلام الذي يسمح بعمليات التبادل ، وتصدير البضاعة الاسرائيلية الى الاسواق العربية المجاورة . يقول : " من المؤكد ان السلام اليهودي - العربي ، واستئناف العلاقات التجارية ، يمكنهما ان يلعبا دوراحيويا في صادرات اسرائيل في المستقبل" (١). " ان من شأن السلام اليهودي - العربي ومشاركة اسرائيل في التطور الاقليمي أن يعدلا الوضع بفضل ايجاد ظروف افضل لتطور الصناعة ومختلف فروع الاقتصاد (في اسرائيل) ان مشاركة كهذه من شأنها ان تفتح سوقا واسعة لاسرائيل : سوق عشرات الملايين من سكان الشرق الاوسط" (٢) . اما رأى الدكتور العظم في اقوال زراحي ، فهو المصادقة الفورية بدون مناقشة : " هذا تعبير صريح وواضح عن المضمون الواقعي والفعلي لمعنى السلام العربي الاسرائيلي" . وهو يضيف ما يتضمن التحذير+ " أي ان تكون العلاقة بين العرب المتخلفين وبين اسرائيل المتقدمة شبيهة شبها تاما بالعلاقة القائمة بين الولايات المتحدة الامريكية وشعوب امريكا اللاتينية ودولها المتخلفة" (٣). وفي عام ١٩٧٦ ونتيجة للضغوط السياسية والدبلوماسية الدولية على حكام تل ابيب على اثر قبول الحكومة المصرية لجميع مقترحات السلام الدولية ، اضافة الى مبادرتها بمقترحات اخرى بهدف اقناع الاسرائيليين بالانسحاب من سيناء بدون حرب ، فان هؤلاء - حكام تل ابيب - شرعوا كعادتهم باختلاق الاكاذيب والحجج المزيفة للتهرب من السلام . ويظهر ان الدكتور العظم قد اخذ حججهم الجديدة على محمل الجد ، فكتب مقالا في مجلة شؤون

---

(١) - دراسات يسارية - المصدر السابق - ص ١٠٨
(٢) - " " ص ١٠٩
(٣) - " " - ص ١١٠

فلسطينية تحت عنوان " اسرائيل والتسوية السياسية " ،قال فيه :
" ومن ناحية اخرى ، وفي ٤ نيسان ١٩٧١ ألقت غولدا مائير خطابا
امام المؤتمر الوطني لحزب العمال الاشتراكي الحاكم ردت فيه بوضوح
صارخ على المبادرة المصرية حول معاهدة السلام وتوابعها المذكورة
اعلنت مائير في خطابها ان اسرائيل لن تتخلى عن القدس والجولان
وشرم الشيخ وانها ترفض ضمانات الدول الكبرى وترفض الضمانات
الدولية للحدود " الامنة المعترف بها " بما في ذلك فكرة القوات الدولية
على الحدود " ..
ويتساءل باستغراب عن "التصلب" ، فيسأل : " كيف نفسر هذا التصلب
الاسرائيلي الشديد ؟ " . وفي الجواب يؤكد على اقوال غولدا مائير ،
فيقول : " وليس علينا ان نذهب بعيدا في البحث ... لان غولدا مائير
اشارت اليها بوضوح في خطابها .. قالت رئيسة وزراء العدو ما يلي
في ايضاح الدوافع الكامنة خلف الرفض الاسرائيلي لكافة المقترحات
المصرية : " ان الضمانات الدولية ومرابطة قوات اجنبية بين
اسرائيل وجيرانها ستخلق جدارا بين الطرفين ، ونحن نريد سلاما
حقيقيا . نريد علاقات وثيقة وتعاونا بين اسرائيل وجيرانها "(١).
فجولدا مائير هنا ، حسب رأيه ، نطقت دفعة واحدة بالنتيجة
الكاملة : " اعتقد ان هذا الموقف الاسرائيلي الصريح والواضح
يعطينا المفتاح الحقيقي لتصلب اسرائيل" .. ثم يشرح اسباب تعنت
اسرائيل ضد السلام بالاستناد الى ما قالته مائير ، فيكتب : " تعني
التسوية السلمية بالنسبة لاسرائيل سقوط كافة الحواجز والجدران
بينها وبين الدول العربية بحيث لا يعود هناك شيء اسمه قطيعة بين
الطرفين وتحل محل العلاقات العدائية الماضية صلات وثيقة من التعاون

---

(١) - ش ف - عدد ٤ - ايلول (سبتمبر) ١٩٧١ ص ٧٨

بدون وسطاء دوليين وبدون وصاية الدول الاربع الكبرى على منطقتنا ،
لان لدى اسرائيل مشاريعها الخاصة للوصاية على منطقة الشرق الاوسط
والاشراف عليها لصالحها اولا" . والدليل الاضافي على ذلك هو جولدا
مائير ايضا ، " وقد عبرت غولدا مائير نفسها عن كل ذلك بقولها في
احدى المقابلات الصحفية ان السلام بالنسبة لها يعني ان تتمكن من
الذهاب في اى وقت الى اسواق القاهرة لتشترى حاجياتها ان هي
شاءت ذلك" وهو يرى ان مبادرات السلام الدولية والمصرية ترتقل
على جولدا مائير رغباتها في التسوق من اسواق القاهرة " ان هي
شاءت ذلك " ، فيضيف : " وبطبيعة الحال ، كان اول خطوة على طريق
تحقيق هذه الاهداف تكون برفض كل مبادرات السلام العربية "(١).
ويومها ، اى منذ ١٩٧١ ، اكد الدكتور الظلم باصرار ان اسرائيل
لا تريد من العرب سوى " سقوط الحواجز والجدران" لكي يتسنى لها
ان تبيعهم وتشترى منهم . وان اسرائيل سوف تعود الى الموافقة على
مبادرة روجرز الامريكية بمجرد ان يوافق العرب مبدئيا على حرية
التجارة مع اسرائيل . فيقول : " ان قناعتي الشخصية هي انه اذا
تمكنت اسرائيل بواسطة تصلبها ومراوغتها وتهديداتها : على طريقة
" المفاوضات والحرب " من ان تحصل على موافقة عربية مبدئيــة
بالنسبة للمفاوضات وبالنسبة لسقوط الحواجز والجدران بين الطرفين
فان اسرائيل سوف تكون مستعدة للتنازل عن الشروط القصوى القاسية
والتعجيزية التي تفرضها الآن في وجه تحقيق التسوية السلمية . وانها
ستتراجع الى حدود الموقف الامريكي كما جاء في خطة روجرز المشهورة(٢)
ومعلوم ان وزير الخارجية الامريكي روجرز تقدم بمبادرته استنادا الى
القرار ٢٤٢ على اثر التهديد الذى وجهه عبد الناصر الى الولايـات

---

(١) - المصدر السابق - ص ٧٩

(٢) - " نفسه - ص ٧٩

المتحدة في خطابه في الاول من ايار ١٩٧٠ بالتخلي عن مساندة اسرائيل
او تحمل المسؤولية تجاه الامة العربية . وفي ذلك الوقت كان للتهديد
من هذا النوع قيمة افضل مما له اليوم . لذلك تقدمت الولايات المتحدة
بتلك المبادرة . وعندما قبلها عبد الناصر اضطرت حكومة اسرائيل
الى قبولها مؤقتا . ولكن هذا القبول ادى الى انشقاق الحكومة
الاسرائيلية وخروج كتلة منلخم بيجن منها . وقد وصف بيجن المبادرة في
حينه بانها " فخ نصب لاسرائيل " . ولم يدم الامر طويلا . فقد احتجت
حكومة اسرائيل بمسألة تقديم الصواريخ المصرية على جبهة السويس
ثم انسحبت من المبادرة . ثم توفي عبد الناصر .. واخذت الامور
مجراها المعروف وكانت موافقة عبد الناصر على المبادرة اول اشارة
سياسية ودبلوماسية تكشف الستارة عن حقيقة اسرائيل باعتبارها
دولة معادية للسلام . وكانت بمثابة فضيحة . ولكن في الايديولوجيات
السائدة في الدول العربية لم يؤخذ ذلك بعين الاعتبار

والمهم ان الدكتور المعظم يكرر التساؤل من جديد : "السؤال الذي
يواجهنا مرة اخرى هو : لماذا تصر اسرائيل على ان يكون جوهر التسوية
السلمية سقوط الحواجز والجدران بينها وبين الوطن العربي وان تكون
العلاقات العربية معها ذات طبيعة ودية قائمة على ما تسميه مائير
بالتعاون الوثيق والثقة التامة وبدون تدخل الوسطاء الدوليين أو
الالتزام بضمانات الدول الاربع الكبرى وتعهداتها ؟ " . وفي الاجابة
من جديد يستمير رأى شاوول زارحي للمصادقة على رأى غولدا مائير
فيقول : " هنا ايضا ليس علينا ان نذهب بعيدا في البحث عن الجواب
والوافي على التساؤل المطروح . المصادر الاسرائيلية نفسها تعطينا
كافة المعلومات المطلوبة " والمعلومات المطلوبة هي انه قبل حرب
حزيران ١٩٦٧ " كتب الخبير الاقتصادى الاسرائيلي (شاوول زراحي)
التحليل التالي لمعنى السلام العربي الاسرائيلي : " لا يمكن لاسرائيل
ان تجد وسيلة استعمال امكانات تطور صناعاتها بزيادة الصادرات ..

الخ "، حيث يقتبس ذات النصوص التي ذكرها في كتابه " دراسات يسارية " على انها "اراء الخبراء الاسرائيليين"، ثم يحلل على آراء زراحي فيعتبرها نصوصا شبه منزلة وغير قابلة للمناقشة ، فيقول :" لا يحتاج هذا النص — نص زراحي — الى اى شرح اضافي باعتباره مثالا على الصراحة والوضوح في تحديد الغايات والاهداف والنوايا " . والعرب عليهم ان يعملوا حسابهم بالنسبة للسلام الذى يقترحه كل من زراحي ومائير ، لانهم — حسب رأى الدكتور المظلم — قد يخرجون من تحت الدلف الى تحت المزراب ، باعتبار ان " المضمون الواقعي والعملي لمعنى التسوية السلمية العربية الاسرائيلية يتلخص (بالنسبة لاسرائيل) بالمواد الاولية الرخيصة التي تحتاجها الصناعة الاسرائيلية ، وباسواق عربية واسعة شاسعة تمتص بسرعة كبيرة كل الانتاج الصناعي الاسرائيلي . وبنمو اسرائيل المتسارع لتصبح اكبر دولة صناعية في الشرق الاوسط ومن كبريات الدول الرأسمالية الصناعية في اسيا كلها "(١) وكما سنرى ، فان الدكتور المظلم قد سقط من تلقاء نفسه في وكر للثعالب . وهذا تشبيه لمن لا يتحذر عندما يسير في ارض عدوة : فجولدا مائير باعتبارها رئيسة حكومة اسرائيلية ، ولا يلزمنا هنا لاى عواطف مثل "رئيسة وزراء العدو » لا تستطيع ان تعلن عما تؤمن به او عن نياتها الحقيقية . وهذا ينطبق حتى اليوم على الاقل على اى رئيس لحكومة اسرائيل. والسبب في ذلك يعرفه جميع الناس او العرب على الاقل : وهو ان دولة اسرائيل تحتل وطن الفلسطينيين وتهجرهم في الخيام وتحاول في ذات الوقت ان تظهر وكأن الفلسطينيين هم الذين يعتدون عليها ويريدون احتلال اراضيها . والمسألة هنا بالطبع لا تتعلق

---

(١) — المصدر السابق — ص ٧٩ — ٨٠

بالحرب او الخوف منهم ، وانما لاسباب تتعلق بنمط العلاقات الدولية وبتكوين الرأى العام العالمي . ولذلك كان اى قول ينطق به الحاكم الاسرائيلي ، حتى ولو صدق وكان صحيحا وهذا نادرا ما يحدث ، فيجب رفضه وقراءته على ضوء الواقع العملي والا كان العواقب قد لا تكون حسنة . وكان لويس التوسير ، في معرض شروحاته في نظرية الايديولوجيات قد لاحظ ان هناك علاقة ضرورية بين اقوال الناس وافعالهم ، فاذا كانت اقوالهم غير متوافقة مع افعالهم فمعنى ذلك ان لديهم افكارا اخرى يعتنقونها ويتكتمون عليها ثم يعلنون غيرها (1) . اما السيد زراحي فهو : كما تؤكد الوقائع ، واحد من اثنين : اما انه دون كيشوت او ايديولوجي طيب القلب ويجهل جهلا تاما حقيقة الاقتصاد الاسرائيلي ، واما انه ايديولوجي من النمط المنافق الذى يخفي الحقائق عن عمد خدمة لمصالح اسياده الفئات الحاكمة في المجتمع الاسرائيلي ووراءهم اسيادهم الكبار الحاكمون في الدوائر الامبريالية . اى انه ، وربما يكون هذا ارجح ، يقوم بمهمة اختراع اكاذيب وتلفيقات من شأنها أن تموه الحقيقة امام الجنود والطبقات الفقيرة في اسرائيل موحيا لهم بان الضيق الذى يعانون منه في معيشتهم سببه ان العرب يسدون في وجوههم ابواب السلام وابواب التجارة . وهذا بالاضافة الى خلق تصورات كاذبة بقصد بيعها للاستهلاك الخارجي .

---

(1) - دراسات لا انسانوية - المصدر السابق - ص ١٠٦

اقتصاد طفيلي وسلع مصطنعة :

دخل الدكتور السلام هنا في منطقة سياسية خطرة تتعلق بمستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي برمته . اذ ربما يأتي وقت ، في هذا العالم الهائل التعقيد والذى تحكمه القوى الجبارة ، نضطر العرب ، طوعا او كرها ، على القبول باحد الشرين : اما اختيار الحرب الدائمة ، واما اختيار السلام الدائم ، ولذلك فان الامر يستحق عناء الخوض في بحث مطول عن الاقتصاد السياسي الاسرائيلي ، اى عن اقتصاد حكام تل ابيب وعن اسلوب معيشتهم . ويجب ان يكون واضحا ان الردود هنا في باتجاه زراعي وغولدا مائير وليست بالدرجة الاولى باتجاه الدكتور السلام .

وبداية ، فان الاقتصاد الاسرائيلي لم يعد سرا مغلقا . فالى جانب انه اليوم مفضوح على مستوى الصحف تقريبا ، فقد درس وقيم تماما من قبل الاقتصاديين العرب وكشفت تماما منابع قوته وجوانب ضعفه . ويوجد شبه اجماع بانه - الاقتصاد الاسرائيلي - عاجز عن الاكتفاء الذاتي ناهيك عن السيطرة على اسواق الاخرين . ودائرة الضعف محددة بثلاث حلقات رئيسية : اولا ، فقدان شبه كامل للمواد الاولية في اسرائيل . وثانيا ، غلاء ملفت للنظر للايدى العاملة ولعوامل الانتاج الاخرى . وثالثا ، وهذا اهم ضعف وهو ضيق حجم السوق بحيث يعتبر الانتاج الاسرائيلي من فئة الانتاج الضئيل .

فهذه العوامل الثلاث لا تسمح للاقتصاد الاسرائيلي بالاستقلال فكيف بالتأثير ؟ ، اذ ان السلعة الاسرائيلية الزراعية والصناعية ، هي الى حد ما تكوين مصطنع فهي تباع في الغالب ، في داخل البلاد وفي الخارج ، بسعر غير اقتصادى . فكأنما هي تباع لغير الاسباب المعروفة التي تقول ان السلعة يجب ان تحقق ربحا يضاف على كلفتها .

وفيما يلي أقرأ عن ذلك في كتاب " الاقتصاد الاسرائيلي " للدكتور

يوسف عبدالله صايغ : " فالزراعة وهي النشاط الحيوي ببطن ...، الصهيونية .. كانت تنال الدعم في شتى الاشكال من مستورة ومكشوفة " وكثيرا ما كانت المستورة منها تزيد اهمية عن الدعم المكشوفة ، ومن الدعم المستورة انخفاض ايجار الارض والاسعار للماء والكهرباء والخدمات العامة ومواد البناء والقروض التمويلية " .. وبالطبع هناك دعم مباشرة تحدد على اساس كلفة الانتاج او تشجيعا للتصدير". "ان ايجار الارض كان في متوسطه اربعة اعشار من واحد بالمئة (٤ر٠٪) من قيمة الناتج الزراعي وهو معدل ايجار يكاد يكون رمزيا فقط" (١). ومن المعلوم ان الارض في اسرائيل هي ملك لصندوق الوكالة اليهودية . وهذا الصندوق يقوم بتأجيرها للمزارعين اليهود." ففي احدى المستعمرات مثلا استدعى الري ضخ المياه الى ارتفاع نصف ميل بكلفة تبلغ عشرين ضعف ما يكلفه ري مساحة مماثلة في السهول" . ان ما تتحمله الحاصلات الزراعية (عدا الخضار والفواكه) من تكاليف ري يتراوح بين ٢٤ و ٤٠ بالمائة من ثمن المبيع في المتوسط . وفي الحالة القصوى بلغت هذه النسبة ٦٧ بالمائة من ثمن علف الحيوانات" . وهذه كلفة تزيد اربعة اضعاف عن كلفة الري في كاليفورنيا مثلا " حيث تصل كلفة الري الى اعلى مستوى في العالم" . فالمزارع الاسرائيلي يدفع ثمنا للمياه التي يستعملها في السقاية اقل من كلفة هذه المياه" انه لامر حقيقي ان كلفة انتاج المياه تفوق بكثير الثمن الذى يدفعه المزارع للحصول عليها . فكل زبائن شركة مكوروت (شركة المياه التي تتصرف بجميع موارد المياه في اسرائيل) بدون استثناء يدفعون اقل من الكلفة" .

---

(١) - صايغ ، يوسف عبدالله - الاقتصاد الاسرائيلي - طبعة ثانية مركز الابحاث - بيروت ١٩٦٦ - ص ٢٤٠

حتى ان مشاريع ضخمة تظهر في البداية وكأنها مشاريع اقتصادية وانيرت حولها ضجة في الصراع المحلي وعلى الساحة الدولية ، مثل مشروع النقب ، تبين في النهاية انها مشاريع سياسية وعسكرية وليست مشاريع اقتصادية . " ان نقل المياه من الشمال الى النقب بكلفة مرتفعة لا يبرره الاقتصاد وانه انما يخضع لاعتبارات سياسية ودعائية وعسكرية تبرر في نظر السلطات انماء النقب مهما كلف الامر" (١) .

اما السلع الصناعية التي توهم الدكتور المنظم انها سوف تبتلع الاسواق العربية ، فشأنها مماثل. " ان الصناعة عالية الكلفة . د فعدا ارتفاع اجور اليد العاملة ارتفاعا نسبيا فاحشا بسبب فلسفة " دولة الرفاه" السائدة في المجتمع والقاضية بالسخاء في الاجور وبالمزيد من الخدمات الاجتماعية المجانية او شبه المجانية ولاسباب اخرى هنالك شحة الموارد الصناعية والقوة المحركة . فالمواد الخام في معظم الحالات ترد من الخارج وكذلك السلع الانتاجية . والثروة المعدنية ليست بذات شأن ، والبترول لا يكفي سوى نسبة ضئيلة من حاجة البلاد (٤٪) ولا يبشر باحتياطي ذي شأن . ونتيجة هذه الصفات في مستلزمات التصنيع فان الانتاج الصناعي يتطلب مستوردات ضخمة (من السلع الانتاجية والسلع شبه المصنوعة والمواد الخام والوقود) تعني بالتالي ان القيمة المضافة في الناتج الصناعي تظل صغيرة" . ولهذه الحقيقة وجهان ، اولهما عيني يتمثل بشحة المواد كما اسلفنا ، والثاني مالي ، اما الوجه المالي فيتمثل بارتفاع كلفة الصناعة بسبب ارتفاع محتواها من المستوردات (او ما نصح تسميته " المحتوى الاستيراد واضطرار الصناعة بالتالي الى الاعتماد على المنح والاعانات اذا كان لها ان تسعى الى مزاحمة المنتجات الصناعية المستوردة او الى

---

(١) ــ المصدر السابق ــ ص ٢٤٠ ــ ٢٤١

يتعلق بالعبء الذي يلقيه
المزاحمة في الاسواق الخارجية . كما ان
المحتوى الاستيرادي المرتفع على موارد التدلع الاجنبي" . وطوال
المدة التي درسها الدكتور صايغ (١٩٥٠ - ١٩٦٤) بقيت النسبة ثابتة
بين قيمة السلعة المصدرة وقيمة ما تتضمنه من مادة مستوردة ،
مصنعة او نصف مصنعة ، فكل دولار تصدير ظل يحتوى على ٤٥ - ٥٠ ٪
من الدولار استيراد . وكان هذا احد اسباب عوز أسرائيل الدائم
الى المساعدات الخارجية التي تتزايد باستمرار " لعل الضعف الاخير
الذى هو ارتفاع قيمة المستوردات الداخلة في الصناعة اشد ضعفات
الصناعة الاسرائيلية خطورة "
وهكذا كان كلفة المواد المستوردة الداخلة الى الصناعة اضافة
الى الغلاء المفتعل للايدى العاملة ، وهو غلاء مفهوم على ضوء اهداف
الحرب ، جعل السلعة الاسرائيلية غير قادرة على المزاحمة الحرة تجاه
مصنوعات مشابهة تتمتع بالميزات الصناعية . " نتيجة للضعف الاساسي
في الصناعة وهو ارتفاع كلفة منتوجاتها كان قدرة المنتوجات
الصناعية الاسرائيلية على مجابهة المنتوجات المشابهة المصنوعة
في البلاد الصناعية منخفضة ، مما يوجب على الحكومة الاسرائيلية
التقدم بشتى انواع المعونة للصناعة ، خاصة للمصدرات الصناعية " .
ومنذ تأسيس دولة اسرائيل وسوقها "القومية" تحتم على الحكومة ان
تدفع للمنتجين تعويضا متفقا عليه لكي يتسنى لهؤلاء تصدير سلعهم
ذات الكلفة العالية الى اسواق خارجية بهدف الحصول على عملات صعبة
بهذه الطريقة وفتح الطريق امام عمليات الانتاج . وكذلك كان عليها
ان تدفع للمنتجين الذين يبيعون سلعهم في السوق المحلية تعويضا
مناسبا يعادل الربح او القيمة المضافة " في الشروط العادية .
وكان هذا "الدفع" او التعويض يتم مما تجنيه الحكومة من تبرعات
يهود العالم ومن عطايا الامبرياليين كمكافأة للخدمات السياسية
والحربية التي تقدمها لهم حكومة اسرائيل . " فمنذ ١٩٤٦ وباستمرار

بعد ذلك لجأت الحكومة الى عدد من الاجراءات لتمكين الصناعة من بيع منتجاتها . ومن هذه الاجراءات : عمليات المتاجرة والمتاينة على اساس تخفيض سعر البيع الفعلي والسعر الذى يحتمه ارتفاع التكلفة " .
" من الاجراءات ايضا اعطاء منح تتناسب وحجم القيمة المضافة (الربح) في المنتوجات فوق قيمة المستوردات الداخلة في هذه المنتوجات ، وهي منح كانت ولا تزال مرتفعة (وقد تبلغ في بعض الحالات التي ترغب الحكومة بتشجيعها بقوة ٢٠را جنيه أسترائيلي (٤٥ ٪ من الدولار) مقابل كل دولار من التصدير) ومن اشكال المعونة الحكومية تقديم القروض ووسائل التمويل بشروط سهلة للغاية ، وتقديم التأمين ضد اخطار الخسارة التجارية الناشئة عن التصدير ، وتقديم المعونة المالية لمجابهة قسم من تكاليف النقل "(١). وبما ان العامل الاسرائيلي هو محارب وعامل في نفس الوقت وتحتاجه الحكومة للحرب اكثر من العمل ، لذلك كان عليها ايضا ان تدفع هنا قيمة مضافة لا تستطيع قيمة العمل وحدها ان توفرها للعامل لكي يعيش في مستوى من الرفاهية تجعل قابليته للحرب دائمة ومستمرة . " بسبب ارتباط مستوى الاجور بالرقم البياني لاسعار سلع الاستهلاك ، تزايدت الاجور بشكل ذريع ادى الى زيادة المكاليف الانتاجية (المرتفعة اصلا) زيادة جعلت المنتوجات اضعف بكثير من ان تجابه مثيلاتها الاجنبية في السوق المحلية او الخارجية . واستتبع ذلك تطوران لم يكن منهما بد في ضوء هذا الانطلاق الذاتي ، اولا وضع مظلة كثيفة واقية من الحماية الجمركية فوق المنتوجات المحلية وفرض رسوم اخرى على الاستيراد عن طريق رفع سعر القطع الاجنبي في وجه المستوردات المراد التقليل من استيرادها . وثانيا ، اقامة نظام منح معقد ومتنوع وغالي الثمن لتشجيع الصادرات التي لم يكن لها كبير حظ بالنجاح بدون تلك المنح "(٢). وهكذا ، بسبب جهاز الانتاج الداخلي الغالي التكاليف

---

(١) - المصدر السابق - ص ٢٤٢ - ٢٤٣ - ٢٤٤
(٢) - المصدر نفسه - ص ٢٥٤

لما تحتويه السلعة الاسرائيلية من مادة مستوردة وارتفاع سعر النفط اصبح من غير الممكن ان يستمر الاقتصاد الاسرائيلي ويتطور الا بالاعتماد على العون الاجنبي الذى يصل الى اسرائيل من الخارج . يقول الدكتور صايغ : ان العون الخارجي هو " الشرط الاساسي لاستمرار المنجزات الاسرائيلية الاقتصادية . فهو بالنسبة للاقتصاد الاسرائيلي كغرفة الزجاج المدفأة التي تسمح للنبات الضعيف بالعيش "(١) . وعند هذه النقطة يمكن الاشارة الى انه بعد عقد من السنين ، وما يزال الامر كذلك حتى اليوم ، اثبتت الوقائع عمق واصالة استنتاجات الدكتور صايغ بخصوص البنية الطفيلية للاقتصاد الاسرائيلي . ففي عام ١٩٧٥ قال حاكم بنك اسرائيل : " طلبنا قروضا وهبات من الولايات المتحدة خلال السنة المالية القادمة تبلغ نحو ٢٥٠٠ مليون دولار . واذا افترضنا أن المنحة قصرت عن توقعاتنا ، وحصلت اسرائيل على مبلغ يقل بمقدار ٥٠٠ مليون دولار - عن الرقم المذكور اعلاه ، عند ذلك سيحصل رد فعل سلبي . وذلك لان جميع مصنوعاتنا تتضمن عنصرا مستوردا . فاذا لم يكن لدينا العملة الاجنبية لشراء المواد الخام وعناصر الانتاج الاخرى ، فسوف نضطر الى تخفيض الانتاج . ان نقصا بمقدار ٥٠٠ مليون دولار في تدفق رأس المال الينا ، سوف يعني هبوطا بمقدار ٨ - ٩ مليارات ليرة اسرائيلية في الناتج القومي الاجمالي . مثل هذا التخفيض سوف يعادل ١٠٪ من موارد الدولة وقد يؤدى الى بطالة ١٠٠٠ ألف شخص "(٢) .

وهكذا فان صورة النبات الضعيف داخل غرفة الزجاج المدفأة التي اشار اليها الدكتور صايغ ، تكاد من تلقاء نفسها تفتح الباب على الشك نحو جدوى " مكتب المقاطعة " الذى انشأته الحكومات العربية على اثر اقامة دولة اسرائيل . وبما ان الامر له صفة الاحراج بالنسبة لوجهل علم بسبب الدلالة العاطفية لمقاطعة "العدو"، لذلك فان مكتب المقاطعة قد ذكر

---

(١) - المصدر السابق - ص ٢٧٠

(٢) - بنية ومشاكل التبعية الاستيطاني - مؤسسة الارض - دمشق ١٩٨٣ ص ٥٢

في دراسة الدكتور صايغ وتأنه لم يذكر ، اي ان مكتب المقاطعة الذى يجب ان يكون حسب رأى صادق جلال العظم مثل انشوطة تلتف حول عنق اسرائيل ، لم يأخذ من وقت الدكتور صايغ سوى بضع عبارات غير منظورة في هامش احدى الصفحات . اليس دور مكتب المقاطعة منع اسرائيل من بيع بضاعتها في الاسواق العربية ؟ لكن اذا كانت اسرائيل تجد الاسواق لبيع كل ما لديها في اسواق العالم الاخرى ، فماذا يضيرها مكتب المقاطعة ؟ . قال الدكتور صايغ في الهامش : " فاننا نعتقد ان قدرة اسرائيل على تصدير معظم ما ترغب في تصديره تقلل اثر حرمانها من الاسواق العربية " . واضاف : " وفي اعتقادنا فان خسارة اسرائيل الفعلية (بسبب المقاطعة العربية) هي في حدود ٢٥ مليون دولار سنويا " (١) . وهذه الخسارة ناتجة ، كما قدرها ، من زيادة كلفة النقل الى اسواق ابعد ومن الفرق في سعر النفط المستورد من خارج البلدان العربية المجاورة المنتجة للنفط ، وايضا بسبب حرمان المهندسين والفنيين الاسرائيليين من العمل في البلدان العربية الغنية المنتجة للبترول . كانت تلك بعض الحقائق الاولية حول التكوين الاصطناعي للسلعة مرتفعة الكلفة المنتجة في اسرائيل ، والتي لا تستطيع ان تتحرك داخل السوق الاسرائيلية الا خلف حاجز جمركي مرتفع الجدران ، ولا تستطيع ان تقف في الاسواق الخارجية الا فوق رجلين من قصب ، واحدة تقف فوق الربح الذى تدفعه الحكومة الاسرائيلية للمنتج الاسرائيلي والثانية تقف فوق الاتفاقيات الخاصة ، او الخاصة جدا ، مع الاسواق الخارجية حيث تجرى مقايضة سلع بسلع اخرى ويكون على حكومة اسرائيل دفع التعويضات المناسبة للمنتج الاسرائيلي . وهذه الحقائق الاولية البسيطة تظهر كم هي خرافة حكاية الصناعة الاسرائيلية وطاقة هذه الصناعة المزعومة الى اسواق

---

(١) ـ الاقتصاد الاسرائيلي ... المصدر السابق ـ ص ٣٢٣

"عشرات الملايين" حسبما يزعم انه خبير اقتصادى ، اعني الايديولوجي المنافس شاؤول زراحي .

لكن دراسة الدكتور صايغ لم يكن هدفها فقط اظهار هذه الوقائع البسيطة عن تكوين السلعة في الاقتصاد الاسرائيلي بل كان الهدف اكثر اهمية وشمولا . فالدكتور صايغ هو اول اقتصادى عربي يكشف عن حقيقة الاقتصاد الاسرائيلي باعتباره اقتصادا طفيليا لا تسمح موارده الداخلية بسد حاجة المجتمع والدولة ، الاستهلاك المدني والعسكرى ، وبشكل قاطع الاحتياجات التي تستدعيها الاهداف التي ترسمها الفئات الحاكمة في دولة اسرائيل . وبالنظر الى هذه الاهداف التي تتحدى حدود الموارد المحلية فان الاقتصاد الاسرائيلي مجبر على الاعتماد على العون الخارجي اعتمادا اساسيا ، دائما ومزمنا . وهذه عاهة اسرائيلية خاصة ولها دلالة استراتيجية بالغة الخطورة . يقول الدكتور صايغ : " ان تحديد الوضع .. المتجسد في عجز الموارد المحلية المتاحة عن الاستعمالات ينشأ في الاساس وبكل بساطة من تصميم المجتمع الاسرائيلي على تحقيق اهداف معينة تعجز الموارد المحلية عن القيام بمتطلباتها" .

وهذه الاهداف التي تتكون بالاحرى في اطارها رغبات الحرب وايديولوجيا الحرب في دولة اسرائيل وتعجز الموارد الداخلية عن سدادها هي جيش ضخم اكبر من طاقة اسرائيل أو ربما عشر اسرائيلات مشابهة ، واستيعاب مهاجرين بحجم سنوى هائل ، وحياة رفاهية مصطنعة واستهلاك شبيه بما يحدث في الولايات المتحدة . " فابقاء باب الهجرة مفتوحا - يكتب الدكتور صايغ -- لليهود الراغبين في الاستيطان باسرائيل وتوفير الفرص لاسكان هؤلاء المهاجرين واستيعابهم ، والحفاظ على قوة عسكرية كبيرة مجهزة تجهيزا ضخما وحديثا ، وتوفير خدمات عامة سخية ، واصرار المجتمع على رفع مستوى الاستهلاك الخاص مع ارتفاع الدخل - ان هذه الاهداف مجتمعة تتطلب من الموارد ما لا قدرة للاقتصاد الاسرائيلي على اتاحته من الداخل فهي تتطلب حتما معدلا من الاستثمار لا يمكن تأمينه الى جانب متطلبات

الاستهلاك . من هنا كانت منسبة اللجوء الى العون الاقتصادي الاجنبي الضخم بسبب استمرار الاصرار على التمتع بمستويات الاستهلاك والاستثمار الحالية وبمعدلات نموها*.. اى ان هنالك تضاربا اساسيا داخليا بين حجم الموارد المحلية وجملة الاهداف ، ولا سبيل للخروج من حلقة التضارب المفرغة بدون الاستناد الى المعونات الاجنبية التي تتيح من الموارد الخارجية ما يكفي لايجاد التعادل بين الموارد المتاحة من جهة والاستعمالات المبتغاة من الجهة الاخرى " (1) .

---

* - ان الناتج القومي الاجمالي وهو مقياس نشاط المجتمع الاقتصادي لم يف في مجموعه خلال السنوات ١٩٥٠ - ١٩٦٤ بمتطلبات الاستهلاك الخاص والاستهلاك الحكومي العام . أى ان الموارد المتاحة محليا اقل من الاستعمالات بمقدار يزيد عن حجم الاستثمار القائم بحيث يقوم العالم الخارجي بتوفير الموارد للاستثمار القائم ولقسم صغير من الاستهلاك ايضا . " هذا وضع يندر ان يوجد مثله " . انه وضع يشكل الرصيد الاستيرادى (الفرق بين الواردات والصادرات) نسبة ٢٣٫٩ ٪ في المتوسط من جملة الموارد المتاحة وتبلغ ٣٣٫٩ بالمائة . في المتوسط من الناتج القومي الاجمالي (المصدر نفسه - ص ٣٤١)

---

(1)- المصدر السابق - ص ٣٥٦ - ٣٥٧

من هي الجهات الخارجية التي تمد اسرائيل بالموارد الانمائية المطلوبة ؟ الحركة الصهيونية والمنظمات اليهودية في العالم ، وحكومات الدول الامبريالية التي لها مصلحة في وجود اسرائيل وبالاحرى في حروبها . ولم تنفرد الولايات المتحدة بالدعم ، على الاقل بالدعم المكشوف ، الا بعد حرب حزيران . فقبل تلك الحرب كان الالمان والانكليز والفرنسيون والاميركيون يتشاركون في تقديم هذا الدعم . هذه القوى الخارجية هي التي توسع ساحة الموارد التي تصب في خزانة اسرائيل مما يجعلها تتابع اهدافا اكبر من حجم مواردها المحلية بما لا يقاس دون ان يظهر في وجهها اية ضغوطات او اختناقات اجتماعية كما يحدث في الحالات العادية عندما تطلب حكومة من شعبها اكثر مما هو قادر على تقديمه . يقول الدكتور هايغ : " وبعبارة اخرى ان اسرائيل (تساندها في ذلك الحركة الصهيونية (العالمية) حولت العبء الثقيل من اكتاف مواطنيها الى اكتاف اليهود في الخارج واكتاف الحكومات الالمانية والاميركية والفرنسية ومحبي الصهيونية واسرائيل من غير اليهود " (١) .

الاقتصاد الطفيلي والحرب :

في عام ١٩٦٢ بدأت تظهر في الافق علائم ازمة اقتصادية جديدة في اسرائيل . فالزيت الذي صب في الدواليب بسبب حرب ١٩٥٦ قد بدأ يجف وشرعت العربة الصهيونية بالصرير .. كما ان اتفاقية التعويضات الالمانية (١٢٥ مليون دولار سنويا) اوشكت على الانتهاء .. وحكومة اسرائيل ، في محاولة منها لتخفيف التدهور حيث بلغ العجز في ميزان المدفوعات ٤٥٥ مليون دولار ، قامت برسم سياسة اقتصادية جديدة بهدف رئيسي وهو خفض الاعتماد على المعونات الخارجية . وكان تقدير الخطة ان العجز في ميزان المدفوعات سوف ينخفض في عام ١٩٦٥ الى ٢٧٥ مليون دولار وفي عام ١٩٦٦ الى ٢٥٠ مليون دولار .. وهكذا دواليك حتى التوازن بين الواردات والصادرات .

---

(١) - المصدر السابق - ص ٢٤٦

والدكتور صايغ خصص الفصل التاسع من كتابه (الاقتصاد الاسرائيلي) لمناقشة خطة الحكومة الاسرائيلية في سياستها الاقتصادية الجديدة . وقد توصل بعد مناقشة الخطة بندا بندا ورقما رقما ان السياسة الاقتصادية الجديدة لحكومة اسرائيل سوف تفشل لا محالة . وان حكومة اسرائيل سوف تسقط في مأزق اقتصادى اعتبارا من عام ١٩٦٥ ولن يكون بوسعها ان تخرج من الازمة بالوسائل الاقتصادية المعروفة . والذى ثبت فيما بعد ان حسابات الدكتور صايغ كانت صحيحة وان حسابات حكومة اسرائيل كانت غير صحيحة .

فقد قفز العجز في ميزان المدفوعات في سنة ١٩٦٤ الى ٥٢٨ مليون دولار وهو عجز قياسي حتى ذلك التاريخ .

اما ما يهم هنا فهي استنتاجات الدكتور صايغ حول سلوك الفئة الحاكمة في اسرائيل ، التي استمرأت العيش الطفيلي على اكتاف الاخرين ، عندما تتحقق من استحالة الخروج من الازمة بالوسائل العادية . لان الطريق الوحيد المفتوح لحل الازمة سيكون بالاعتماد على تدفق الاموال من الخارج ، لكن هذا التدفق كان دائما يزداد شدة مع ظهور بوادر الازمات او الاخطار التي تحيط بالمستوطنة اليهودية في فلسطين أو بالجاليات اليهودية في البلدان الاخرى . وبالنسبة لصناديق الجباية اليهودية ، صارت هذه المسألة بمثابة قانون . فكلما كان الخطر اشد كلما كانت كمية المال اكبر وكلما كان الخطر اقل يكون المال بالتناسب اقل . استنادا الى هذه الحقائق سأل الدكتور صايغ ، كيف يكون تصرف الفئة الحاكمة في اسرائيل عندما " تتحقق من عجزها عن خفض حاجتها الى العون الاجنبي " بالشكل الذى تحلم به ؟ . يقول هنا..

" علينا اذن ان نكتشف السبل غير الاقتصادية التي قد تسلكها اسرائيل لتؤمن لنفسها ذلك السيل من العون الاجنبي الذى تتطلبه لحاجات مجتمعها واقتصادها وجيشها في الاغراض الاقتصادية وغير الاقتصادية "(١) .

---

(١) ـ المصدر السابق ـ ص ٣٢٤

ورؤية العالم المتميزة والنافذة ترأ الدكتور صايغ في البنيــة الاقتصادية وضعا لحرب حزيران ١٩٦٧ قبل وقوعها بثلاث سنوات، وتكاد القراءة توحي وكأنها حدثت بعد الحرب وليس قبلها . فقد وصف المناخ الايديولوجي للفئة الحاكمة في اسرائيل وكأنه شاهد عيان في ايــار وحزيران من عام ١٩٦٧ . فقد كتب : " كذلك لن يكون من الميســور لاسرائيل الحصول على المعونات الضخمة دون وجود تهديد عســكري (او سياسي فعال) يجابهها تستطيع استغلاله . وقد يكون هذا التهديد (١) فعليا وفعالا او مداهما ، او (٢) مصطنعا تدعيه هي لاغراضها . فاذا كان غير مصطنع فان لجوء اسرائيل الى معونة اصدقائها يكون سهل التحقيق . واذا كان مصطنعا تضطر اسرائيل في سبيل انجاحه الى حملة سياسية ودعائية بارعة وضخمة لتنقل جو الرعب المراد خلقــه الى الدوائر الخارجية التي ترغب في التأثير عليها " واعتمــادا على اختبار السنوات الماضية منذ قيام اسرائيل نستطيع التعميم ان ظهور حملة دعائية ضخمة يعني التغطية لاعداد حملة سياســية او عسكرية ضد العرب .

" نعود الان الى النقطة التي انطلقنا منها وهي مسألة استغــلال اسرائيل لما يتهددها من خطر . فنقول انه مهما كان الخطر الذي تشكو منه اسرائيل وسواء كان حقيقيا او وهميا او اصطناعيا ، وسواء كانت حملة اسرائيل في الخارج تستهدف اغراضا دعائية ام سياســية ام عسكرية فانها في كل الاحوال تستهدف رفع المعونة الاجنبيــة وتنتهي بالتالي الى الضغط للحصول على المزيد من القطع الاجنبي" .

" يبقى اذا خط تصرف واحد منفتوحا امام اسرائيل .. هذا الخــط هو استغلال او خلق الازمات لتأمين استمرار المعونة الدافقة التــي يتطلبها الحفاظ على معدل متزايد المستويات الحاضر من نمو واستهلاك"

" ان المدلول الرئيسي لهذا التحليل يكمن في حتمية قيام اسرائيل باصطناع الازمات السياسية أو العسكرية او تلك التي تتعلق بالجوالي اليهودية في الخارج ، بشكل يكاد يكون دوريا ، من اجل التغلب على الازمة الاقتصادية ، ان لم تبد امامها ازمات حقيقية يخلقها لها العرب " . " لا مفر من الاستنتاج ان اختيار اسرائيل بين القبول بالبطء في التقدم الاقتصادى او خلق الازمة سيكون خلق الازمة كما انه لا مفر من الاستنتاج انه مهما كان نوع الازمات ودرجة جديتها فانها ستعني استمرار اضطرار اسرائيل الى الاعتماد على العون الاقتصادى الاجنبي الضخم " (١) .

حقيقة كانت تلك رؤية عبقرية . فقد وضع الدكتور صايغ منذ ذلك الوقت قوانين لسلوك الطبقة الحاكمة في اسرائيل ما تزال صحيحة وثابتة حتى اليوم . فالسلطات الحاكمة في اسرائيل عندما تأكدت في حينه من عدم قدرتها على الخروج من الازمة بحل اقتصادى كانت مضطرة للمحافظة على بقائها في السلطة ان تفتش عن الحل العسكرى . وبالفعل تفاقم الوضع الاقتصادى في اسرائيل اعتبارا من عام ١٩٦٦ . وعند مطلع عام ١٩٦٧ بدا الوضع كارثيا ، فقد خرج ١٠٪ من قوة العمل الى حالة البطالة وكان من الطبيعي ان يتناول في البداية الطبقات الفقيرة وهي في اغلبيتها من اليهود الشرقيين . وفي اللحظة التي بات من المحتم ان يختلط فيها الصراع الطبقي مع العنصرى الكامن في تركيب المجتمع الاسرائيلي ، فقد اعلنت حكومة اسرائيل ، بواسطة اجهزتها الدعاوية الجبارة تساندها في ذلك الاجهزة الامبريالية على النطاق العالمي ، لشعبها وللعالم الخارجي بان المجتمع اليهودى في فلسطين مهدد بالابادة . وان مئة مليون عربي ومعهم بقدر عددهم عساكر ومدافع ،

---

(١) المصدر السابق – ص ٣٢٦ – ٣٢٧ – ٣٢٨

يحيطون باسرائيل من كل جانب وانهم ، اذا لم تتحدت حضرة ، " سوف يرمون اسرائيل في البحر" لا محالة . ولم يكن هناك ما هو اسهل على الدعاة الاسرائيليين " تعاونهم مبالغات الحرب اللفظية - كما قال دويتشر - من ان يثيروا الخوف من " حل نهائي" اخر يهدد اليهود في اسيا هذه المرة . واستحضر الدعاة الاساطير الدينية ، والرموز الدينية - القومية المشتقة كلها من التاريخ اليهودي ، واستنفروا ذلك السعار من العداوة والصلف والتعصب ، التي استعرضها الاسرائيليون بشكل منير وهم يندفعون الى سيناء وحائط المبكى ونهر الاردن" (١) .

لقد خرج الجيش الاسرائيلي من خلف تحصيناته في حزيران ١٩٦٧ ، وبضربة واحدة نهب الجولان وهي من اخصب المناطق السورية ، والضفة الغربية التي سخر مواطنيها وعمالها للعمل بنصف اجر العامل الاسرائيلي وشرع في نفس الوقت وما يزال ينهب اراضيها دونما بعد دونم ، واستولى على بترول سيناء الذي حقق لدولة اسرائيل الاكتفاء الذاتي من اثمن سلعة في هذا العصر (٦ ملايين طن في العام) وظل يستغله مدة ١٤ عاما حتى انسحابه عن آبار النفط في سيناء عام ١٩٨١ .

ولقد كانت هذه المكاسب الاقتصادية زائدا تبرعات يهود العالم ومنها الهدايا الامبريالية هي الاساس في التطور الاقتصادي والعسكري الذي حاربت اسرائيل من فوقه في حرب تشرين ١٩٧٣ ومن ثم استعدادها لغزو لبنان في حزيران ١٩٨٢ .

وفي التأكيد هنا على دراسة الدكتور صايغ ، فان المبالغ التي حصلت عليها حكومة اسرائيل من جيوب اليهود في العالم ، يكاد يكون مضرب مثل ، كانت الاجهزة الدعائية الصهيونية والعالمية قد نقلت ليهود العالم صورة زائفة عن قوة جيوش الحكومات العربية وأرعبتهم . وقد ظنوا فعلا على ما يظهر ، ان اسرائيل قد تطحن في

---

(١) - دويتشر - المصدر السابق - ص ١٢٦ - ١٢٧

هذه الحرب • وعندما بدأت المعركة الفعلية عادت ـ الاجهزة ذاتها ـ تنقلت لهم الصور الاسطورية عن "داود" الذى تمن تألقي " بوليسات" المربي المدرك ارضا بـ " حصاة من مقلاعه " : ان مثل هذه الصورة الايديولوجية ومعها دزينة مثلها عن "المنابيين" وال" المسادا" و" جنود يشوع" و " ذكرى الكارثة والبطولة " • قد افقدت يهود العالم صوابهم • فكادوا يخلعون ثيابهم ويلقون بها في صناديق الجباية الصهيونية • وبهذا الصدد كتب مارك هيلل : " اعلى اليهود عام ١٩٦٧ اربعة اضعاف ما اعطوه في عام ١٩٤٨ ، عام ولادة اسرائيل" •
وقد لخص رئيس صندوق الجباية (النداء اليهودي الموحد) ادوار غينسبرغ في حديث مع جريدة اسرائيلية في شباط ١٩٦٨ ، وهو يصور مواقف اليهود الامريكيين : " لقد اثارت حوادث مايس ـ حزيران ١٩٦٧ اليهود الامريكيين وبذل الجباة كثيرا من الجهود حتى استطاع نشاطهم في الجباية ان يساير تدفق الهبات" (١)" • وفي فرنسا كتبت مجلة كاشويد : " لانت لجنة المليار من اجل فيتنام الكثير من المصاعب في جمع هذا المبلغ من ٥٠ مليون فرنسي " • وجمع من نصف مليون يهودى من اجل اسرائيل ، في بضع ساعات مبالغ كبيرة جدا ، يجهل حتى وزير المال الاسرائيلي نفسه مجموعها" (٢)
" ان الاتحاد الصهيوني ـ كتب ايفانوف ـ والاوساط الاسرائيلية الحاكمة ، تلقت في فترة العدوان الاخير (١٩٦٧) الذى شن على الدول العربية ، كميات " صافية " من الدولارات كافية بكل يسر للاقدام على عدة مغامرات مشابهة " (٣)
ولا يخجل الصهيونيون من الاعتراف ان كمية الدولارات (زيادة ونقصا) مرتبطة بحالات الحرب والسلم او الحرب واللاحرب ، بل على العكس يرون الحديث عنها مسألة عادية تحتاج الى فهم وتحليل وتكييف باعتبارها

---

(١) ـ هيلل ، مارك ـ اسرائيل في خطر من السلام ـ ترجمة ادارة التوجيه المعنوى ـ دمشق ١٩٧٠ ـ ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣
(٢) ـ المصدر نفسه ـ ص ٢٨١
(٣) ـ احذروا الصهيونية ـ المصدر السابق ـ ص ١٥١

خبرة صهيونية مكتسبة إداأمام المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين
١٩٦٨ ، قال رئيس الدائرة الصهيونية بنفسه (لويس آريبه بينتوس) ،
وكان يستخلص معنى الكفاءة الجيلية في عام ١٩٦٨ عن عام الحرب ١٩٦٧ ،
" لا توجد اية ضمانة لكي تبقى يقظة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ دوما
طبيعية وظاهرة ، وسأذكر نموذجا واحدا ، اراد اشخاص كثيرون ان يتبرعوا
في حزيران (يونيو) ١٩٦٧! ولم ينتظروا حتى يطلب اليهم ذلك ولكنهم
احضروا الاموال بانفسهم . اما اليوم فانهم يقولون : اذا نشبت حرب
مرة اخرى سنقوم بمثل هذه الجباية ، ولكن لا حاجة الان الى تجنيد
انفسنا بنفس المقدار" (١) .

غطاء ايديولوجي فوق عملية النهب :

لقد قامت اجهزة الدولة الايديولوجية في اسرائيل خلال مرحلة الازمة
والحرب بمهمتها المهيأة لها . فابتعدت عن الانظار حقيقة ان الفئة الحاكمة
في اسرائيل قد تعمدت القيام بحرب خططت لها مسبقا بهدف النهب . وقام
بحمايتها في تلك العملية الضخمة اسيادها الامبرياليون الامريكيون
الذين كانت لهم اهداف استراتيجية اوسع نطاقا وتأكدت بشكل اختباري
ونموذجي تلك الفترة التي وضعها انجلز والتي تقول ان الدولة اكبر
مولد للايديولوجيا لان اساسها الاقتصادي غير شفاف . اذ ان " العلاقة
مع الوقائع الاقتصادية تختفي بصورة تامة عند محترفي السياسة " وعند
جميع الايديولوجيين من مختلف الاصناف . تظهر الدولة خلال عملها ،
وخاصة في اخطر مسألة مثل الحرب ، وكأنها تنطلق من قواعد اخرى
مثل الحق والعدل ، حق البقاء والدفاع المشروع عن النفس .. الخ .
"ولذلك يبدو الشكل الحقوقي - قال انجلز - كأنه كل شيء ، اما المحتوى
الاقتصادي فلا شيء" (٢) .

---

(١) - المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ١٩٦٨ - ج٢ - مركز الابحاث
الدراسات الفلسطينية والصهيونية بالاهرام - القاهرة - ١٩٧١
ص ٤٣٧

(٢) - انجلز ، فريدريك .. لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية
الالمانية - دار التقدم .. موسكو ١٩٦٧ - ص ٦٣

وبالفعل كان اول عمل قام به ذلك الطاقم الذى بلور خلة الحرب حسو تسميتها " حرب الايام الستة " بحيث تتطابق مع رواية خلق العالم كما وردت في التوراة . وقد استغل هؤلاء غوغائية الاجهزة الايديولوجية لدى الحكومات العربية التي كانت آنذاك قد عكست تصورا مزينا عن حقيقة الموقف "وميزان القوى ، فصمموا موقفا للدفاع عن النفس تجلى بشكل مكثف في امر القتال الذى صدر للجيوش الاسرائيلية في صبيحة يوم ٥ حزيران ١٩٦٧ : " بدأ العدو المصرى عدوانه تقصد ابادتنا ، وها نحن اليوم ، كما كنا من قبل ، يحيط بنا الاعداء من كل جهة ، الا ان روح شعب اسرائيل البطولية ترافقنا في هذه المعركة . والشجاعة الابدية التي يتحلى بها جنود يشوع والملك داود ، والمكابيون ، وجنود حرب الاستقلال وحرب سيناء ، هي منبع قوتنا وستتيح لنا التغلب على العدو الذى يهدد مستقبل بلدنا . ان انتصارنا سؤمن لنا السلام ، ويكفل سلامة اولادنا واجيالنا المقبلة " (١) .

وقد ذكر ياكوب باريون ، وهو باحث معاصر في نظرية الايديولوجيات ، ان رجل الدولة المطلع تماما على حقيقة الوضع يرى من مصلحته ان يعرض تصورا ايديولوجيا عن الواقع مغايرا تماما للحقيقة . " فهو يملك معرفة بالوقائع المعنية ، لكنه يعرض هذه الوقائع امام الاخرين بصورة مغايرة ، أى يعرضها على نحو يخدم مصالحه - سواء كانت هذه المصالح تتعلق بنظرة شاملة الى العالم ، او مصالح اقتصادية ، أو تمت بصلة الى سياسة القوة والنفوذ .

وهنا لا يعاني الايديولوجي من نقص في معرفة الحقيقة ، بل

---

(١) - بن بورات وأورى دان - الميراج تواجه الميغ - ترجمة ادارة التوجيه المعنى - دمشق ١٩٦٨ - ص ٩

ينتجه العدو * . فهو نفسه لا يضل ، بل يقود الاخرين عن وعي الى الضلال نيابة عنهم "(١) .

ومن هذا الطراز الايديولوجي الجديد ، المنافق الذي يتعمد اضلال الاخرين يجب ان يعد الجنرال اسحق رابين على رأس القائمة . فقد كان رئيسا لاركان الجيش الاسرائيلي في حرب حزيران ١٩٦٧ . وبحكم منصبه كان رئيسا لمجموعة الخطة العسكرية في القيادة العامة . وهو يعرف بوضوح تام السبب الاسرائيلي وايضا السبب الامريكي لتلك الحرب . كما يعرف بوضوح تام قوة تلك الجيوش العربية التي كان عليه ان يحاربها . وقد تكون معرفته عن قوتها بعد انتهاء المعارك لا تختلف كثيرا عن معرفته بها قبل بدء الحرب . ولكنه عندما دعي لالقاء محاضرة في الجامعة العبرية على اثر انتهاء المعارك ، قال : " لقد هاجم ايارونا

* – في المعنى الماركسي الاساسي لايديولوجي ، كما وضع من قبل ماركس وانجلز في (الايديولوجيا الالمانية) وفي كتابات انجلز فيما بعد ، لا يتعمد الايديولوجي الكذب او اضلال الاخرين وانما يقع هو نفسه ضحية ضلالة عن الواقع ، فيتصور دوافع فكرية او اخلاقية مثالية خلف اعماله وتغيب عن فكره القوى المحركة الحقيقية مثل مصالح الطبقات او المصالح المادية . ولكن هذا المعنى تطور فيما بعد فصار ايضاً رجل دولة يمكن ان يتحدث لغة الايديولوجيا ، اي يصور نفسه مدفوعا بدوافع مثالية بينما يكون في الواقع منافقا لانه يعرف الحقيقة تماما . وهذا المعنى الاخير ينطبق تقريبا على جميع رجال الدولة والايديولوجيين الرسميين في اسرائيل ، وخاصة اولئك القريبين من مركز القرارات السياسية او ذوي الثقافة المؤهلين بتفكيرهم للاطلاع على الحقيقة .

(١) – باريون ، ياكوب – ما هي الايديولوجية ؟ تعريب د. اسعد رزوق – الدار العلمية – بيروت ١٩٧١ – ص ١٠٠ – ١٠١

مطارات الاعداء باحكام لم يتوصل الناس الى تصوره ، ويحاول الخبراء تفسيره بلجوئنا الى اسلحة سرية [اراد ان يوحي وكأن قوى الغيبية امدت جيشه على ساحة المعركة] ، ومدرعاتنا جابهت العدو وتغلبت عليه مع ان تجهيزها كان دون تجهيزاته . وجنودنا ، من الاسلحة المختلفة انتصروا رغم تفوق العدو العددي ورغم تحصيناته ... ان كل ذلك ينبثق من الروح ولقد كانت الغلبة لمقاتلينا لا بفضل اسلحتهم ، انما بفضل شعورهم وايمانهم وبسالتهم في المحافظة على وجود شعبنا في وطنه والمحافظة على حق اسرائيل في العيش والبناء" (١).

اما اولئك الايديولوجيون البعيدون عن مركز القرار الاقتصادي والسياسي او الذين ينتمون لا الى فئات اخرى غير الفئات التي تتشكل منها سلطة الدولة ، وهم الذين يمكن ان يروا العالم بالمقلوب او على غير حقيقته كما اشار هنري لوفيفر(٢)، اما بسبب بعدهم عن المركز او بسبب من مهنهم وتخصصاتهم ، مثل رجال الادب ورجال الدين ، وهم اشخاص ذووا فائدة للسلطات الحاكمة اكثر من غيرهم باعتبارهم لا يعرفون ماذا يقولون ، فقد شرعوا بتدبيج الخطابات في القطب الشمالي عندما كانت اسباب الحرب في القطب الجنوبي . هل قال الادب "ورائي" في حزيران مثلما فعل قادة الجيش الاسرائيلي ؟ لا ، لا هذا ولا ذاك. الذى قال اولا ، ومنذ الازل ، "ورائي" هو العهد القديم " كتاب الكتب" . طقم كامل من الادباء ممن يسمون اصحاب نظرة توسعية في اسرائيل (اسحق شيلاف ، بنيامين جيلاى ، وموشي دور ، وموشي براجر) كلهم اقروا ان اول من قال " ورائي" الى حدود " ارض اسرائيل الكاملة " هو التوراة ثم جاء جيش الدفاع الاسرائيلي للتنفيذ فقط ، " هناك كتاب واحد فقط وهو " التاناخ" (العهد القديم) الذى قال "ورائي" وقد رد عليه الواقع وسيرد عليه قائلا " امين"(٣) .

---

(١) المعراج تواجه المبخ - المصدر السابق - المقدمة .
(٢) لوفيفر ، هنرى - ماركس وعلم الاجتماع - ترجمة بدرالدين قاسم الرفاعي منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧١ - ص - ٢٤
(٣) ش . ف - ١٥ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٧٢ ص ١٨٠ و ١٨٧

(٤)
حاخام ، من مجموعة الايديولوجيين الدينيين ، (ايوجين بوروفيتز) اشار الى ان حرب ١٩٦٧ كانت مسألة لاهوتية وليس مسألة عسكرية . فلم تكن دولة اسرائيل هي المهددة ، بل الله نفسه " الله نفسه هو الذى كان مهددا " (١) .

الدكتور رشاد الشامي ، مدرس الادب في جامعة عين شمس ، اعد دراسة عن الادب الايديولوجي الذى قام بتغطية احداث الحرب وانعكاساتها ، قال : "ان تحويل قادة اسرائيل الى آلهة خرافية في الكتابات التي صدرت عن حرب حزيران ١٩٦٧ ، كانت من السمات الشائعة بشكل يدعو للدهشة في الادب الوثائقي عن هذه الحرب " (٢) .

الضابط الاسرائيلي : " الا يذكرك ما يجرى على ارض التوراة بالتوراة ؟"
الصحفي : " انا بدورى اريد ان اسألك ، الا يبدو ان رجوع الاسرائيليين المتكرر الى التوراة في هذه الايام ، هو للبحث عن تبرئة لافعالهم ؟"
الضابط مرة اخرى " كل شيء كما في التوراة " حان اليوم السابع " ، وبمقدورنا ان نتنفس الصعداء . لعلك لاحظت ان الحرب استمرت ستة ايام " (٣)
لم يمض الا وقت قصير . بضع سنوات أو ما كان كافيا لكي يتأكد جميع الناس ان الحديث عن اسرائيل " الصغيرة المهددة " ليس اكثر من سخافة عند ذلك تقدم اصحاب العلاقة انفسهم ، رجال القرارات ، وعلى الاغلب لاسباب تتعلق بنزاعاتهم المعتادة على الغنائم ، فاعلنوا ان كل النسيج الايديولوجي الذى تم صنعه فوق دولة اسرائيل في حرب حزيران كان مغشوشا . فقد قال العميد (فيتيا هو بيليد) رئيس قسم الاعداد والتموين في القيادة العامة اثناء الحرب ، : " ان النظرية التي تعتبر ان اسرائيل كانت عرضة لخطر الابادة في حزيران ١٩٦٧ ، وانها حاربت في سبيل كيانها المادى آنذاك ، ليست سوى خدعة ولدت ونمت بعد الحرب "
اذن لماذا الحرب ؟ يضيف بيليد : " عندما كنا نتحدث عن الحرب في

(١) الايديولوجيا الصهيونية – ج ٢ .. المصدر السابق – ص ٢٣١
(٢) ش . ف – ١٠ – حزيران (يونيو) ١٩٧٢ – ص ٩٣
(٣) بلياييف ، يورى – اليوم السابع كاليوم الاول – بالروسية – دار النشر العسكرية – موسكو ١٩٧٩ – ص ٢٤١ (من مسودة لم تنشر بعد .)

الاركان العامة ، كان حديثنا يدور عن المضاعفات السياسية التي سوف تترتب على عدم خوضنا للحرب" . اما الجنرال (عيزر وايزمن) نائب رئيس الاركان آنذاك ورئيس شعبة العمليات ، فقد قال : " انني مستعد للموافقة على ان وجود دولة اسرائيل لم يتعرض لخطر الدمار .. ولكن هذا لا يعني اننا كنا نستطيع الامتناع عن ضرب المصريين والاردنيين والسوريين ، ولو فعلنا ذلك لما استمرت دولة اسرائيل قائمة بنفس الروح والجوهر" (١) .

لقد حارب حكام اسرائيل في حزيران ١٩٦٧ ، كما في حروبهم التي سبقت والتي لحقت ، لانهم منذ قيام دولتهم بل ومنذ تأسيس المستوطنة ، قد تعودوا العيش الطفيلي على حساب الاخرين . ولم يكن لديهم في اى وقت ما يبيعونه او يتسوقونه في الاسواق العربية سوى الحرب . فالحرب هي تجارتهم الوحيدة وهي اسلوب معيشتهم ولولا الحرب لما كانوا موجودين اصلا في فلسطين. " يمكن اختزال الصناعات الاسرائيلية الى صناعتين - قال باحث في مؤسسة الارض- صناعة تجنيد المهاجرين واستيعابهم وصناعة الحرب . ومن خلال تشغيل هاتين الصناعتين يبدو المجتمع الاسرائيلي وكأنه ورشة عمل . اما اذا توقفت هاتان الصناعتان او توقفت احداهما فان الارتباك والجمود يصبحان سيد الموقف" (٢). ولم يعد التساؤل المطروح من قبل الباحثين الاقتصاديين ماذا تصنع اسرائيل وماذا تبيع ، ولكن ماذا سيصنع حكام تل ابيب بانفسهم اذا ما توقفت هذه الحرب لسبب من الاسباب .

كان من المفروض ان يدقق الدكتور العلم في اقوال شاوول زراحي فلا يعتبرها هكذا بسرعة " مثالا على الصراحة والوضوح" . لان زراحي كان قد نشر مقالته في العدد الخاص من مجلة "الازمنة الحديثة " الذى خصص لموضوعات الصراع العربي - الاسرائيلي والذى صدر عام ١٩٦٦ .

---

(١) - ش . ف - عدد ١٣ - ايلول (سبتمبر) ١٩٧٢ ص ٢٠

(٢) - بنية ومشاكل التجمع الاستيطاني - المصدر السابق - ص ٢٤

الى انه نشر في نفس الوقت الذى تبدو فيه حكومة اسرائيل قد تأكدت فيه انه لا مخرج امامها من الازمة الاقتصادية سوى الخروج للحرب لكي تجلب مالا وتبقى في السلطة . ويحتمل ان لا يكون زراعي ايديولوجي طيب القلب اذ يحتمل انه في مقاله الملفق عن خانة صناعة اسرائيل للاسواق العربية كان يقوم بمهمة تضليل رخيصة للرأى العام الاوروبي قبل الحرب مباشرة . وذلك حتى لا يترسخ لدى الاوروبيين الاعتقاد ان دولة اسرائيل تحب الفلاحة او الصناعة اكثر مما تحب الحرب . وهذه صورة ايديولوجية ترغب اجهزة الدولة الرسمية ان ينظر العالم الى اسرائيل من خلالها . وهي صورة ضرورية ايضا لابتزاز المال في الوقت المناسب .

الحدود الامنة تسد ابواب الحرب :

قالت غولدا مائير " انها ترفض ضمانات الدول الكبرى وترفض الضمانات الدولية للحدود ... بما في ذلك فكرة القوات الدولية على الحدود " ما هو هذا الشيء العجائبي الذى يسبب الدوار ؟ " كيف نفسر هذا التصلب الاسرائيلي الشديد ؟ ". فعلا ، كيف نفسره ؟ غولدا مائير ترغب في ان تذهب "لتشترى حاجياتها من اسواق القاهرة وتحب ان تتم هذه العملية بدون عراقيل . واول الطريق في تنفيذ مثل هذه الرغبة يكون " برفض كل مبادرات السلام العربية والدولية " . وواضح ان الامر هنا يتضمن شيئا من الطرافة بسبب فقدان الترابط المنطقي بين الاسباب والمسببات . وليس الذنب في هذا ذنب الدكتور السلم بالدرجة الاولى . فالايديولوجيات السائدة في البلدان العربية كانت حتى وقت قبول عبد الناصر بمبادرة روجرز (١٩٧٠) قد خلقت الانطباع في ذهن المواطن العربي ان دولة اسرائيل لا تنتظر اكثر من غمزة سلام صغيرة من اية دولة عربية حتى تركع على ركبتيها وتتنازل ربما حتى حدود التقسيم لسنة ١٩٤٧ . ولكن عندما جاء الجد ، وخاصة بعد ان نزل انور السادات الى الساحة وصار يطلب اى حل سلمي حتى ولو جاء من عند الشيطان ، بدأت حكومات اسرائيل

تناضل علنا ضد السلام . وقد ادى هذا المنحى الجديد في السياسة الاسرائيلية الى التسبب بشيء من البلبلة والدوار في الفكر العربي على الجهة المقابلة بحيث ظهرت السياسة الاسرائيلية الجديدة المعادية للسلام وكأنها طلاسم لا يمكن فك رموزها .

يلام الدكتور العظم كمفكر ، يساري خاصة ، انه اخذ كلام غولدا مائير على علاته دون ان يقوم بفحصه على ضوء الواقع ، وخاصة على مدى وقائع تاريخ الحدود " بين الطرفين " ، اسرائيل والدول العربية المجاورة لها . لان الامر هنا لا يحتاج الى "خبير" او "خبراء" اقتصاد . فالامر هنا يؤخذ من سؤال عادى : ترى ، لو كان يوجد ضمانات دولية على الحدود بين العرب والجيش الاسرائيلي يوم ٥ حزيران ١٩٦٧ ، فكيف كان يمكن ان يصل الجيش الاسرائيلي الى قناة السويس في الغرب والى نهر الاردن والقنيطرة في الشرق ؟ كيف كان يمكن ان تخرج اسرائيل من المأزق الذى وقعت فيه لو انه كان بينها وبين الحدود العربية "جدران من الطرفين" او حدودا آمنة ومعترف بها " ؟ .

ان الصهيونيين الحاكمين في اسرائيل ليسوا مجانين . انهم يعرفون بالضبط من اين يأكلون ويشربون . ولا يمكن ان تصل بهم الحماقة الى القبول بالضمانات الدولية او وضع حواجز تمنعهم من الحرب الا اذا ارغموا على ذلك . " وعندما قررت الامم المتحدة ١٩٥٧ ، وضع قوات الطوارئ الدولية على الحدود بين مصر واسرائيل ، لتجنب حوادث الحدود بين البلدين ، قبلت مصر تنفيذ القرار ووضع هذه القوات على اراضيها ... بينما رفضت اسرائيل تنفيذ القرار الذى كان يقضي بوضع هذه القوات على الجانب الاخر - الاسرائيلي - من الهدنة ايضا "(١) . وفي ١٩٦٩/٢/٢٩ قال عبد الناصر لمندوب مجلة نيوزويك الامريكية : " عليك ان تذكر اننا جلسنا مع الاسرائيليين بعد حرب سنة ١٩٤٨ لاتفاقية الهدنة . وحتى حرب ١٩٥٦ كانت لجان مشتركة تضم مراقبين للامم المتحدة . والاسرائيليون هم الذين رفضوا

---

(١) - مجلة الطليعة المصرية - عدد ١٢ - تشرين اول (ديسمبر) ١٩٧١ ص ٤٠

الاستمرار في ذلك بعد سنة ١٩٥٦ "(١) . ومرة اخرى قال عبد الناصر : " عندما طلبنا سحب القوات الدولية [نيسان ١٩٦٧] كانت هناك احتجاجات من جانب الاسرائيليين باننا طلبنا سحب قوات البوليس الدولية . لكنهم رفضوا ان يذكروا، او ان الناس نسوا ان يتذكروا ، ان الاسرائيليين هم الذين رفضوا منذ عشر سنوات وجود قوات البوليس الدولي عندهم " وقد ادرك عبد الناصر بعد تجربة حرب حزيران ان المسألة لا تتعلق بانواع الحدود وانواع الضمانات ، بل فيما اذا كانت دولة اسرائيل ستقبل بالعيش بدون توسع ام انها سوف تتابع منهجها في التوسع " للوصول الى حل - اضاف عبد الناصر - فانه يجب على الاسرائيليين بالطبع ان يتخلوا عن التوسع ... اما اذا اصروا على التوسع فلن يكون هناك حل "(٢) .

وموجود في تاريخ الحدود " بين الطرفين " أيضا : " لقد حاول الملك عبدالله ملك الاردن السابق وحاولت بعده كثير من الحكومات الاردنية تخفيف التوتر على الحدود بين الاردن واسرائيل حتى لو كان ذلك على حساب اضطهاد اللاجئين الفلسطينيين حيث وضعت القوانين لتجريمهم ... وانشئت دوريات لمنع التسلل وهي تعمل في الليل في الطرق التي يحدث فيها التسلل ، كما انشئت فرق الحراسة الاردنية لحراسة خطوط الهدنة الاسرائيلية الاردنية ... وفي فبراير ١٩٥٢ وقعت حكومة الاردن مع اسرائيل ، تحت اشراف هيئة الرقابة الدولية ، اتفاقية القادة المحليين للتعاون على مقاومة المتسللين ، واتفاقية اخرى في مايو ١٩٥٢ للحفاظ على اتفاقية الهدنة . وقد خرقت اسرائيل الاتفاقيتين ، وقامت القوات الاسرائيلية في سبتمبر من نفس العام بطرد حوالي الف عربي من قبائل الاهالي من اراضيهم الى الاراضي الاردنية ، كما قبض على عدد من الجنود الاسرائيليين وهم يتسللون الى جبل سكوبس . وفي ديسمبر من نفس العام ،

---

(١) الاهرام ١٩٦٩/٣/١

(٢) الاهرام ١٩٦٩/٤/٢٣

وتمت اتفاقية ثالثة من نفس النوع في ٢٦ ديسمبر ١٩٥٢. ولكن لم يأت الثامن من يناير ١٩٥٣ حتى أعلنت الحكومة الاسرائيلية ان اتفاقية القادة المحليين غير مقبولة جملة وتفصيلا . وكانت نتيجة هذه المحاولات من جانب حكومات الاردن ان فازت هذه الدولة بالذات بنصيب الاسد من الاعتداءات الاسرائيلية " . " وفي ١٩٥٤/١١/١١ تقدم الجنرال بيرنز ، كبير المراقبين الدوليين آنذاك ، باقتراح انشاء سياج من الشريط عند المناطق التي كثرت فيها حوادث التسلل التي اثارتها اسرائيل بحدة ، وقبلت مصر الاقتراح ولكن اسرائيل رفضته "(١).

في تاريخ الحدود بين دولة اسرائيل والدول العربية المجاورة يوجد معنى . ومن يستمع الى جولدا مائير قد يسبب له هذا المعنى شيئا من زوغان في البصيرة .

لكن معنى تاريخ الحدود يبقى هو هو وبالتالي هو الاخر ليس معقدا : لاسباب تتعلق باسلوب معيشتهم (الصهيونيين) ولاسباب تتعلق بالتكوين الطبقي للمجتمع الذى يحكمونه ، كان عليهم ان يعملوا على ابقاء الحدود ساخنة من اجل تحركات الحروب الكبرى وان تكون قابلة لانتقال السخونة في اى وقت تظهر فيه على السطح مطالب اجتماعية واقتصادية من الطبقات الفقيرة في المجتمع الاسرائيلي وهي في غالبيتها من اليهود الشرقيين ، باختصار : كانت حكومة اسرائيل بحاجة دائما الى بعض المتسللين بين حين واخر او على الاقل ابقاء باب التسلل مفتوحا من اجل التوظيف السيكولوجي للفكرة (فكرة التسلل) . وكانوا ايضا بحاجة بين حين واخر الى بعض الطلقات او القذائف تلقى عليهم من خلف الحدود او على الاقل الى مجرد افتراض ان اناسا يمكن ان يلقوا عليهم بعض القذائف في اى وقت . وعلى اى حال لم تعد مثل هذه المسائل سرا ، فقد كان من حججهم الرئيسية لغزو لبنان في حزيران ١٩٨٢ ادعاؤهم انهم

---

(١) - الطليعة - عدد ١٢ - المصدر السابق - ص ٣٦ - ٤٠

يريدون ابعاد القذائف " الكاتيوشا " بعيدا عن "كريات شمونة " اطلقوا على العملية اسم " سلامة الجليل" بينما جميع الناس يعلمون الان انه كان لديهم خطط استراتيجية بعيدة المدى عندما خرجوا لغزو لبنان ولم تكن قذائف الكاتيوشا سوى مبرر لا اكثر .(١)

ان اسلاك شائكة بين اللاجئ الفلسطيني في غزة وبين المستوطن الاسرائيلي في مواجهته على الحدود ، سوف تجعل هذا اليهودى الاسرائيلي ينام مطمئنا، واذا شعر بالطمأنية على حياته سوف يتذكر انه مظلوم لاسباب اخرى غير وجود "الاعداء" على الجانب الاخر من خط الحدود .. وهكذا .

وهذه الحقيقة (رغبة السلطات في فكرة التسلل) سجلتها بكل ما تحمله من دلالة هيلدا شبان صايغ في كتابها القيم عن التمييز العنصرى ضد اليهود الشرقيين في اسرائيل عندما روت حادثة تتعلق بتوطين مجموعة من اليهود العرب في مناطق نائية في النقب . والحادثة ان دفعة من اليهود المغاربة كان الدعاة قد صوروا لهم "جنة عدن" واتوا بهم الى فلسطين ، ومن الباخرة نقلوا مباشرة بسيارات شاحنة الى صحراء النقب . وقد ادرك هؤلاء انهم خدعوا . " كان المكان قفرا في النقب لا شيء الا البرية والرمال والصخور وحيث لم يسمعوا الا اصوات بنات آوى في البعيد . فذهل هؤلاء ورفضوا ان يتركوا الشاحنات او ينزلوا منها . وطلبوا ان يؤخذوا الى مكان غير ذلك المكان المقفر . وقد عمل المسؤولون جهدهم لاقناعهم بالنزول الا انهم اصروا على الرفض وبقوا في الشاحنات الى ان خطر لاحد الموظفين خاطر ان يطلق عيارات نارية في الفضاء المظلم . وقيل للمهاجرين ان ذلك كان انذارا بهجوم من العرب فاضطر المهاجرون ان ينزلوا الى الاكواخ التي كانت معدة لهم ليختبئوا من الرصاص وهكذا بقوا في المكان الذى فرض عليهم "(٢) ـ

---

(٢) ـ صايغ ، هيلدا شبان ـ التمييز ضد اليهود الشرقيين في اسرائيل ـ مركز الابحاث ـ بيروت ١٩٧١ ص ٩٢ ـ ٩٤

(١) ـ الارض ـ عدد ٢٢ ـ تاريخ ٧/٨/١٩٨٢ ـ ص ٢٨ ـ ٣٠

ان منطقة الجليل الشمالي في اسرائيل مثلا ، هي المنطقة التي ادعت حكومة بيجن انها خرجت للحرب بهدف الدفاع عنها ، انما هي منطقة غير اوروبية . ومن المؤكد ان الناس بسبب الثقافة السياسية السائدة يجهلون ذلك او غالبية الناس على الاقل . فسكان الجليل في غالبيتهم من اليهود الشرقيين ومن العرب الدروز والمسيحيين . ان ٨٣,١ ٪ من سكان كريات شمونة هم من اليهود الشرقيين . وفي "معلوت" ٩٦,٨٪ وفي "حشور" ٩٤,١٪ يهود شرقيون . وتعاني هذه المنطقة التي تسمى " مناطق تطوير" من الضائقة الاقتصادية واهمال الدولة حيث يعتبر هؤلاء مواطنون من الدرجة الثانية قياسا بالاوروبيين الاشكنازيين ، الحاكمين في اسرائيل . وقد كتبت مجلة الارض" ان نسبة العاطلين عن العمل في الجليل تعادل اربعة اضعاف نسبة البطالة في البلاد ككل . وتشهد مدن كثيرة اغلاق مصانع وتسريح عمال ، مثلما جرى في كريات شمونه .
حيث اغلقت في السنوات الثلاث الماضية ثلاث مصانع " (١) .

لذلك فان السلطات الاسرائيلية عندما كانت دائما تفتعل الاحداث في جنوب لبنان وتبدأ في اطلاق النار وبالاختراقات المتواصلة عبر الحدود كان هدفها ابقاء الجو ملتهبا في هذه المنطقة ، لان ذلك يخفض من حدة المطالب الاجتماعية والسياسية للسكان ويسمح في ذات الوقت لحكومة اسرائيل ان تزيد التوتر لتصل الى الحرب الشاملة عندما تدفعها ضرورتها الداخلية والامبريالية الى ذلك . وهذا ما حصل فعلا عندما خرج الجيش الاسرائيلي لغزو لبنان في حزيران ١٩٨٢ .

كان لدى مائير اسباب اخرى

في ذلك الوقت بالذات ، مطلع عام ١٩٧١ وصاعدا ، كان لدى مائير وحكومتها اسباب اخرى لـ "رفض كل مبادرات السلام العربية " غير رغبتها في الشراء من اسواق القاهرة وغير رغبة حكومتها في التبادل التجارى او "العلاقات الودية" بين اسرائيل " وجيرانها " لانه في الواقع ، وكما كانوا دائما ، لا يوجد لديهم ما يتبادلونه مع "جيرانهم" سوى تبادل النيران

---

(١) ـ مجلة الارض ـ العدد الاول ٢١/٩/١٩٨٣ ـ ص ٢٩

اى وقت مضى كان قد تفاقم عندهم الوضع الاجتماعي وصار ينذر بالخطر .
اى ان السيدة مائير كانت في تصريحاتها الناطقة عن الشراء والتبادل تحاول ان توجه الانظار بعيدا عن برميل البارود الذى كانت تجلس فوقه .
فالوضع الاقتصادى الاسرائيلي كانت قد اعيدت دراسته مجددا بموجب معطيات وارقام تنتهي عند نهاية عام ١٩٧٠ تماما عند ذلك التاريخ " ٤ نيسان ١٩٧١"
عندما ابدت مائير رغبتها بالتسوق من اسواق القاهرة . وقد انجز الدراسة الجديدة الدكتور (عمرو محي الدين) استاذ الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة ونشرت فيما بعد في مجلة السياسة الدولية .
وقد انعكست في هذه الدراسة بشكل واضح اسباب ونتائج حرب حزيران ١٩٦٧ كما كان قد تصورها الدكتور يوسف عبدالله صايغ . كما ظهرت من جديد السلعة الرئيسية التي يصنعها الصهاينة والقابلة للتصدير وهي الجيش الاسرائيلي التي كانت آنذاك تتضخم وتتبلور استعدادا للحرب القادمة حرب ١٩٧٣ . فقد تقاربت ثلاثة ارقام لها دلالة اكيدة عما يمكن للصهيونيين ان يصدروه في المستقبل الى "جيرانهم" . فقد كانت ميزانية الدفاع لعام ١٩٧٠ (١٢٨٦) مليون دولار وهي قريبة تماما من حجم الصادرات لنفس العام (١٣٨٦) مليون دولار وهذا الرقم كان يساوى رقم رأس المال المستورد (هبات امبريالية امريكية وتبرعات) التي بلغت (١٣٢٠) مليون دولار . . .

وتنطلق دراسة الدكتور محي الدين من نفس البدايات . فالارض التي اتيمت عليها اسرائيل تعاني من الندرة في الموارد الطبيعية والمواد الاولية " فمساحة الاراضي الفلسطينية تبلغ حوالي ٨ آلاف ميل مربع نصفها على الاقل صحراء جرداء حيث تندر مصادر الحياة . كذلك تندر الموارد الطبيعية الاخرى . فالبترول لا يكفي سوى ١٠ ٪ من الاحتياجات ، بينما ينعدم وجود الخشب والفحم والحديد ومصادر توليد الطاقة الكهربائية " . " ولقد افتقد الاقتصاد الاسرائيلي ، بجانب كل ذلك ، شرطا هاما واساسيا من شروط النمو السريع الناجح ، الا وهو وجود

الاقتصاد القومي الكبير ، فقد بدأ النمو في اقتصاد صغير ، يمثل فيه ضيق نطاق السوق عقبة كؤود في سبيل تحقيق النمو "٥" وفي عام ١٩٧٠ انتجت اسرائيل ٨٥ ٪ من حاجة سكانها الى الغذاء . وتم تمويل ٥٠ ٪ من الواردات (٢٦٠٦) مليون دولار ، عن طريق الصادرات ، بينما تم تغطيـــة الباقي عن طريق " استيراد رأس المال "(١) من الخارج . اى انه في نفس الوقت الذى توهم فيه الدكتور المظم ان لدى هولاء "الصهيونيين سلعا للتصدير انما كانوا بحاجة الى ١٥ ٪ من طعامهم اليومي والى ٥٠ ٪ من احتياجاتهم الاخرى ، الصناعية والعسكرية ، من العالم الخارجي .

من الهجرة المشتركة للسكان ورأس المال " ولدت القوة الاسرائيلية او تلك المعجزة الاقتصادية المعلنة التي يتحدث عنها اغلب الناس وهم يجهلونها لان خلف هذه العملية يوجد سر صغير والسر يذكرنا مرة اخرى بـ "غرفة الزجاج المدفأة" عند الدكتور صايغ . وسر القوة هذه يسميه الدكتور محي الدين " الامن القومي اليهودى " . انه شيء هائل شبيه بالفرن الحرارى الذى يصهر المعادن المختلفة فيجعلها سبيكة واحدة . " ان هناك عاملا هامـــا واساسيا لا يقل اهمية وفاعلية عن العوامل السابقة (تدفق الاموال والمهاجرين) بل يمكن القول انه كان القوة المحركة لها جميعا . وقد كان لهذا العامل اكبر الاثر في تحديد مجرى ونمط عملية النمو في اسرائيل .. وهذا العامـل هوخلق الشعور والعقيدة والايمان بانه هنا (في اسرائيل) يوجد النضـال النهائي ، هنا تكمن فرصتنا الاخيرة ، فاما الوجود والاستمرار باى ثمـن والا الفناء النهائي . نحن هنا وظهورنا الى البحر وسط محيط عدوانـي يريد الانقضاض علينا دائما .. ومن هنا كانت قضية الامن القومي اليهودى هي المحور الاساسي الذى تدور حوله السياسة الاسرائيلية التي تركـت بصماتها بوضوح على استراتيجية الانماء الاقتصادى " .

---

(١) ــ السياسة الدولية ــ عدد ٣٣ ــ تموز (يوليو) ١٩٧٣ ص ١٦ ــ ١٧

" وبان تنمية الامن القومي ، بوصفها المحور الرئيسي للسياسة الاسرائيلية في مجالاتها المختلفة ، ثم بذلك خلق الظروف الدافعة لهجرة كل من رأس المال والقوى البشرية " . اى ان الخطر او بالاحرى انعكاس الخطر على المجتمع اليهودى في فلسطين ، كما كان قد اكد الدكتور سايغ ، هو الذي يستدرج المكاسب الصهيونية من الخارج : المال والمهاجرين .

ولم يبدأ تشغيل هذا الفرن الحالي (الامن القومي) بعد انشاء الدولة بل انه قد بدأ عمله منذ تأسيس المستوطنة في فلسطين. " ومن الخطأ الاعتقاد ان تنمية الامن القومي طرحت لاول مرة عند اعلان قيام الدولة ، ذلك ان مشكلة الامن القومي اليهودى كانت مطروحة ، بصفة دائمة ، منذ اتخاذ قرار اعلان انشاء الوطن القومي اليهودى على الاراضي الفلسطينية .

وكلما انخفضت درجة الحرارة قليلا يبدأ جدار الفرن الداخلي بالتشقق . وكلما ارتفعت يعود من جديد فيلتحم " والمتتبع لعملية الانماء في اسرائيل يلاحظ انه في السنوات التي بدأ الاعتقاد العالمي بخطورة الامن القومي الاسرائيلي يتراخى، وبدأ الشعور العام بعدم جديته يسود ، توقفت تماما عملية الانماء في اسرائيل . اذ بدأت الهجرة تتباطأ منذ سنة ١٩٦٥ وتوقفت تماما سنة ١٩٦٦ وتراخى معدل الزيادة في انسياب رأس المال الاجنبي . وقد ترتب على ذلك انتكاس الاتجاه التوسعي الذى الذى ساد السنوات السابقة الى اتجاه انكماش ، بحيث وصل معدل نمو الناتج القومي الاجمالي سنة ١٩٦٦ : ١ في المائة . ولقد كان اعادة طرح تنمية الامن القومي بشكل بارز منذ النصف الثاني لسنة ١٩٦٧، من العوامل الاساسية التي ادت الى انعكاس الاتجاه العام للهجرة . اذ منذ ذلك التاريخ ، ارتفع معدل الهجرة الى اسرائيل بالمقارنة بالسنوات السابقة على سنة ١٩٦٧ . كما انسابت الى اسرائيل خلال سنة ١٩٦٧ رؤوس اموال من الخارج بمستوى لم تعرفه من قبل ، اذ بلغت في ذلك العام ٧٧٥ مليون دولار (هذا المبلغ يساوى في قيمته الشرائية اليوم مبلغ سبعة الاف مليون دولار تقريبا) .

وظهرت في دراسة الدكتور محي الدين بشكل بارز العلاقة بين الوضع الاجتماعي في اسرائيل وحالات الحرب والتوتر بين اسرائيل والدول العربية بالصورة السابقة الاشارة اليها ،

" ولقد ساعد على قضية الامن القومي ، على تحقيق عامل هام ، وهو ضمان حد ادنى من التماسك الاجتماعي والسياسي بين الفئات الاجتماعية المختلفة التي يتكون منها المجتمع الاسرائيلي . فالتناقضات المختلفة داخل المجتمع الاسرائيلي ، لن تطفو على السطح ، ولن تتفاقم حدتها ، بل سوف تظل كامنة ما دام قد ساد الشعور العام بان الامن القومي الاسرائيلي في خطر دائم "(١) . ففي العام ١٩٧٠ كانت نسبة اليهود الشرقيين قد بلغت ٥٠ ٪ من عدد اليهود في اسرائيل . ولكن مكان هؤلاء في السلم الاجتماعي - الاقتصادي والسياسي ، كان يشكل قنبلة موقوتة . " اما اليهود من اسيا وافريقيا كان متوسط الدخل السائد بينهم بصورة عامة ، ينخفض عن متوسط الدخل السائد في اسرائيل بحوالي ٣٠ ٪ ، بينما متوسط الدخل الفردى السائد للمهاجرين من اسيا وافريقيا بعد سنة ١٩٥٥ ينخفض بحوالي ٥٢ ٪ عن متوسط الدخل في اسرائيل "(٢) . وكان لهم وزير واحد في الحكومة (وزير البوليس) . وكان نسبة تمثيلهم في الكنيست ١٦ ٪ من عدد النواب" ومن الوظائف العليا في الدولة كان لهم ٣ ٪ فقط . اما شأنهم في المراتب العليا في الجيش وفي القيادة العامة فكان اسوأ من ذلك حتى انه لم يكن لهم اى ضابط في الاركان العامة . اى انهم بشكل عام كانوا عناصر شغل في المهن المنحطة في النطاق المدني ووقود حرب ابان مراحل الحروب . هذا الوضع الطبقي والعنصري الكامن بدأ بالتفجر والظهور على السطح بعد سلسلة من الحوادث ومنها ما هو طارئ ، مما جعل الحدود الساخنة بين الدول العربية واسرائيل تبرد قليلا . فمن المعلوم ان عبد الناصر كان قد اوقف اطلاق النار على جبهة

---

(١) - المصدر السابق - ص ٣٠ - ٣١

(٢) - المصدر نفسه - ص ٣٢

القناة في تموز ١٩٧٠ بعد موافقة على مبادرة روجرز . وفي الجبهة الشرقية خرجت المقاومة الفلسطينية من الاردن بعد الحرب الاهلية في ايلول ١٩٧٠ . وبعد وفاة عبد الناصر شرعت الحكومة المصرية بعده تفتش ليس عن حل سلمي معين بل عن اى حل سلمي مهما كان نوعه . وهكذا لم يأت منتصف عام ١٩٧١ حتى ظهر وكأن الافق لا يوجد به محاربون او على الاقل محاربون مستعجلون . ولذلك بدأت تلك القوى الاجتماعية المظلومة في اسرائيل تطالب بالمساواة مع الاوروبيين البيض .

" وليس علينا ان نذهب بعيدا " . في الحقيقة لا لزوم . لكن فقط ليس خلف جولدا مائير . فالاسباب التي جعلت جولدا مائير ترفض جميع مبادرات السلام العربية والاجنبية وجميع الضمانات الدولية كانت - الاسباب - قريبة من انف كل انسان ما عدا انف الايديولوجيا السائدة . وكان الباحث (عبد الحفيظ محارب) قد سجل تلك الاسباب في حينها في مقال له في مجلة شؤون فلسطينية ، فكتب : " ان هذه الانتفاضات تقترن دائما مع الهدوء الامني على امتداد الحدود الاسرائيلية " . " ولعل الخطورة هنا تكمن في ادراك السلطات الاسرائيلية بان تغطية المشاكل الاجتماعية او تسكينها لفترة من الزمن يكمن في ازدياد حدة التوتر على الحدود مع الدول العربية اكثر من امكانية حلها من الداخل .. والمسكن الاقوى لهذه المشكلة كما بدا حتى الان هو تسخين جبهاتها مع الدول العربية " . " ان الحكومة (اسرائيل) تنبأت بان المشاكل الاجتماعية ستطفو على السطح مع الهدوء في الجبهة ، ولذلك عملت لتقليص الفقر ، وزيادة ميزانية الشؤون الاجتماعية " . وقد غضب وزير الداخلية (يوسف بورغ) متهما العناصر التي كانت تقود المظاهرات المطلبية بانهم يستغلون وقف اطلاق النار او يعتبرون وقف اطلاق النار بمثابة ضوء اخضر للشروع بالمطالب .

ان وقف اطلاق النار - قال بورن - ليس سوى اخفاء لحروب اجتماعية وثقافية ودينية " . اما الفنان من اصل مغربي (ادى ملكا) وهو يترأس مجموعة اطلقت على نفسها اسم "اسرائيل الثانية " ، فقد اعلن " اننا سنناضل من اجل تصفية التمييز الطائفي في اسرائيل مع كل النتائج المتمخضة عنه ، واعادة الشرف المسلوب لاولئك المتميزين على اساس طائفي " . " ففي ١٩٧١/٤/١٨ احتفلت الجالية المغربية في اسرائيل بيوم الميمونة وهو عيد خاص بابناء الجالية . وحضر الاحتفال جمهور كبير يقدر بين ٣٠ - ٤٠ الف شخص ، وكان على رأس الحضور رئيسة الوزراء غولدا مائير ورئيس الدولة زالمان شازار . وهذه هي المرة الاولى التي تشارك فيها رئيسة الوزراء والمسؤولون الاسرائيليون احتفال ابناء الجالية المغربية بعيدهم الخاص ، ولعل هذه المشاركة قد جاءت بفضل بروز حركة الفهود السود . وفيما كان الخطباء الرسميون يتوافدون على المنصة لالقاء خطب ، كانت مجموعات من الشبان والجماهير الفقيرة التي خرجت من وسطها حركة الفهود السود ، تتقدم انصار الحركة الوليدة نحو المنصة ليسمعوا كلمتهم ، الا ان قوات الامن التي اتخذت تدابير امن احتياطية شديدة حالت دون وصولهم الى المنصة ، والقت القبض على قادة التنظيم الجديد واودعتهم سجن المسكوبية ، الامر الذى دفع الفهود السود وانصارهم للتوجه فورا الى السجن لاقتحامه بغرض اطلاق سراح زعمائهم ، وقد حدثت هناك اشتباكات مع قوات الامن وخاصة قوات الفرسان اسفرت عن اصابة حوالي ٢٠ شخصا من اعضاء الحركة من بينهم ام مرتسيانو (والدة زعيم الفهود السود ، وهي مغربية) واصابة خمسة شرطيين " .

" اما المظاهرة الاخرى والاقوى والتي لم تشهد المدينة لها مثيلا فقد وقعت في ١٩٧١/٥/١٨ عندما انطلقت مظاهرة الفهود السود من حي بن يهودا وسارت في شوارع يافا حتى ميدان صهيون الذى كان المتظاهرون يعتزمون تغيير اسمه الى " ميدان الطوائف الشرقية " . وعند وصول

المتظاهرين الى هذا الميدان نشب اشتباك مع قوات الامن التي اخذت تطلب نجدات من مدينة تل ابيب . وكان المتظاهرون يهتفون "نازيون ، نازيون " و " دولة شرطة " اننا ، تصديهم لهذه القوات ، وقد استغرقت الاشتباكات حوالي سبع ساعات ، استخدم المتظاهرون فيها لاول مرة زجاجات قنابل مولوتوف واسفرت هذه الاشتباكات عن وقوع عشرات الجرحى ، فضلا عن الخسائر المادية "(١) .

" اننا نريد ان يعرفوابان‍نا هنا ، وان يدركوا بان شيئا ما سيحدث.. يوجد في الدولة فئتان من الناس ، فئة عليا ، وفئة سفلى. كفى ! اذا سكت آباؤنا طيلة الوقت فاننا لن نسكت " . " يعرضون علينا أن نعمل كحمالين وكفراشين وفي كل مكان نفتش فيه عن عمل نشعر باننا فئة اخرى من الناس" ويقول زعيم الفهود السود ، سعاديا مرتسيانو " اذا كان الامر يتطلب الدق على المائدة بمليون قبضة ، فانه ينبغي قبل كل شيء تجميع وتوحيد المليون" . " كفى ، لا يوجد لدينا ما نخسره ، يريدون تحويلنا الى عبيد ، توجد في هذه البلاد فئة عليا تتحكم فينا باسم دولة اليهود"(١)" . " وعدونا في المغرب باننا نخرج للحرية ولكن اتضح انهم دفعونا الى العبودية "(٢) . اما والدة زعيم الفهود ، فكانت اول من اطلق صرخة " نقاتل من اجل من ؟ " . قالت : " يوجد لدى في الجيش ثلاثة ابناء ، الاول مظلي ، والاخران في سلاح الدروع . لماذا يذهبون ويقدمون دماءهم ؟ ومن اجل من ؟ من اجل ان نعيش في المصرارة (حي المناربة في القدس) كالكلاب ١٤ شخصا في غرفة ونصف ؟ من اجل ان تأتي الشرطة كل ليلة لتوقظ ابنائي من السرير وتودعه السجن وتضربه ضربا مبرحا "(٣) .

---

(١) – ش – ف – عدد ٤ – ايلول (سبتمبر) ١٩٧١ ص ١٤٤ – ١٤٥ – ١٤٦ – ١٤٧

(٢) – المصدر نفسه – ص ١٤٨

(٣) – " – " – ص ١٥٥

فئة السلطة الصهيونية الحاكمة وعلى رأسهم غولدا مائير لم يكن لديهم
" في ٤ نيسان ١٩٧١" ، وقبله وبعده ما يتسوقونه عموما ، شراء وبيعا
غير الحرب . بل لقد كانوا خصوصا في ذلك الزمن الحرج مرعوبين من
ان يتأخر زمن الحرب او تحدث مفاجآت دولية تمنعهم عن الحرب ، وذلك
بسبب ما كان يجرى تحت الحائط الذى يركبون فوقه . ولهذه الاسباب
بالضبط قاموا آنئذ ، بصفاقة ووقاحة لا مثيل لهما باغلاق جميع ابواب
السلام ولم يتركوا الوضع مفتوحا الا على الحل الوحيد : الحرب .
اما وان "رئيسة وزراء العدو" قد قالت في حينه انها ترفض جميع
مقترحات السلام ولا تقبل البتة باى سلام الا بحسب مزاجها الشخصي في ان
تذهب "في اى وقت الى اسواق القاهرة" ، فان ذلك عائد على ما يظهر
الى ان دائرة الدعاية الموجهة ، وهي دائرة تستهين بالعرب على اى
حال ، قد رأت انه من الافضل ان تقال فكرة غاية في السخافة من اجل
التضليل على وضع غاية في الخطورة . اما وان الدكتور العظم قد حاول
ان يستنتج من اقوال غولدا مائير مواقف سياسية ، نضالية أو معادية
للامبريالية ، فذلك عائد بالطبع الى مأساوية الوضع العربي برمته * .

* - ومن الغريب ان الدكتور العظم تدخل في ذلك الوقت الحرج عندما
كان الوضع الداخلي في اسرائيل متفاقما فعلا ، فكتب : " ينبغي الا
نبالغ في مسألة الشقاق بين اليهود الشرقيين والغربيين في اسرائيل .
اذ مع ان الشرائح العمالية الاكثر اضطهادا في اسرائيل تتألف من
مهاجرين اتوا من افريقيا واسيا الا ان الكثيرين من هؤلاء قد صنعوا
فعلا اوضاعهم المعاشية بعد مجيئهم الى اسرائيل حيث اصبحوا بروليتاريين
ضمن اطار مجتمع رأسمالي حديث . لذلك نجد ان تذمرهم الحالي ليس
نابعا من وضعهم البروليتارى بل من كونهم شرقيين ... بعبارة اخرى
ان رد الفعل السياسي العام لهذه الفئات المسحوقة هو التضامن
مع اكثر الاحزاب والعناصر شوفينية وعنصرية في المؤسسة الحاكمة "
(ق . ف العدد ٤ - ص ٨٨

ثم جاء وقت التسويق

عندما جاء عام ١٩٧٩ انفجر ذلك البالون الايديولوجي عن اسرائيل الصناعية "والجبار الصناعي المحلي" وحاجتها الى اسواق العرب مثلما تنفجر فقاعة الصابون . فعام ١٩٧٩ كما هو غير معلوم ، باعتبار وثائق كهذه يجري دفنها خارج الساحة حتى لا يراها احد، هو بالنسبة للعلاقة بين مصر واسرائيل كان تقريبا عام دراسة امكانية السوق والتبادل التجارى بين البلدين . وبالفعل ذهبت وفود وجاءت وفود ، ودرس اقتصاديون ومسؤولون من الدوائر ذات العلاقة امكانية التبادل وكانت النتيجة بالطبع مخيبة للامال . كتب دارسون في "مجلة الارض" للدراسات الفلسطينية وهم يلخصون تلك الوثائق التي نشرت في حينه في اجهزة الاعلام الاسرائيلية "ان هناك شبه اجماع على انه من غير المتوقع قيام تبادل تجارى على نطاق واسع بينهما (مصر واسرائيل) بسبب اختلاف النظام الاقتصادى لكلا البلدين " ." يقول معلق "معريف" الاقتصادى انه من المستبعد انتظار الشيء الكثير في مجال التبادل التجارى مع مصر .. هناك الفارق الكبير بين متوسط الدخل الفردى في اسرائيل والذى يبلغ ٣٥٠٠ دولار سنويا ، ومتوسط الدخل الفردى السنوى في مصر الذى يتراوح بين ٤٠٠ — ٥٠٠ دولار فقط" وهذا يعني ان " قوة شراء المنتوجات الاستهلاكية غير الاساسية محدودة " في السوق المصرية . مثل فرع الماس الذى ينتج في اسرائيل سنويا " ما يعادل مليار دولار " . ولهذا فمن غير المتوقع ان "تتجاوز قيمة الصادرات الصناعية الاسرائيلية الى مصر مبلغ ٤٠ مليون دولار". كما ان احتمال لتصدير منتوجات زراعية الى مصر ضئيل جدا ، لان المصريين يصدرون معظم المنتوجات الزراعية التي تستطيع اسرائيل تصديرها الى اسواقهم ولا يتوقع الاسرائيليون ان تتجاوز امكانات الاستيراد من مصر ٢٠ — ٢٥ مليون دولار في السنة ، حيث يمكن لاسرائيل ان تستورد الاقمشة القطنية والصوف الخام والبطاطا والبصل " .

وكان اهم ما ورد في دراسة مجلة الارض تلك الحقائق البسيطة التي يعرفها ليس كل اقتصادى بل كل من يعرف معنى كلمة السوق وسلعة وتبادل بين الدول . وهي ان اول ما يخلص اذا تم الخلط بين اى سوق عربي ، وخاصة "سوق عشرات الملايين" مثل السوق المصرى" وبين السوق الاسرائيلية انما هو السوق الاسرائيلية المصانعة ." لكنهم (المسؤولون الاسرائيليون) يحذرون من خطر دخول منتوجات مصرية معينة الى اسرائيل واغراق سوقها ببضائع ذات اسعار منخفضة " . وقد اقترح هؤلاء المسؤولون انه "تأجراء وقائي لا بد في المستقبل من تطبيق القوانين والانظمة المرعية بهذا الشأن" . اى منع هذه السلع المصرية من دخول السوق الاسرائيلية الا بعد تضخيم سعرها عدة مرات بواسطة الحواجز (التسعيرة) الجمركية .

"رئيس اتحاد ارباب الصناعة الاسرائيلي ابراهام شبيط .. اعرب عن تشاؤمه بالنسبة لما يتعلق بالتطورات في العلاقات الاقتصادية خلال الفترة القادمة". اما بالنسبة لاستثمار رؤوس الاموال فقد كان التنبؤ أشنع . لان اسرائيل نفسها ، اى في سوقها الداخلية ، فلسة فكيف يمكن ان تصدر رؤوس اموال للاستثمار ؟ " لن تستطيع اسرائيل في ظل الوضع الاقتصادى الراهن ان تجرى استثمارات هامة في مصر ، نظرا لحاجتها الماسة في نفسها لهذه الاموال لتغطية المبلغ المكشوف من العجز المتوقع في ميزان المدفوعات الاسرائيلي والذى سيبلغ عام ١٩٨٢ حوالي ٦ مليارات دولار" . وفي نهاية المطاف ، وبعد ان ضرب"الخبيزة" الاسرائيليون اخماسهم باسداسهم تبين لهم ان العلاقة الاقتصادية مع مصر سوف تزيد من مشاكلهم الاقتصادية وتزيد من العجز في تجارتهم الخارجية وذلك بسبب استيراد البترول من مصر . قالت الدراسة : " ان العجز التجارى المتوقع والبالغ حوالي ٣٥٠ مليون دولار لصالح مصر بسبب استيراد النفط ، سيزيد من مشاكل ميزان المدفوعات الاسرائيلي" (١) .

---

(١) - مجلة الارض - عدد ٨ - تاريخ ١٩٨٠/١/٧ - ص ٢٨ - ٢٩ - ٣٠

لقد اراد الصهاينة ، زراحي وماثير من تصريحاتهما عن الرغبة في التبادل التجارى ان تكون بالونات ملونة بهدف ابعاد انظار الناس عن نواياهم الحقيقية . واكبر دليل على ذلك هو المضمون المزيف وغير الواقعي لتلك الافكار . والمشكلة مع الدكتور الحالم انه دائما يحلف الايمان ويؤكد دون ان يتطرق الى اية وقائع اقتصادية لدعم آرائه . فهو يقسم " ان اسرائيل بتركيبها الحالي معدة كل الاعداد ومؤهلة كل التأهيل لدخول مرحلة الاستعمار الجديد في منطقتنا وممارسة دور الدولة العظمى بكل ما يعنيه ذلك من سياسة امبريالية وممارسة نفوذ "(١)

ويؤكد ان اسرائيل سوف تصبح "اكبر دولة صناعية في الشرق الاوسط ومن كبريات الدول الرأسمالية الصناعية" . وان العرب نتيجة لذلك سوف يعملون كمصنع مأكول: " وبذلك تكون العلاقة بين العرب المتخلفين وبين الجبار الصناعي المحلي ، شبيهة بالعلاقة القائمة بين الولايات المتحدة الامريكية من ناحية وشعوب امريكا اللاتينية ودولها المتخلفة من ناحية اخرى "(٢). والحقيقة ان قصصا خرافية كهذه هي امر مستغرب تماما . انها كمن يقول ان فأرا سوف يشرب البحر المتوسط ولن يترك في قاعه الا اجساد الحيوانات الميتة وهياكل السفن المحطمة . وهو يطلب من الناس ان يصدقوا مثل هذه الخرافة لمجرد انه يراها في اوهامه .

فاسرائيل هذه ، المؤهلة حسب تصوراته كل التأهيل "لدخول مرحلة الاستعمار الجديد" اى السيطرة على الاسواق بواسطة تصدير رأس المال والصناعة ، وممارسة دور " الدولة العظمى " بكل ما يعنيه ذلك " من سياسة امبريالية وممارسة نفوذ" يعني ان تصبح عن اية دولة تنصب عليها القروض من المصارف العالمية او مادة الحديد او علف الدواجن مثلا ، هذه الدولة الامبريالية المزعومة اسرائيل ، كانت صادراتها

---

(١) - ش . ف - عدد ٤ - المصدر السابق - ص ٨٤
(٢) - ش . ف - عدد ٤ - ص ٨١

الصناعية سنة ١٩٨٠ تعادل ٥٥٩٥ مليون دولار منها ٣٣ ٪ من الماس المصقول . ونصف قيمتها في الاصل مادة مستوردة اولية أو نصف مصنعة ، والمبلغ المشتراة به في الاصل هو هدية من الخزينة الامريكية بسبب الخدمات التي تقدمها دولة اسرائيل . وكانت قد استوردت لنفس العام سلعا صناعية بمبلغ ٨٠٢٤ مليون دولار وقد قامت ايضا الخزينة الامريكية بتسديد الفارق (العجز) الذى زاد عن ثلاثة الاف مليون دولار .

اما بالنسبة "للعرب المتخلفين" المحكوم عليهم بالدوران في فلك "الجبار الصناعي" المزعوم ، فقد صدرت دولهم في عام ١٩٨٠ من المواد المنجمية الخام (بترول وغاز وفوسفات) ما قيمته ٢٠٥ مليارات دولار واستوردت من السلع الصناعية ما قيمته ٩٧ مليار دولار ومن المواد الغذائية ما قيمته ٢٠ مليار دولار . اما المبالغ التي نجمت عن مبادلة هذه الدول فقد اودعت في خزائن البلدان الصناعية للمستقبل، وعلى سبيل المثال استوردت الدول العربية من صنف السيارات في ذلك العام بما يساوي نصف صادرات اسرائيل الصناعية اى بحوالي ٨ مليارات دولار .

اما اذا قيست اسرائيل بالدول الصناعية الامبريالية فان امرها عنا من قبيل التفكه ؛ فقد كان الناتج القومي الاجمالي في اسرائيل عن عام ١٩٨٠ يعادل ٢٠ مليار دولار وميزانيتها العامة بحدود ١٥ مليار دولار . ومثل هذه الحجوم هي اقل بخمس او ست مرات من حجم العمليات المالية لبعض المؤسسات الامبريالية . وعلى سبيل المثال فان بنك الاعتماد الزراعي في فرنسا يعمل بميزانية سنوية تقدر بـ (١٠٧) مليارات دولار . ومؤسسة سيتيكورب الامريكية تصل ميزانيتها السنوية الى (١٠٩) مليارات دولار .[1]

ان الفكرة التي تقول ان اسرائيل سوف تتحول الى "جبار صناعي محلي" وان "العرب المتخلفين" سوف يدورون في فلكها تماما كما هي الحال

---

(١) - دراسات عربية - عدد ٩ - تموز (يوليو) ١٩٨٣ - ص ٤٨ - ٥٣

في العلاقة بين امريكا الامبريالية وشعوب امريكا اللاتينية ، هي فكرة بالغة الضرر وان بدت من الناحية الاقتصادية سخيفة لا تستحق عناء الكلام ، والضرر ، انها تسد في وجه العرب الافق الذي يمكن ان يقرأوا فيه اهم الاسباب التاريخية التي ادت الى تشتتهم وبالتالي دمارهم الراهن . لان تلك الاسباب تعود بالدرجة الاولى الى سوتهم الواسعة نسبيا (١٥٠ مليون نسمة حاليا) والى الثروات الهائلة والحيوية للاقتصاد العالمي المختزنة تحت ارضهم ، وعلى رأسها البترول عصب الصناعة وعصب السياسة العالمية .

فمن المعروف ان العرب كانوا مثل بقية الامم والشعوب الاخرى في اسيا وافريقيا خاضعين للقوى الاستعمارية الاوروبية ذاتها . وعلى اثر انتهاء الحرب العالمية الثانية وظهور القوتين الاعظم ، امريكا وروسيا ، فان علاقات القوى الدولية الجديدة قد سمحت لجميع الامم الاخرى ان تبني دولها القومية الواحدة على اساس اللغة او الدين ، واحيانا غير قليلة سمحت تلك العلاقات ببناء دول مؤلفة من عدة قوميات ولغات واديان . ولا لزوم لسرد الامثلة لان هذه مسائل راهنة ومعروفة . باستثناء العرب الذين تم تجزئتهم في البداية الى ١٣ دولة وفور تطور المكتشفات البترولية وغلاء اسعار النفط تم تقسيمهم من جديد الى عشرين دولة . والمسألة هنا في غاية البساطة فلو سمح للعرب منذ اربعين سنة بتكوين دولة قومية واحدة بين المحيط والخليج توظف ثروتها في الصناعة والزراعة والثقافة " اي من اجل ازدهار حياتها كما تفعل جميع الامم ، فان جميع المكاسب التي تتمتع بها الدول الصناعية الكبرى في العالم كما نراها اليوم كان سيطرأ عليها تعديل هائل ، و " على الاقل فان تأثير العرب ربما يكون اليوم في مثل هذا الافتراض اكبر من تأثير بريطانيا او فرنسا في الاقتصاد الدولي او السياسة الدولية .وما علينا الا ان نغمض اعيننا على حلم

ونتصور مثلا توظيف مبلغ ٢٠٥ مليارات دولار في عمل قومي وفي سوق قومية تبلغ ١٥٠ مليون من البشر لكي ندرك مرمى السياسات الدولية تاريخيا تجاه الامة العربية بالذات .

فالقوى الدولية ذات السطوة والسيطرة كانت تقدر دائما ان السماح للعرب بتكوين دولة قومية واحدة قوية والفهم التاريخي يعادل في وقعه الكارثي نفس المصيبة فيما لو انفردت احدى تلك الدول الكبرى بالسيطرة على الوطن العربي واحتكرت امتيازاته لمصالحها وحدها . ولهذا كان هناك على طول الخط تقريبا ما يمكن تسميته (اتفاق جنتلمان) بين جميع القوى الدولية على الا تنفرد اية منها بالسيطرة على هذه المنطقة من العالم تحت تهديد اتفاق جميع الدول الاخرى ضدها ، وان لا يسمح في نفس الوقت لابنائها (العرب) بان يكون لهم دولة واحدة وارادة سياسية موحدة ومستقلة . ومنذ البداية ولدت الفكرة الصهيونية ثم الحركة ، ثم تحققت الدولة الصهيونية ، من اجل اهداف مفهومة تماما وكان في مقدمتها فصل الامة العربية الواحدة فصلا طبيعيا ، جغرافيا وبشريا ، الى جزئين او شقين . وليس عبثا ان الفكرة الصهيونية قد ولدت بشكل جدي في الدوائر الاوروبية الاستعمارية ، البريطانية خاصة ، عندما كانت جيوش محمد علي تهدد الامبراطورية العثمانية وتعطي الدلائل على النية في تشكيل دولة قومية للعرب . ومعلوم ان فرنسا التي كانت في البدء تدعم حركة محمد علي ، عادت فتحالفت مع القوى الاوروبية الاخرى ضد فكرة ضم اسيا العربية ومصر في دولة واحدة لانها - فرنسا - اقتنعت في النهاية ان المنطقة اذا بقيت (مشاعة دولية) افضل من ان تنفرد فيها اية دولة اخرى بما في ذلك دولة لابنائها بالذات . وفكرة بقاء الوطن العربي للاستثمار الدولي كمشاعة دولية ، هي التي يمكن ان تضيف توضيحا جديدا لحقيقة ان الدول الاوروبية ، المتناقضة المصالح في الشرق الى حد الحرب ، كانت جميعها تقريبا تدعم النشاط الصهيوني على قدم المساواة .

بالنسبة للقوى العالمي ، رأسمالية او شيوعية ، يمكن ان تلعب بالعواطف على الصعيد الايديولوجي فقط ، اما على القاعدة الاقتصادية فهي تتابع مصالحها بثبات واستمرار بعيدا تماما عن جميع صور العواطف . وهذه القوى لا تقف ضد وحدة العرب بسبب اصلهم وفصلهم وانما بسبب موقعهم الواسعة وبسبب الثروة الموجودة في ارضهم . فالعالم مليء بالصناعة كما يقال . وبمجرد ان يتوفر المال والسوق المناسبة تنبت الصناعة مثل نبات الفطر . والصناعة الوطنية تزيح الصناعة الاجنبية .. وهكذا ومن هنا جاءت مكافحة القوى الصناعية الكبرى ، في الغرب والشرق ، لوحدة الامة العربية .

وبالنسبة للعرب كانت عملية التحطيم مستحيلة بدون تجزئة السوق . فالعدو رقم واحد للاستثمار الصناعي هو ضيق السوق . ولقد تصرفت القوى الاستعمارية بالحكمة المناسبة لمصالحها ، وبشكل عام حيث تفجر بئر للنفط له قيمة تجارية محسوسة اقيمت فوقه على الفور دولة لها علم ونشيد وايديولوجيا[1] وعضوية في جامعة الدول العربية والامم المتحدة .. الخ . ولكن تحت هذه الظواهر الحقوقية والدبلوماسية والايديولوجية يوجد الامر الاساسي : سياج جمركي وامني حول البئر او القطر يمنع الدخول والخروج لاي منتج محلي الا ما ندر وبشق النفس وحسب المعادلات وكانت هذه المقدمات منظورة تماما من قبل اصحاب الرؤية القومية :

" انه لتحد للوقائع الاكثر بداهة - قال لطف الله سليمان - ان نتصور - مجرد تصور - اقامة صناعة بتروكيماوية مثلا في الجزائر او العراق او المملكة العربية السعودية . فكيف بالكويت او قطر او البحرين او ابو ظبي "[2] . وقد جاء الواقع مصدقا لهذا المنطق : فحتى عام ١٩٨٣ لم يستطع اي قطر عربي ان يؤسس اية صناعة بما في ذلك صناعة الدبابيس " فعلى سبيل المثال - قال الدكتور عبدالوهاب رشيد - اظهرت الاحصاءات الدولية واردات بمبلغ (٣٤،٣) مليون دولار عام ١٩٧٩ من فقرة الدبابيس والشفرات في الجزائر ، فيما جاءت واردات السعودية منها (٤٦،٠) مليون

---

(١) دراسات عربية - عدد ٨ - حزيران (يونيو) ١٩٦٨ - ص ١٢٨

(٢) المصدر نفسه - ص ٥

دولار عام ١٩٨٠ "(١) .

اذن استنادا الى فكرة الدكتور العظم عن " الجبار الصناعي المحلي" مطلوب منا ان نؤمن انه منذ غزو نابليون بونابرت لمصر عند مطلع القرن التاسع عشر ، وتلاحن الدول الاوروبية على الممرات التجارية ، وقناة السويس ، ومنابع البترول ، والحربين العالميتين ، والتحالف المؤقت بين الامريكيين والروس لطرد الانكليز والفرنسيين بعد الحرب العالمية الثانية من الوطن العربي ، وما نراه اليوم حيث تضع هذه القوى كلها دفعة واحدة جميع اساطيلها تقريبا قبالة شواطىء هذا الوطن في البحر الابيض المتوسط ، اقصد ان الدكتور العظم يطلب منا ان نؤمن ان كل هذه الدراما التاريخية من صراعات المصالح عبر ما يقارب قرنين من الزمن لم تكن الا من اجل عيون اسرائيل ، فهذا الوطن عليه بطريقة خرافية او بعون من "العهد القديم " ربما ، ان يدور بمئة وخمسين مليونا من البشر وفيهم اكثر من نصف انتاج العالم من النفط والغاز والتوصيفات حول ما يسمى " الجبار الصناعي" وهو الجبار الصناعي ، دولة من ثلاثة ملايين نفس عند ما مليون شغيل يعمل منهم ثلاث مائة الف فيما يسمى صناعة وهي صناعة خفيفة تحويلية وصناعة تدلع غيار لاسلحة الجيش وهي فروع للشركات الامريكية وما تبقى يعملون في الخدمات ويعيشون مما تدر به % عليهم الخزانة الامريكية وجيوب يهود العالم سنويا .

انه تصور خرافي وربما لم يتصور زراعي او مائير ان الامر سوف يتطور الى مثل هذا الوضع المستند في الايديولوجيات على الجانب الاخر من خط المواجهة .

"١) دراسات عربية - عدد ٩ - المصدر السابق - ص ٥٣

اما بالنسبة للعرب فالامر خطير مرتين ، مرة لانه يحجب عنهم رؤية اهم الاسباب الاستعمارية التي اوصلتهم الى وضعهم المأساوي الراهن . ومرة ثانية لانه يعتم على الاسباب الحقيقية لحروب الدائم التي ما زالت تتعاقب على حكم دولة اسرائيل حتى اليوم . فهو يقول ان هذه الدائم تعمل من اجل التجارة وليس من اجل الحرب . بينما هي تخرج من حرب لكي تعد لحرب اخرى وكلما وقعت في مأزق اقتصادى ، وهذا امر دورى تحتمه البنية ذاتها ، يبدأون بالتفكير بخلق حرب جديدة للخروج من المأزق الذى سقطوا فيه .

ويحتاج العرب اليوم وخاصة العرب في اسيا بشكل خاص الى من يفتح عيونهم على الخطر المحدق بهم في الظروف الحالية . فقد خرج حكام اسرائيل الى غزو لبنان (١٩٨٢) مدفوعين بازمة اقتصادية واجتماعية شبيهة بالوضع الذى سبق حرب ١٩٦٧ (١) . فقد صرفوا كل ما لديهم على تجهيز الجيوش وبناء المستوطنات ، وعندما سقطوا في الافلاس خاطوا لحرب جديدة واسعة المدى مؤملين ان ينهبوا اموال واراضي ، حتى انهم وضعوا على خريطة الحرب بعض منابع النفط في الخليج (٣) . ولكنهم تجاه الافق الدولي المغلق على التوسع فقد اصيبوا بنكسة مزدوجة . اذ انهم عادوا الى الجمهور الاسرائيلي وبدأوا بعملية نهب منظمة بدأت بالاستيلاء على قسم من مدخرات الجمهور في الاسهم البنكية (٢) ثم تتابعت بمضاعفة اسعار المواد الغذائية والسلع الاساسية للمواطن . وتقوم الولايات المتحدة في محاولة لانقاذهم بامدادهم بكميات اضافية من الدولارات ولكن الازمة سوف تستمر في التفاعل الى وضع الكارثة اذا لم يتخلوا بشكل نهائي عن تسخير ما يعادل نصف الناتج القومي لاعداد الجيوش والمستوطنات . وما تزال استنتاجات

---

(١) الارض - عدد ٥ - تاريخ ١٩٨٣/١١/٢١
(٢) الارض - عدد ٦ - تاريخ ١٩٨٣/١٢/٧ - ص ١١
(٣) - القبس ١٩٨٣/٢/١٩ .

الدكتور يوسف عبدالله صايغ صالحة لعام ١٩٨٤ كما كانت صالحة لعام ١٩٦٤ واكثر . فقد كتب اوري افنيري بعد غزو لبنان وهو يعلق على الازمة الاقتصادية التي وقعت فيها الدولة ، " معظم النفقات الحكومية التي اعطت دفعة كبيرة للتضخم كانت في مجالين هما ، الحرب والاستيطان . الاستيطان يبتلع مبالغ باهظة . ولم يتولوا الحقيقة للشعب ابدا حول حجم هذه النفقات + واقيمت مدن كاملة من قبل دولة مفلسة : وعندما يشتغل اكثر من ربع قوة العمل في الامن (جيش نظامي وخدمة احتياطية ، وصناعات عسكرية (يصدر قسم فقط من انتاجها الى خارج البلاد). فهذه وصفة مؤكدة لتضخم كبير . لان كل هذه الجهات تحتاج الى نفقات مالية كبيرة دون المساهمة في شيء لصالح الاقتصاد الوطني" وبلا موازنة اشار الى منبع الازمة التي كان الدكتور صايغ قد كشف عنها الستار قبل عشرين سنة ، وهي مسألة التضارب بين الموارد التي يستطيع الاقتصاد الاسرائيلي ان يوفرها من الداخل وبين الاهداف الكبرى التي تضعها الفئات الحاكمة نصب عينيها اي الهجرة الدخيلة والتوسع المستمر، قال افنيري ، " الاقتصاد الاسرائيلي له حل واحد على المدى الطويل ، وهو تقليص الاهداف طبقا للمقدرة الحقيقية المتوفرة للدولة واقتصادها " واضاف افنيري ان "٠الاهداف الوطنية تشبه المهرنيين واسرائيل محاولة منذ سنين عديدة . ومن خلال وطأة هذا المنظر يخيل لها انها دولة عظمى قادرة على كل شيء وان "القوانين الاقتصادية لا مكان لها عندنا" وعندنا " المعجزة وهي واقع يومي" . والمدمن لا يمكن علاجه سوى بالفطام عن تعاطي المخدر . واذا لم تنفطم اسرائيل الان ، ستقع لها كارثة اكبر في الطريق"(١) .

---

(١) ـ الارض ـ عدد ٥ ـ تاريخ ٢١/١١/١٩٨٣ ـ ص ٥٠

ولقد استهلت حرب لبنان الفاشلة صفا من الرؤوس (بيجن ، شارون ، ايتان ، سابي) ، ولكن الصف الذى وراءهم هو اكثر فعلية واكثر رغبة في الحرب . ان الفئات الحاكمة في اسرائيل تدرك الان بدل نصمها مرعوبة من الهوة الاقتصادية والاجتماعية التي تنتظرها وقد تكون مرعوبة اكثر من كون الافق الدولي مغلق حاليا تجاه عمليات توسع وغزو جديدة . انهم يفتشون اليوم باظافرهم واسنانهم عن منفذ ، عن مبرر محلي او ثغرة في علاقات الصراع الدولي على المنطقة ، لكي يخرجوا بجيوشهم الى الحرب على امل ان ينقذوا بلدهم من المأزق الراهن . والخوف من عواقب نزعة التوسع والمغامرة يشغل اليوم اذهان المفكرين الاسرائيليين الذين يحذرون من عواقب الاتجاه الذى تسلكه السلطات الحاكمة . وبهذا الصدد قال البروفيسور اساكشير ، المحاضر بكلية الفلسفة بجامعة تل ابيب " انه عندما تكون السلطة عاجزة عن حل الازمات ولا تستطيع حل مشاكل الجمهور - وهذا الوضع ينطبق على حكومة الليكود - عند ذلك تقوم الحكومة بخلق مواضيع تشغل الناس عن ازماتهم كتجنيد الناس في حرب ضد عرق اخر . وتزرع الامل عندهم انه بنهايتها سيكون وضعهم افضل" (١) .

ولقد حذر باحث في مؤسسة الارض من عواقب الوضع المتفاقم الان في اسرائيل ، فقال : " لا بد من الانتباه الى تركيز الاعلام الاسرائيلي على ان ازمة الركود الاقتصادى الحالية تماثل الازمة التي مرت على الاقتصاد الاسرائيلي عام ١٩٦٦ وهذا يعني في مفهوم قادة الكيان الصهيوني انه بالامكان الخروج من الازمة بحرب عدوانية جديدة كما حدث في العام ١٩٦٧ "(٢) .

---

(١) - الارض عدد ٦ - تاريخ ١٩٨٣/١٢/٧ - ص ١٤

(٢) المصدر نفسه وذات الصفحة .

وبكلمة واحدة ، الحاكم الاسرائيلي يدنع السكين اليوم في ثمه ويستعد للانطلاق في غزو في اعماق اسيا العربية اذا لم يكن غدا ، فربما بعد غد • واذا كان لي من تعليق على رأى الدكتور العالم ، فهو انه يقول ان ما هو موجود بين اسنان الحاكم الاسرائيلي ليس سكين وانما بضاعة يريد بيعها في اسواق العرب • انه تقريبا يقول للعرب : لا تخافوا ، ان الحاكم الاسرائيلي لا يريد ان يذبحكم وانما يريد ان يتبادل معكم البضائع •

الصهيونية فكرة غير يهودية

عندما نقرأ في نصوص مؤلف " دراسات يسارية " نجد أن لا الكلام الجاد عن " الامة اليهودية " و " الدولة اليهودية " قد ولد اول ما ولد في "اوساط الطبقة اليهودية الوسطى واوساط المعبرين عن مصالحها وتطلعاتها(١)" . ومثلها ايضا "ارضها الموعودة" و "وطنها الام" و ترابها الوطني المقدس" و "تحرير ارضها" ..) ؛
لكن اذا اعتبرنا التشريح الدقيق كما ورد في الفصل الاول من هذه الدراسة غير موجود . ثم اتينا لنقرأ في التاريخ عن هذه الشعارات والاهداف السياسية فسوف نجدها مسجلة على اسم طبقات اخرى ودوائر سياسية اخرى ليس بينها على اى حال فئات يهودية ولا " الطبقة الوسطى اليهودية " . ان فكرة " اعادة مملكة اسرائيل الى سابق عهدها " تلك الفكرة التي اطلق عليها المؤرخون اسم "الارجاع والاسترجاع" كانت قد ولدت على الساحة الاوروبية قبل ثلاثة قرون من ملادتها المزعومة في دماغ تيودر هرتزل . ولم تولد الفكرة في كنيس يهودى ولا في مدرسة يهودية ولا في مجتمع يهودى . فقد ولدت مع ولادة مطامع الدول الاوروبية في الشرق وعلى طرق التجارة في الهند والصين ونضجت مع ولادة قناة السويس وتحققت مع ولادة البترول في الوطن العربي . وكان تأليفها (هذه الشعارات والافكار) يتم بالقرب من مكاتب الملوك والحكام . ووزارات المستعمرات والدفاع ، ودوائر رجال السياسة ورجال المخابرات . ولقد اصابت الدكتورة بديعة امين كبد الحقيقة عندما لخصت ذلك ببضع كلمات ، فقالت ان الصهيونية ولدت في صالونات حكام اوروبا " . ومما له دلالة ان اول ظهور لهذه الفكرة (عودة اليهود) كان في بريطانيا عندما انتصرت الطبقة البورجوازية الانكليزية تحت قيادة كروموييل عند منتصف القرن السابع عشر . والدلالة التي اقصدها انه في سنة ١٦٥٤ عندما اعلن كروموييل عن اعتناقه فكرة "ارجاع اليهود الى فلسطين" لم يكن في بريطانيا ولا يهودى واحد .

---

(١) دراسات يسارية - المصدر السابق - ص ٨٩
(٢) الصهيونية وحقوق الانسان - المصدر السابق - ص ١٥٣ - ١٥٤

فاليهود كان قد تم طردهم من بريطانيا في عهد الملك (ادوار الاول)(١) سنة ١٢٩٠ وكرومويل عندما دعى التجار اليهود في هولندا للعودة الى بريطانيا كان يؤمل ان يستفيد من اموالهم ومن تأثيرهم على اليهود والاوروبيين الاخرين لتنفيذ مشروعاته البحرية والتجارية في الشرق ضد الاسبان والبرتغاليين وبما ان بريطانيا منذ القرن السابع عشر حتى الحرب العالمية الثانية عند منتصف القرن العشرين ، كانت مصالحها الاستعمارية ومن ثم الامبريالية في صعود دائم ، لذلك كانت فكرة " عودة اليهود " اذا صدق وتاجرت بها الوقت، وبسبب التزاحم على نفس المصالح واستثمار هذه الفكرة للغرض ذاته ، الى دوائر اوروبية اخرى ، فانها تعود في وقت لاحق فترجع من جديد الى دائرتها الاولى ، وعندما يحدث ، وهذا الغالب ، وتتلاقى مصالح عدة دول في دعم هذه الفكرة وتطويرها تكون بريطانيا عادة على راس القائمة وبكلمة واحدة فان بريطانيا التي كانت اول من انتج الفكرة كانت هي ايضا اول من عمل على تطبيقها ، ذلك التطبيق الذى تجلى في " وعد بلفور وهو قرار سياسي أصدرته وزارة الحرب البريطانية في الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧ لاسباب تتعلق بمصالح الامبراطورية البريطانية وليس بمصالح يهودية . ومن مفارقات الامور ان حقيقة تاريخية عظيمة المغزى ولكن أحدا" من الباحثين العرب لم يتحدث عن مغزاها او على الاقل لم أقرأ في المصادر التي استخدمتها في هذه الدراسة شيئا عن مغزاها . وهي انوزير الخارجية " بلفور " بلغ اللورد روتشلد عضو مجلس اللوردات الحاكم ، برسالة الموافقة على " انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين " ولم يبلغ رئيس اللجنة التنفيذية الصهيونية حاييم وايزمن " ، وربما يكون افضل تعبير عن العلاقة التاريخية بين المصالح البريطانية وبين فكرة " عودة اليهود" الى " وطنهم الام "

---

(١) - موردا أندريه - سيرة دزرائيلي - ترجمة مترى نعمان - المنشورات العربية - ص ٩-١٠

ماورد على لسان المؤرخ الصهيوني (فرانز كوبلر) حيث قال : - "في بريطانية اكثر من أي مكان آخر تم تطوير فكرة الارجاع والاسترجاع الى عقيدة ، واصبحت هذه الفكرة هدفا لحركة تمتد عبر مايزيد على ثلاثة قرون . وفي بريطانية وحدها استمد كبار الناطقين بلسان أجيال عديدة وحيهم من رؤيا اسرائيل المنبعثة من جديد . وهناك فقط كان ولمن قومي يهودي قضية سياسية جدية وبصورة مستمرة تقريبا جرت ترجمتها اخيرا الى حيز الواقع الراهن " .(١)

وعلى أي حال فان " الكلام الجاد " عن " الدولة اليهودية " بالمعنى السياسي التطبيقي ظل في بداية الامر كلاما غير جاد . لانه حتى نهاية القرن الثامن عشر كانت الامبراطورية العثمانية ماتزال منيعة اتجاه تطبيق مشروعات كهذه في قلب ممتلكاتها في فلسطين . ولكن منذ مطلع القرن التاسع عشر أخذت " صهيونية الاغيار" كما يسميها الدكتور " اسعد رزوق" منحى جديا تماما . فالكلام الجاد ولد الآن لدى " رجال السياسة في الدولة الاوروبية الطامعة بالنفوذ وحماية المصالح المختلفة في الشرق الادنى ومناطقه اللازمة لتأمين الطريق الاستعماري الى الهند " . وحسب رأي المؤرخ (لوسيان وولف " فان أهم مناسبتين ظهرت خلالها النزعة الاوروبية "الصهيونية " بشكل جدي ، كانتا :-

١- حملة نابليون بونابرت على مصر والشرق عام ١٧٩٩

٢- اجتماع الدول الاوروبية للبت بمصير سورية وفلسطين بعد طرد جيوش محمد علي منها بين ١٨٤٠ - ١٨٤١ (٢)

---

(١) - الصهيونية وحقوق الانسان - المصدر السابق - ص ١٣٩

(٢) - المصدر السابق - ص ١٥٩

وكان احد رجال السياسة الفرنسين (موريس دى سانت امبردى ليف) قد نشر منذ عام ١٧٩٧ مذكرة حول " اعادة بناء دولة يهودية في فلسطين سيكون نفعها شاملا لليهود وللدولة التي يتعاونهم على ذلك بالاضافة الى نفعها للعالم أجمع "(١) . وفي عام ١٧٩٨ اعدت قيادة الثورة الفرنسية " خطة سرية لكسب تأييد اليهود " في مشروع الغزو الفرنسي لبلاد الشرق وضرب المصالح البريطانية . وفي السنة التالية ١٧٩٩ عندما كانت جيوش الحملة الفرنسية تزحف من العريش باتجاه عكا ، نشر نابليون نداء دعى فيها يهود آسيا وأفريقيا الى الالتحاق بجيوشه . وقد وعد اليهود " باسترجاع القدس القديمة ومملكتها المجيدة " كما خاطب اليهود بقوله " الى ورثة فلسطين الشرعيين " (٢) .

وقد أثار تصرف السلطات الفرنسية فيحينه حالة من الانفعال في بريطانية . حيث بدأت حملة من المزايدات الايديولوجيه حول من يحق له ، من وجهة نظر دينية ، بريطانيا " البروتستنيتسة " أم فرنسا " الكاثوليكية " العمل على "تنفيذ المشيئة الالهية" لاعادة اليهود الى " وطنهم القديم " .

وآنذاك خاطب عالم الطبيعة البريطاني (جوزيف بريستلي) ، نسل ابراهيم واسحق ويعقوب بقوله : " فلسطين مجد البلاد قاطبة تؤلف الآن جزء من الامبراطورية التركية ... ومالم تنهار هذه الدولة تلتي تحتفظ لنفسها بذلك البلاد " فمن المحال ان تصبح بلادكم . ولقد

---

(١) حول الصهيونية واسرائيل - المصدر السابق - ص ٢٢

(٢) الصهيونية وحقوق الانسان - المصدر السابق - ص ١٦٢-١٦٤

بلادا فأنا أصلي جديا لاحتلالها "(١) . بعد فشل حملة نابليون الى الشرق طويت صفحة الدعوة الصهيونية مؤقتا في فرنسا . ولكن اعتبارا من النصف الثاني للقرن التاسع عشر عادت الادارة الفرنسية من جديد الى فتحها مجددا . فعلى اثر الاحداث الطائفية في لبنان وسوريا عام ١٨٦٠ وارسال جيوش فرنسية الى لبنان، اصدر سكرتير نابليون الثالث (أرنست لاماران) كتابه " المسألة الشرقية الجديدة " الذى كان مصدر وحي الصهيونية (موزس هيس) الذى يوصف بأنه اول صهيوني يهودى . وقد اقترح لاماران أن تقوم فرنسا بدور الحماية للاستعمار اليهودى في فلسطين اما اسبابه فهي : -

١- تأمين طرق المواصلات" بين القارات الثلاث"

٢- حملة المدينة الى شعوب آسيا المتخلفة

٣- حراسة طرق المواصلات" المؤدية الى ا الهند والصين "

وقد خاطب سكرتير الامبراطور اليهود بقوله : " عليكم ان تنقذوا الجحافل العربية المتوحشة والشعوب الافريقية ... سوف يتطهر هؤلاء جميعا من الخرافات .. أنتم قوس النصر المرتفع فوق التاريخ في المستقبل(٢) ويؤكد الدكتور " اسعد رزوق" ان افكار (ارنست لاماران) وجدت صداها بشكل افضل عند نهاية القرن " لدى هرتزل ونوردو" وهما مؤسسا الحركة الصهيونية الرسمية . وخلال هذا المسعى الفرنسي الجديد تشكلت "جمعية الاليانس" او الاتحاد الاسرائيلي العالمي في باريس . وكانت هذه الجمعية

---

(١) - المصدر السابق - ص ١٦٦

(٢) - المصدر نفسه - ص ١٨١

تعمل تحت اشراف آل روتشيلد وفروعهم المصرفية . وقد عملت في النشاط الثقافي وتعليم اللغة العبرية في عدة بلدان وخاصة في اوروبا الشرقية وروسيا . وبعد ذلك ، اعتبارا من عام ١٨٧٠، شرعت في شراء الاراضي في فلسطين "واسكان المهاجرين القادمين من اوروبا الشرقية في مستعمرات زراعية " . ولم يكن المظهر الديني في نشاطها سوى الاستارة لاخفاء المصالح الحقيقة غير اليهودية . وبحسب مصادر اسرائيلية مطلقة، فان روتشيلد "كان يسعى الى تدعيم نفوذ فرنسا وراء البحار وخاصة في منطقة حساسة كفلسطين، حيث التقى حماسه الديني مع ولائه الوطني " . (١)

أما المناسبة الثانية التي ذكرها المؤرخ " لوسيان وولف" والتي كانت المحرك الاقوى لتسعير الروح الاوروبية الصهيونية مجددا في الدوائر الاستعمارية وعلى رأسها انكلترا، كانت تلك المرحلة التي عبرت فيها جيوش محمد علي نحو الشرق وشرعت بالتقدم حتى الحدود الشماليه لسوريا مهددة الخلافة العثمانية ذاتها بالسقوط ، مما حدا بالدولة الاوروبية جميعها الى تناسي خلافاتها مؤقتا وتشكيل حلف عسكري واحد، حيث قامت جيوش هذا الحلف فعلا بصد جيوش محمد علي واخراجها من بلاد الشام واجبارها على العودة الى مصر سنة ١٨٤٠ .

ومنذ البداية تبلورت الفكرة (فكرة اعادة اليهود الى فلسطين)في الدوائر البريطانية تلسليا على ضوء التحالف الفرنسي مع محمد علي أودعم محمد علي في حركة للإستيلاء على سوريا " وكثمن انتصار محمد علي

---

(١) حول الصهيونية واسرائيل - المصدر السابق ٣٦-٣٧

محمد علي في هذا المجال يعني في نظر بريطانيا وحتى روسيا، امتدادا" لنفوذ فرنسا التي كانت تؤيد محمد علي وتمنحه حمايتها، وهذا يعني بالتالي تعريض خطوط المواصلات الى الهند الى الخطر الفرنسي" (١)

في ذلك الوقت بلغ الصراع الاستعماري اوجه بين الدولتين الاكبر في اوروبا، انكلترا وفرنسا، بهدف الاستيلاء على الشرق الاوسط، وكان العملاء من كلا الجانبين في غاية اليقظة والنشاط حيث يضع كل جانب نشاط الجانب الاخر تحت الرقابة الدائمة. وقد رفع أحد العملاء الفرنسيين في فلسطين (جول دى برتو) الى وزارة الخارجية الفرنسية .. تقريرا في تشرين الثاني ١٨٤٠ جاء فيه :" ان اذلال محمد علي باجباره على العودة الى قواعده لم يكن آخر أهداف الحكومة البريطانية في هذا الجزء من الشرق، وقد اتضح على وجه لايقبل الشك أن لها هنا غاية أخرى اعاو عملوها يحيطونها بسياج من الكتمان ... وهذه الغاية هي بعث مملكة اسرائيل. ومنذ أربعة اشهر وصلت الى هنا بعثة بريطانية يرأسها الدكتور " كايتز" مؤلف كتاب عن "تحقيق النبوءات" .. وكان المفهوم في البداية ان هذه البعثة مرسلة من الكنيسة الاسكتلندية، ولكني علمت فيما بعد ان الحكومة البريطانية اوفدتها لجمع معلومات عن احوال اليهود في فلسطين وامكان اعادة جميع يهود اوروبا الى الارض الفلسطينية ". (٢)

ولقد كتب اللورد شافتسبري منذ عام ١٨٣٨ الى وزير الخارجية البريطانية

---

(١) ـ المشكلة اليهودية ـ المصدر السابق . ص ١٤٨

(٢) ـ المصدر نفسه ص ـ ١٥٠

بالمرستون،يقول :" لو امعنا التفكير في مسألة عودة اليهود على نحو اقامة أواستعمار فلسطين لاكتشفنا ان ذلك هو ارخص واضمن طريق لتزويد هذه المنطقة القليلة السكان بكل ما هو ضروري" .(١)

ويعتبر عام ١٨٤٠ بالنسبة لبريطانيا وموقفها من عودة اليهود حدا فاصلا بين مجرد التفكير وبين التفكير الجدي المرتبط بالسياسة العليا فاعتبارا من هذا التاريخ لم تعد مسألة عودة اليهود الى " ارض الميعاد" موضوع آراء وتصورات، بل اصبحت مسألة سياسية ودبلوماسية او استراتيجية تعالجها على هذا الاساس الدوائر المختصة . ففي" اب ١٨٤٠ كتب وزير الخارجية البريطاني بالمرستون الى سفيره في الاستانة ان يعرض على السلطان التركي فكرة اعادة يهود اوروبا الى فلسطين. وطلب من السفير ان ينوه للسلطان بالمنفعتين التاليين :-

١- استيطان اليهود في فلسطين يعني زيادة في ثروة السلطان الذى كانت خزينته تعاني من صعوبات ماليه .

٢- اذا تم الاستيطان في فلسطين فسيشكل اليهود" حاجزا بوجه اية اطماع خبيثة يخطط لها محمد علي او خليفته في المستقبل".(٢)

فالرابطة " الصوفية" التي تربط" هذا الشعب بهذه الارض" (٣) لم ترتفع من المرتبة الروحية الى المرتبة السياسية بمساعي يهودية ولكن بمساعي غير يهودية . في تلك المرحلة كما يكتب اسعد رزوق، كان شعار "غرس الشعب اليهودى في ارض آبائه وأجداده" هو شعار الصحافة الاوروبية

---

(١) - المصدر السابق - ص ٢٤

(٢) - الصهيونية وحقوق الانسان - المصدر السابق - ص ١٧١

(٣) - دراسات يساريه - المصدر السابق - ص ١٢٦

في مختلف البلدان التي اشتركت جيوشها في صد جيوش محمد علي واعادتها الى مصر . فقد كتبت التايمز (١٧-٨-١٨٤٠) تحت عنوان (سورية عودة اليهود) ،فقالت: " لم يعد الاقتراح الداعي الى اسكان الشعب العبري فوق ارض اجداده تحت وصاية الدول الخمس الكبرى بمثابة انتظار للمسيح . بل أصبح مسألة تستوجب النظر السياسي الجدي" وكتبت صحيفة غلوب(١٤ -٨ -١٨٤٠) ،فقالت: " يجب تسكين اليهود من العودة الى ارض اسرائيل ومن الاقامة هناك باطمئنان اذا ارادوا ذلك، لان هذا الامر سيكون من الآن فصاعدا واحدا من الاحجار الكريمة الثمينة في التاج البريطاني " . ونشرت صحيفة التايمز(٢٦-٨ - ١٨٤٠) مذكرة ارسلتها اوساط سياسية بريطانية الى الملكة فكتوريا والى الملوك البروتستانت في كل من بروسيا وهولندا والدانمرك والسويد والنرويج وكان عنوانها " عودة اليهود" وجاء في تلك المذكرة :" ان عودة اليهود الى فلسطين هو الحل المناسب للمسألة الشرقية " ودعت المذكرة الملوك البروتستانت " التجديد بناء هيكل الرب في القدس" (1) . وفي ١٨٤٢ وجه القنصل البريطاني في دمشق (الكولونيل تشارلز هنرى تشرشل) وهو من اركان الجيوش المتحالفة ضد جيش ابراهيم باشا في بلاد الشام ،" نداء يهود اوروبة باشدهم فيه التحرك لنجدة اليهود المقيمين في سورية وفلسطين" وفي عام ١٨٤٤ تألفت في لندن " الجمعية البريطانية الاجنبية للعمل في سبيل ارجاع الامة اليهودية الى فلسطين" وكان يرأسها القس الد البروتستانتي كريبسلس .

---

(١) - اسرائيل خنجر امريكا - المصدر السابق ص ٣٢ -٣٣

وفي عام ١٨٤٥ اقترح (الكولونيل جورج غاولر) في كتابه " تهدئة سورية والشرق" استعمار فلسطين من قبل اليهود وتحت الحماية البريطانية لان ذلك كما قال يحول "دون تدخل الدول الاوروبية الاخرى" في شؤون مصر وسوريا ويحمي في نفس الوقت طرق التجارة البريطانية الى الشرق والهند فأرض فلسطين كما ورد في كتابه ." تخص اله اسرائيل وشعبه القومي المختار".[1] وفي عام ١٨٥٣ خطب الكولونيل " غاولير" في البرلمان البريطاني ، وكان آنذاك حاكما على استراليا ، فقال: " ان العناية الالهية قد وضعت سورية ومصر في طريق انكلترا نحو المناطق الاهم في تجارتها الاستعمارية الخارجية ، الهند والصين والارخبيل الهندي واوستراليا ويد انكلترا يجب ان تجدد سورية بواسطة الشعب الملائم لهذه المهمة . اى بواسطة الابناء الحقيقين لهذه الارض ابناء اسرائيل " .[2]

وفي ١٨٧٧ وضع القس " جيمس نيل" ، راعي كنيسة المسيح في القدس كتابه " تأهيل فلسطين ثانية ، او جمع شمل اسرائيل المبعثرة " . وقد اعيد طبع كتابه خلال ست سنوات" مالايقل عن ثماني مرات متوالية " وكانت العبارة التالية من سفر (أرميا)تتصدر النسخة الاولى من الكتاب " اسمعوا كلمة الرب ايها الامم واخبروا في الجزاء البعيدة وقولوا مبدد اسرائيل يجمعه ويحرسه كراع قطيعه ".[3] (أرميا ٣١/١٠)

وبعد ان اشترت بريطانيا اسهم الخديوي في شركة قناة السويس (١٨٧٥) اصبحت فلسطين ومكانها الاستراتيجي في حماية قناة السويس من الشرق من اهم المصالح السياسة الخارجية البريطانية

---

(١) - الصهيونية وحقوق الانسان - المصدر السابق ص١٧٤-١٧٥-١٧٧

(٢) - احذروا الصهيونية - المصدر السابق - ص ٣٤

(٣) - الصهيونية وحقوق الانسان - المصدر السابق ص ١٨٥

ويقول أسعد رزوق انه عند مطلع الربع الاخير من القرن التاسع عشر كانت بريطانية قد " عقدت العزم نهائيا على اداء دورها الكامل في تسليم فلسطين للاستعمار اليهودي بحجة حماية مصالحها في قناة السويس" ولقد اعلنت بريطانيا عن هذا الهدف في مقالة صدرت عن اللورد شافتسبري في عام ١٨٧٦ ، حيث قال : " اوليست هناك لبريطانيا مصلحة خاصة في دفع عجلة الاسترجاع" ؟ .. ان بريطانيا هي الدولة التجارية والبحرية العظمى في العالم . لذا تقع عليها تبعة الدور المجند لتوطين اليهود في فلسطين" ويضيف شافتسبري وكأنه يضع الاسس للخطاب الايديولوجي الذي سيظهر بعد قليل لدى كبار الايديولوجيين الصهيونيين من اليهود ، فيقول " ان قومية اليهود موجودة ، والروح لاتزال حية منذ ثلاثة آلاف سنة فلا ينقص سوى المظهر الخارجي ، اوربما الوحدة المتوج لذلك ، والامة لابد لها من وطن ، الوطن القديم للشعب القديم . ان هذا الامر ليس تجربة مصطنعة ، بل هو الطبيعة بالذات والتاريخ بعينه " (١)

وفي عام ١٨٨٧ بحثت مسألة الاستيطان اليهودي في فلسطين في البرلمان البريطاني عندما دعى عضو البرلمان ورجل الصناعة (ادوار كازاليت) الى ان تتبنى الحكومة رسميا مسألة توطين اليهود في فلسطين . (٢)

ولم يبق الامر حكرا على الدوائر البريطانية والفرنسية ، فمنذ ان توحدت المانيا في دولة قومية وبدأ نجمها الصناعي يصعد على الساحة الاوروبية بدأت هي الاخرى بالتفكير في المصالح الخارجية وخاصة

---

(١) - الصهيونية وحقوق الانسان - المصدر السابق ص ١٨٧-١٨٨

(٢) - اسرائيل خنجر امريكا - المصدر السابق ص ٢٧ -

مصالحها في الشرقي دولة الرجل المريض" . فقد فكر القيصر غليوم الثاني يتبنى " المشروع الصهيوني " واستثمار" الرأسمال اليهودي" في هذا المشروع " وكان بسمارك ايضا يفكر في توطين اليهود في المناطق المحاذية لخط بغداد - برلين ، حتى يصبحوا اقلية تجارية تصطدم بالسكان المحليين، وتعتمد على المانيا لحمايتها ،فيكونوا خير ممثل للاستعمار الالماني هناك ".(١) . وفي ١٨٩١ اسس البارون النمساوي الالماني الاصل "دى هيرش" ((جمعية التوطين اليهودية)) التي بدأت عملها في البداية لتوطين اليهود في الارجنتين .

القاعدة المادية للصهيونية الاوروبية :

لقد سأل الدكتور المسيرى لماذا" وطن الامبرياليون في فلسطين يهودا ولم يوطنوا اوروبيين مسحيين كما فعلوا في الجزائر وروديسيا اليست كلها مصالح امبريالية تخدم المخطط الامبريالي ؟ ... " وأنه يخطئ، عندما يفتش عن سبب في العلاقة بين بنية فوقية "رغبة اليهود في العودة زائدا رغبة المسحيين بتنصير قتلة المسيح" حيث تصور ان هذه " الاسطورة الدينية " قد دخلت في" علاقة مع البناء التحتي الرأسمالي التجارى ثم الامبريالي الغربي" فنتج عن ذلك التركيز على توطين اليهود دون غيرهم من مواطني تلك البلدان ... لان السؤال الذى يتضمن الجواب الاقرب الى الواقع هو لماذا كانت تلك الدول المتصارعة على المصالح في هذه المنطقة الحساسة تشترك في تبني الفكرة الصهيونية والدعوة لها بنفس الحماس الذى يتزاحم به خصومها

---

(١) -الايديولوجيا الصهيونية - المصدر السابق - ص ١٤٦

(٢) -المصدر نفسه - ص ١٩٠

على هذه المصالح ؟ ... وعلى الفور يمكن اخراج غير اليهود من .
مشروع التوطين ، لان توطين ألمان من قبل المانيا يعني الحرب على الفور مع القوى الاوروبية الاخرى مجتمعة ، وتوطين فرنسيين اوانجليز او روس يعني الامر ذات . فالمصالح هنا كانت حساسة ولاتسمح القوى الاخرى بارادتها على الاقل ، ان تنفرد بها قوة واحدة . ولذلك فان جميع المتصارعين فضلوا اليهود على امل ان يكون لهم شيء ما في الدائرة عندما تنضج الذبيحة ، اذا لم يكن للفوز بها فعلى الاقل بجعلها صالحة حتى لايبتلعها الاخرون بسهولة .

ولقد توافق ذلك مع اساس مادى اكثر عمقا كشفت عنه الدكتورة ر.. بديعة امين وهو عملية اندماج الرأسمال المصرفي اليهودى على نطاق القارة مع الرأسمال الصناعي المسيحي . ففي جميع العواصم الاوروبية قامت فروع المصارف لآل روتشيلد وثانية وبندلسون وساسون واونبهايم بدمج اعمالها مع اعمال الطبقة البورجوازية المسيحية الصناعية على مستوى القارة وايضا في المستعمرات وتكتب بديعة امين : " لقد تيسر للارستقراطية الرأسمالية اليهودية بفضل ما تملكه من ثروات ماليه اسطورية ان تشق، بعد ان تحطمت اسوار الغيتوات الضيق ، شهور عسل ممتعة بزواجها المعلني من الرأسمال المسيحي الاوروبي "(١) . وتؤكد بديعة امين ان عملية الاندماج المصرفي والصناعي اليهودى والمسيحي، كانت "لاتنصب على حث التطور الصناعي ودفع حركة الاستعمار وتصدير الرساميل الاوروبية

---

(١) - المشكلة اليهودية - المصدر السابق - ص١١٦

يهودية كانت ام مسيحية ام مندمجة ، الى المستعمرات الجديدة في آسيا وافريقيا".[1] ، لذلك فان اختيار اليهود ، خاصة لهذه العملية ، كان يحل في وقت واحد مشكلة التنافس ومشكلة التمويل ومشكلة ميزان القوى المتأرجح حيث تأجلت معركة اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية حتى الحرب العالمية الاولى بسبب خوف تلك الدول المتصارعة بعضها مع البعض الاخر . ولم يكن المظهر الايديولوجي" رغبة اليهود في العودة " وايضا رغبة المسيحيين الابينتصر قتلة المسيح" ، لم يكن مثل هذا المظهر اكثر من مناسبة سعيدة . فلا البارونات اصحاب المصارف يؤمنون باليهودية ولا اللوردات والكونتات اصحاب المصانع يؤمنون بالمسيحية . انهم (الرأسماليون) يؤمنون بالربح ولاشيء غير الربح . واذا رأوا ان تصورات دينية يمكن ان تزيد الربح فهذه تكون مناسبة مفرحة ليس الا . ومن المؤكد لو ان بسمارك فاز وحقق الالمان مشروعهم للتوطين على خط برلين - بغداد ، لكان علينا فيما بعد ان نستمع بدلا من التوراة ، الى نصوص ايديولوجية يهودية تنبع كلها من التلمود البابلي : "من يصعد من بابل الى ارض اسرائيل ، فقد انتهك احدى الوصايا الالهية"[2]

خريطة انكليزية للدولة العبرية /

خلف تلك الواجهة السياسية والدبلوماسية والاعلامية المتائدية ، كان يقوم عمل مادي اكثر حسية وهو يدل على اصرار بريطانيا على توفير جميع الشروط الضرورية لتأسيس دولة يهودية" في فلسطين . والعمل المعني هو وضع خريطة "عبرية" لدولة المستقبل . فاعتبارا من مطلع الاربعينات من

---

(١) بالمصدر نفسه ص . ١١٨

(٢) - التلمود والصهيونية - المصدر السابق - ص ٢١٩

من القرن التاسع عشر،اى في نفس الوقت الذي أصبحت فيه المصالح البريطانية تفترض ان تكون فلسطين تحت وصايتها ، بدأت الدوائر المختصة بدارسة جدية لاراضي فلسطين وصحراء سيناء . فقد تم بالفعل ارسال عدة بعثات استكشافية بقيادة ضباط من سلاح الهندسة والبحرية بهدف مسح بعض المناطق المعينة في فلسطين ووضع الخرائط المناسبة لها . وفي عام ١٨٦٥ تأسس في لندن" صندوق الاستكشافات الفلسطينية" تحت رعاية الملكة فكتوريا بالذات . وشرع الصندوق بارسال بعثات الاستكشاف الواحدة تلو الاخرى . واحدى تلك البعثات كانت برئاسة الملازم ((تشارلز واريـن)) الذى وصل فيما بعد الى رتبة جنرال واعطي لقب سير . وكانت واحدة من مهمات بعثته " تحديد موقع الهيكل (هيكل سليمان) بالضبط" . اما البعثة الثالثة (١٨٦٩- -١٨٧٠) فقد توجهت الى صراء سيناء " المعرفة الطريق الذى سلكه بنو اسرائيل في هجرتهم من مصر الى فلسطين". وكانت هذه البعثة برئاسة (الكابتن ولسون) ومساعده (الكابتن بالمر) من سلاح الهندسة .

اما اهم تلك البعثات فكانت تلك التي حملت الرقم اربعة في مشروع استكشاف فلسطين وقد دام عملها ست سنوات (١٨٧١ - ١٨٧٧) وقد ترأسها الملازم (كلود كوندر) ومساعده (الملازم كتشنر) الذى اشتهر فيما بعد واصبح حاكما للسودان ومن ثم وزيرا للحربية

البريطانية . وضعت البعثة الرابعة خرائط لفلسطين تختص كل منها بناحية معينة ، جغرافية ، طبوغرافية ، سكان ... الخ احدى تلك الخرائط كانت خارطة لفلسطين وعليها " المدن والقرى بالاسماء التي وردت في التوراة " الامين الفخري لصندوق الاستكشافات (وولتر بيسانت) عندما كان بعدد انجازات جمعية الاستكشافات في محاضرة له قال : ((كنا نقوم بثورة كاملة في فهم ودراسة التوراة ، كنا نحي العظام وهي رميم ، كنا نستعيد مجد فلسطين في عهد هيرودوس كنا نستعيد بلاد داود ، كنا نرد الى الخارطة اسماء المدن التي دمرها القائد العظيم " يوشع" لقد اعدنا للقدس مجدها وفخامتها لقد اعدنا البلاد (فلسطين) للعالم بالخارطة والاسماء والاماكن المذكورة في التوراة ".(1) . وعندما تحدث رئيس البعثة (كلود كوندر) فقد قال : " بدأ صندوق الاستكشافات الفلسطينية عمله وهدفه الوحيد القاء ضوء اجد وادق على التوراة ، ولذلك اصبح اداة فعالة ورئيسية لمساعدة اولئك الذين سيكونون سكان البلاد في المستقبل » وتعليقا على انجازات صندوق الاستكشافات، قال الصهيوني (نورمان بنتوفتيش) . ان العمل الذى قام به الصندوق بالتعاون مع سلاح الهندسة في الجيش البريطاني في مجال الحفريات ورسم خارطة " للبلاد " ، كان منسلا " لتكامل المصالح التوراتية والسياسية ".(2) ولايستطيع صهيوني يهودى ان يقول اكثر من ذلك

---

(1) – ش ف – عدد ٩ ايار (مايو) ١٩٧٢ – ص ١٩٨-١٩٩ – ٢٠٠

(2) – المصدر نفسه – ص ٢٠٢

صهيوني يهودي ان يقول اكثر من ذلك حيث تظهر التوراة في متابعة المصالح الامبراطورية البريطانية في عملية تحالف على قدم المساواة !

المهم انه عند نهاية القرن التاسع عشر كانت بريطانيا قد ملكت حصة مهيمنة في اسهم قناة السويس ثم قامت باحتلال مصر ١٨٨٢ ومن الآن وصاعدا أصبح الدفاع عن السويس من الشرق أهم مصلحة للامبراطورية تقتل مئة سنة اليوم كانت السويس تعني لبريطانيا ما يعنيه اليوم بترول الخليج بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية . آنذاك كانت بريطانيا ، كما يقول اسعد رزوق ، عقد « عقدت العزم نهائيا على اداء دورها الكامل في تسليم فلسطين للاستعمار اليهودي بحجة حماية مصالحها في قناة السويس »[١] . والسيناريو كان قد وضع خطوطه الاساسية رجال الدولة ورجال الحرب يساعدهم في ذلك أيديولوجيون أخصائيون من القسس وغير القسس ماهرون في " تحقيق التنبوءات " والاساطير الدينية وكان المسرح ، الخارطة العبرية قد قام باعداده سلاح المهندسين بالتعاون مع سلاح البحرية . أما الممثلون فقد شرع باعدادهم منذ وقت مبكرا ايضا . حيث تم انشاء جمعية " احباء صهيون " في روسيا بواسطة مندوبين من رجال الاستخبارات البريطانية كانوا يعملون مباشرة مع مكاتب الوزارات " سالزبوري وشافتسبري ورئيس الوزراء " (وزرائيلي) بالذات . وعلى رأس هؤلاء المندوبين كان (لورانس اوليفانت)[٢] الذي كان اول من عبر طريق بناء المستعمرات بين جمعيات " احباء صهيون

---

(١) ـ الصهيونية وحقوق الانسان ـ المصدر السابق ص ١٨٧

(٢) ـ اسرائيل خنجر امريكا ـ المصدر السابق ـ ص ٢٦ ـ ٢٧

وبين فلسطين • وكانت هذه المشاريع تظهر باعتبارها مشاريع " خيرية " يمولها المحسن الكبير (ليونيل روتشيلد) •

وعلى اي حال يبقى الصهيونيون مرغما لايجارى عندما يحدث وينطقون بالحقيقة على علاتها • وهذا يحدث بحسب المصادفات • فالزعيم الصهيوني ماكس نوردلو ـ وهو يعتبر نفسه المؤسس الثاني بعد هرتزل للصهيونية اليهودية الرسمية • ادركفي تلك اللحظة من التاريخ ضرورة " الدولة اليهودية " في فلسطين للمصالح الانكليزية • وادرك ايضا وفي نفس الوقت ان كل شيء اصبح مجهزا ولم يبق الا الاعلان " الرسمي " لذلك قال : " لم يبق للصهيونية • كما يقال سوى ان تظهر • والا اضطرت انكلترا لابتداعها "[(١)] • اما حاييم وايزمن • فقد قال في وقت لاحق • على اثر صدور وعد بلفور • في رسالة وجهها الى وزير المتعمرات ((ونستون تشرشل)) • ورد فيها : " لو لم تكن هناك فلسطين لكان من الضروري حسب اعتقادي خلقها المصلحة الامبريالية فهي قلعة مصر وأمان ان بريطانيا " تصون مصالحها عن طريق الاستيطان الكولونيالي اليهودي بأرخص ما يمكن "[(٢)] •

اما قول الدكتور المعظم بأنه " لايجوز ان نقع في اخطاء النظرة الميكانيكية عند تفسيرنا للصهيونية كأن نستخلصها آليا من النظام الرأسمالي الاستعماري "[(٣)] •

فهو رأى اضافي أو زائد على اعتراف المؤسسين الصهيونيين اليهود بهذه الحقيقة • وربما يكون الدكتور المعظم متأثرا برأى (أفنيرى)

---

(١) ـ احذروا الصهيونية ـ المصدر السابق ص ـ ٣٥

(٢) ـ الصهيونية والعنصرية بين الفكر والممارسة ـ مؤسسة الارض ـ دمشق ١٩٨٠ ـ ص / ٣٧

(٣) [illegible] ـ ص ٨٩

بخصوص علاقة اسرائيل بالامبريالية . اذن افنيرى ربما يكون تأييد يولوجي قد توهم ان اسرائيليست " نتيجة للامبريالية " وان ماجرى لم يكن اكثر من عملية تحالف عادية بين اسرائيل و " بين الامبرياليين (١) أول ". كلام جاد " اذن، وهو كلام مسجل في التاريخ ،لم يصدر عما يسمى ((اوساط الطبقة الوسطى)) اليهودية ولا حتى عن اية اوساط يهودية البته . وكل ما هنالك انه فيما بعد تقدم رجال من اليهود وحملوا الراية التي كانت قد اعدت بألوانها وشعاراتها في " اوساط " غير يهودية ولم يكن المؤرخ اليهودي (لوسيان وولف) الاملخصا لعملية استقراء لتاريخ نصف قرن قبل ولادة الصهيونية اليهودية ،عندما قال: (ان معظم الدعاة الصهيونيين البارزين حتى زمن هرتزل كانوا من المسيحين وليس من اليهود))(٢) .

المظهر اليهودى للحركة الصهيونية /

يقول رودنسون: ((كانت الرؤيا)) ، رؤية عودة اليهود واقامة دولة لهم في فلسطين ، " قائمة في نطاق الهجوم الاوروبي على الامبراطورية العثمانية "الرجل المريض" الذى كان تمزيقه النهائي يؤجل بسبب تنافس الدول" .(٣) لكن الذى ينوى ان يمد يديه الى خلية النحل عليه ان يرتدى قناعا وقفازات . وهذه صورة ادبية مفيدة في ظروف حساسة فأوروبا الغربية ، بريطانيا صاحبة المصلحة رقم واحد قبل غيرها كانت قد صدرت فائض سكانها الى قارات اخرى قبل حلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وهذا اضافة الى العوامل الدولية والاقتصادية

---

(١) ـ اسرائيل بدون صهيونية ـ المصدر السابق ـ ص ٦١

(٢) ـ الصهيونية وحقوق الانسان ـ المصدر السابق ص ١٣٩

(٣) ـ اسرائيل واقع استعماري؟ ـ ـ المصدر السابق ـ ص ٣٠

الاخرى التي مر ذكرها وكلها تلبي الاربعينية لتوطين اليهود لكن السؤال هو : أي يهود ؟ ... كانت الفكرة برمتها ستكون طوباوية لو جرى الاعتماد على يهود الغرب ، لان يهود الغرب كانوا اغلبيات ميسورة الحال بشكل عام ، وكانوا مندمجين تماما في مجتمعاتهم من النواحي الاقتصادية والسياسة ، وكانت الطبقة اليهودية العليا اصحاب بيوت المال والمصارف يقضون " شهر العسل " الممتع مع اقرانهم المسيحيين على شطآن البحار وفي المستعمرات ، ولايعقل ان يترك يهودي انكليزي او فرنسي أو الماني حياة هانئة في ظل الحضارة ويرحل نحو الشرق الى فلسطين لكي يشتغل عامل يدوي في مستعمرة وفي ظروف بدائية ومتخلفة من جميع النواحي .

اريد ان اقول ان الذي اعطى " الرؤيا " مصداقيتها ، امكانية تحويلها الى واقع ، كان تدفق اليهود الفقراء من روسيا واوروبا الشرقية نحو الغرب اعتبارا من مطلع القرن التاسع عشر . هذا التدفق الذي ظل بحدود بضعة الوف سنويا حتى عام ١٨٨٠ وبداية اول مذبحة لاسامية ليهود روسيا حيث ارتفعت وتيرة الهجرة نحو الغرب الى عشرات الالوف ومن ثم الى مئات الالوف سنويا مع اشتداد موجة العداء للسامية التي عمت اوروبا عند نهاية القرن التاسع عشر ، فبين عامي ١٨٨٠ و ١٩٣٠ قذف الخزان اليهودي الشرقي (روسيا وبلدان اوروبا الشرقية) بأربعة ملايين يهودي من المعدمين الباحثين عن عمل وحرية في بلدان الحضارة الغربية حيث توجهت غالبيتهم الى الولايات المتحدة الامريكية ، وتوزع

الباقي في بلدان اوروبا الغربية وفي مناطق اخرى خارج القارة مثل
، اوستراليا وجنوب افريقيا .
هذا التدفق البشري اليهودي هو الذي اثار لعاب السادة اصحاب المصالح
" في الشرق" لاستثمار هذه المادة البشرية الخام ، ولقد تواطأ
معهم اقرانهم " البارونات" الذين كانوا يقضون معهم " شهر العسل"
الاستعماري ، تآمر هؤلاء رؤوسهم ومثلوا دور الاثنياء مختفين خلف
هذه الرؤوس مصالح السواصم الاستعمارية الكبرى .
كان الوضع الدولي آنذاك ، في الربع الاخير من القرن التاسع عشر
يتسم بالحساسية البالغة في العلاقات والتحالفات تصل الى حد الارانة
فتحت ضغط الدولة الالمانية الجديدة في القارة الاوروبية وهزيمة
الفرنسيين امام بسمارك، عادت المصالح الفرنسية من الشقاق الى
الالتحام مع المصالح البريطانية . وأوعز الفرنسيون للانكليز بأنهم
يرغبون في ان تشاركهم بريطانيا في قناة السويس وذلك لشراء حصة
الخديوي (١٧٧) الف سهم . اخبر دزرائيلي ، رئيس الوزراء ، المكلة
فكتوريا ان " الحكومة الفرنسية لاتنصب الراتيل في هذا المجال"
وهم يتمنون مناصرتنا " ضد بسمارك" فوافقت الملكة . وتمت الصفقة
لصالح للحكومة البريطانية بأموال ليونيد روتشيلد . " ومن السيد
دزرائيلي الى جلالة الملكة مع اخلص واجبات الاكرام والخضوع :" لقد
قضي الامر ، ستحصلين سيدتي على اربعة ملايين جنية ... وقد يتم تسليمها
على الفور آل " روتشليد" وحدهم يستطيعون تلبية مثل هذا الطلب . وقد

تعرفوا تعرفا راشا فتدموا المال بفائدة ٥ر ز ييدة · وها ان حصة الخديوى بكاملها ملك يديك سيدتي " · والذى اطرب الملكة اكثر ان الصفقة ستكون صفعة لبسمارك الذى كان قد اعلن " بوقاحة " قبل ذلك " ان بريطانيا لم تعد دولة سياسية "(١) وبدأ بسمارك من جهته يقترب من قيصر روسيا ومن السلطان العثماني · كان جميع الفرقاء يرغبون في تدلمة تـ اكبر من لحم المملكة العثمانية ولكن الجميع كانت لديهم اسباب واقعية لاخفاء مثل هذه الرغبة ولكن مع المثابرة للعمل لها ليلا ونهارا" ·· الانكليز كانوا يختبئون خلف البارون ليونيدروتشليد ، وهذا بدوره يختبئ خلف جمعيات" احباء صهيون" · والفرنسيون كانوا يختبئون رؤوسهم خلف بارونهم (أدمون دى روتشليد) · وهذا بدوره يختبئ خلف جمعية " الاليانس" والالمان كانوا قد اعادوا تنظيم امورهم مندفعين باتجاه ابتلاع السلطان بكامله تحت ستار التحالف ، ولكنهم في نفس الوقت قد اسسوا من جديد "جمعية" الاستيلان" الذى كان يمولها البارون الالماني النمساوى الجنسية ·(موريس دى هيرش) كل شيء كان يتعلق بالاحتمالات وبمزاج العروس "السلطان"وجميع الناس) كان لديهم بدائل ، الارجنتين ، فلسطين ، اوغندا ،وربما تكون صفات مثل اجدبه عبيد ، دون كيشوت ، مستفرهوة في البداية عندما تلصق بذاك الذى تتصدر صورته قاعة مبنى (الكنيست الاسرائيلي)تيودور هرتزل" الذى يوصف بأنه مؤسس الحركة الصهيونية ولكن مثل هذا الاستغراب يذوب شيئا فشيئا بمجرد ان يشرع المرء بقراءة ذلك المقال البالغ الاهمية والممتع الذى كتبه الباحث

---

(١) - سيرة دزرائيلي - المصدر السابق - ص· (٣٠١ - ٣٠٢)

المعروف في الشؤون فلسطينية تحت عنوان" عقدة تيودور هرتزل : بين الحلم توم ودون كيشوت "[1] . في هذا البحث نقرأ أن الحركة الصهيونية "كانت قبل مؤتمر بال مكتملة تنظيميا وماليا ولم ينقصها الا من يتزعمها نجاء هرتزل يشغل مركز الزعامة " . فلم يكن هرتزل في الواقع الا " واجهة مؤاتية للحركة الصهيونية يبعد الانظار عمن وتفوا فعليا وراءها "[2] .

فقد تشكل المؤتمر الصهيوني الاول من ممثلين عن الجمعيات الثلاث " احباء صهيون" و " جمعية التوطين اليهودية " ولاتحاد اليهودى العالمي الفرنسي" . وكانت هذه الحركات الثلاث قد قامت بجميع الترتيبات لعقد المؤتمر في حين " طلب من هرتزل الدعوة الشكلية اليه والاعلان الرسمي عنه" لان الجهات الحقيقية خلف عقد المؤتمر لم تكن تريد الاعلان عن نفسها لاسباب مفهومة : "ولاشك في ان انعقاد هذا المؤتمر لو تم باسم ممثلي جمعية روتشيلد وهيرش ، لكان آثار شكوك الحكومات الاوروبية المتنافسة على فلسطين وشكوك السلطنة العثمانية على مستوى عال . وربما من شأن ذلك اعاقة نمو الحركة الصهيونية " . فهرتزل لم يكن احد يأخذ على محمل الجد . فقد سبق له واعلن بشكل اعتباطي انه ينوى ان يشترى فلسطين " قانونيا من السلطان العثماني مقابل مليونى جنيه" . وبناء على هذه المواصفات " ترأس هرتزل المؤتمر الصهيوني الاول والثاني والثالث ... وتزعم الحركة ظاهريا بأنه

---

(١) ش . ف ـ عدد ١٥ تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٧٢ ـ ص ٧٦

(٢) ـ المصدر نفسه ص ٦٧

يتكلم باسمها ويقيم " المناورات الدبلوماسية " بصفته ممثلها

في حين امتنع القادة الفعليون للصهيونية عن تتبع عيونه على وقائع

الامور فاستمر يعيش باحساس عظمته الدون كيشوتيه حتى وفاته ". (١)

لقد اختير هرتزل ودفع الى الواجهة بسبب ميزات شخصية كانت مفيدة

تماما في تلك الظروف الدولية البالغة الحساسية . وفي مقدمة

تلك الميزات، مزاجه الخيالي المضحك ، واستعداده للاستخدام من قبل ا

الاخرين بسبب جهله بحقائق الامور . ولم تكن شطحاته الخيالية مجهولة

بالنسبة لمعاصريه ." فقد كان يستنبط المشاريع الواحد تلو الآخر

والتي كان يأمل بأن تتبناها الدول الاوروبية والفاتيكان " .

ولم يكن هو في الواقع اكثر من " كاتب اقاصيص تافهة " لكنه بسبب

مزاجه الدون كيشوتي ، كان " يأمل دوما بأن يرتقي الى مكانة

لها تأثيرها في السياسة الدولية " وعندما اصدر كراسه (الدولة

اليهودية) " قابلته الاوساط اليهودية في فينا بالسخرية " .

وسجل في مذكراته (١٨ شباط) ان استاذ جامعة فينا اليهودي

(نابليوغن) جاء لزيارته ليسأله ان كان الكراس " مقصودا به الجد

ام كان مجرد تقديم ساخرلاذع للصهيونية " .كما أنه قد سجل في مذكراته

لتلك الفترة عن اشاعة سرت بين الناس تقول " ان هرتزل قد اصبح

مجنونا " . (١)

وبسبب من جهله ومزاجه الخيالي فقد اعتقد (هرتزل) انه هو الذي

اكتشف الصهيونية . اذ من المؤكد انه " لم يكن يعلم بوجود المنظمات

---

(١) - المصدر السابق - ص ٧٦ - ٧٧

(٢) - " " - ص ٧٥

الصهيونية المديدة في جميع البلدان آنذاك ،كما لم يدرك ان ثمة من سبقوه الى " اكتشاف" الصهيونية وعلى رأسهم اليهودى الروسي ليونبسكر الذى كتب كراسه عن الموضوع منذ عام ١٨٨٢" . كما أنه كان يجهل تماما ان هناك عمليات استيطان في كل من " الارجنتين وفلسطين بتمويل من البارونين هيرش وروتشيلد كانت قد بدأت منذ عام ١٨٨١ "(١).

كان اول من كشف عن تلك الخصائص المفيدة في شخصية هرتزل اصحاب الملاءة الاصلية ، البارونات . فقد فهم مما كتبه هرتزل في مذاكراته على اثر مقابلة مع البارون دى هيرش عام ١٨٩٥ ان البارون اعتبره مثل " دون كيشوت" . وبعد اكثر من سنة من الملاحقة والالحاح حظي بمقابلة مع لـ لبارون ادمون روتشليد عام ١٨٩٦ وقد سجل ايضا على اثرها في مذاكراته ما يدل ان البارون اعتبره ساذجا مثل " برنار الناسك" ولكن رغم ذلك فقد عمل البارون على ا تشجيعه بشكل غير مباشر لانه لم يكن يريد " ان يرتبط اسمه بالنداء العلني من اجل انشاء دولة في فلسطين حيث كانت المستوطنات برعايته تحت رحمة الحكومة العثمانية "(٢) ولهذه الاسباب اوعز البارونات الى رجالهم القادمين من روسيا أو من ت المستوطنات في فلسطين، المرور وهم في طريقهم على هرتزل واشعاره انه زعيم الحركة . ويظهر ان احدى المقابلات الهامة هي التي حسمت الامر لصالح زعامة هرتزل . ففي ١٨٩٦ مر في فيننا زعيم جمعيات " احباء صهيون" (مناحيم اوشيشكين) وهو في طريقه الى باريس لمقابلة البارون روتشيلد . وفي فيننا اشار عليه الزعيم الصهيوني

---

(١) المصدر نفسه - ص ٧٣
(٢) المصدر السابق - ص ٧٤ - ٧٥

(ناثان بيرنبادم) بزيارة هرتزل . وبعد ان تمت الزيارة سأله برنباوم عن رأيه في هرتزل فقال اوشتكين ان انه سيؤدي خدمات كبيرة الى حركة فلسطين . فجاذبية شخصيته ستجتذب دون شك جميع اليهود الروس وربما يهود اوروبا الغربية ايضا . وعنده نقص كبير واحد ولكن هذا النقص من شأنه بالواقع ان يكون مفيدا جدا في الظروف الحالية فهو لا يعرف شيئا على الاطلاق عن اليهود . وهو لذلك يعتقد ان الصهيونية لا تواجه سوى صعوبات خارجية وليس صعوبات داخلية ويجب الا تنفتح عيناه . وبذلك يبقى ايمانه بقضيتنا كبيرا " .(١) ومن الواضح ان ما هو " مفيد جدا في الظروف الحالية " يجب ان يتعدى جهل هرتزل باوضاع اليهود الى العلاقات الدولية المعقدة آنذاك . فهرتزل باعتباره من أصل الماني كان في البداية يضع أمله في ان توافق الادارة الالمانية على مشروعه ، وكان يقوم بمساعي دائمة بهذا الخصوص . ومن المحتمل انه في المقابلة مع اوشتكين قد اطلع زعيم " احباء صهيون" على برنامج " جمعية اسرائيل الفتاة " الالمانية التي انشئت في برلين منذ عام ١٨٩٣ . وبرنامجها منقول حرفيا تقريبا عن برنامج " حركة الجامعة الالمانية " التي كان يتزعمها المناصر الالماني الباحث عن المستعمرات (كارل بيترز) . وكان برنامج اسرائيل الفتاة ينص على :-

١- ضرورة عقد مؤتمر عام يمثل يهود العالم لصياغة الاقتراحات المناسبة ل

٢- اقامة منظمة صهيونية موحدة

٣- انشاء صندوق تمويل للحركة

---

(١) ـ المصدر نفسه ص ٧٦

٤- احياء اللغة العبرية

٥- اعادة تنظيم النشاط الاستيطاني في فلسطين (١).

وباعتبار ان هذا البرنامج هو الذي قد تم اقراره في مؤتمر بال فيما بعد (١٨٩٧) اذن ، يجب ان نفترض ان اوششكين قد وجد في هرتزل صديقا ثمينا وشجعه على السير في مسعاه قدما واوصى بزعامة عند البارون روتشيلد في باريس . لان برنامج هرتزل الالماني يحقق الصهيونية الانكليزية والفرنسية ، وفي نفس الوقت يخلق جوا غير مريح بالنسبة للتحالف الالماني - التركي . لان السلطان لابد ان يتأثر من كون " لغة المؤتمر المانية » وبرنامج المؤتمر الماني ايضا .

من المؤكد ان هرتزل كان مثل الزوج المخدوع " لايعرف شيئا على الاطلاق" وبالذات " عن اليهود " الذي ينوي ان ينشىء لهم دولة في فلسطين وهذه شهادة موثقة من زعيم جمعيات احباء صهيون التي كانت تعتبر الاساس في بناء الصهيونية اليهودية .

واعتقد ان هناك شيئا من تجاوز الواقع عندما يوصف هرتزل من قبل " صادق جلال " العظم بأنه منكر او منظر قومي " كان مدركا طبيعة التنافس الضاري القائم بين البورجوازية اليهودية في كل مكان والبورجوازيات المحلية " (٢) . لان مثل هذا الوصف لايوجد له سند في تاريخ هرتزل .

---

(١) - الصهيونية وحقوق الانسان - المصدر السابق ص ٣٨-٣١-٤٠

(٢) دراسات يساريه - المصدر السابق - ص ٩٦

(ارض الميعاد ليست خيارا يهوديا)

" كذلك تبحث البورجوازية اليهودية بايجاد ارض لنفسها " ولما كانت الارض او السوق لايمكن توفرها في اوروبا " اتجهت الانظار الى الخارج يوغندة - الارجنتين - فلسطين "[٢] . هكذا رأى الدكتور الصالح ان يتصور عملية الاختيار للارض وكذلك الجهة التي اختارت . بينما الوقائع تؤكد ان اختيار الارض الموعودة " لم يكن اختيارا بورجوازيا يهوديا ولااختيارا عموما . فالاختيار كان يتأرجح حسب سير المصالح الدولية وعلاقات القوى المتزاحمة على تلك المصالح. (وحكاية اختيار الارجنتين هي حكاية المانيا الخالصة ، كان فيها البارون " دى هيرش "[٣] رأس حربة ضد مصالح الفرنسين والانكليز التي يمثلها آل روتشيلد . وحكاية " اوغندة " هي حكاية انكليزية خالصة . فقد اقترحها على هرتزل في حينه وزير المستعمرات البريطاني (جوزيف شمبرلين) : وخلال مقابلة هرتزل مع الوزير البريطاني في ٢٣ نيسان - ١٩٠٣ قال تشمبرلين : (لقد وجدت لك ارضا خلال سفراتي وهذه الارض هي اوغندة انها حارة عند الساحل ولكن المناخ يصبح ممتازا في الداخل ، حتى بالنسبة للاوروبيين ويمكنكم فيها ان تزرعوا السكر والقطن . وقلت لنفسي هذه ارض مناسبة للدكتور هرتزل "[١] . ومفهوم من السياق " حتى بالنسبة للاوروبيين " ان شمبرلين ، السفري ، لم يكن يعتبر يهود روسيا وشرق اوروبا اوروبيين . وكذلك لم يكن التراجع عن اقتراح يوغندة تراجعا يهوديا او بورجوازيا يهوديا ، وانما انكليزيا خالصا . فقد " تبنى على

---

(١) - شؤون فلسطينية عدد ٢ - مايو (ايار) ١٩٧١ ص ١٠٤

(٢) - دراسات يسارية - المصدر السابق ص ٨٩

(٣) - محمود امين عبدالله - مشاريع الاستيطان اليهودي - المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب - الكويت ١٩٨٤ ص ١٩٧ - ١٦٨

المشروع ((يوغنـــدة)) تدريجيا لاباردة اليهود وتعلقهم العاطفي بفلسطين وانما بسلسلة من الحركات التكتيكية التي اجرتها المصالح المالية الاشتعمارية العظيمة النفوذ في الامبراطورية البريطانية ٥ وعليه " فلم يكن اليهود هم الذين غيروا فكرهم ايمانا وتعلقنا بفلسطين بل وزارة الخارجية البريطانية " ٠ والدليل انه لم يكن هناك امر للذين اليهودي او " المصالح التوارتية " كما يزعم بنتونتيين " ان الحزب الديني المزراحي قد صوت ايضا (في المؤتمر السادس) في جانب مشروع يوغندة ولم يجد حراجة دينية او عاطفية في صرف ذهنه عن فلسطين وارضها المقدسة " ٠(١)

ضفدباجا ٠ وقد الجد تبين ان ارتباط " هذا الشعب بهذه الارض لم يكن (يهوديا أو بريطانيا يهوديا) كما تصورا لدكتر (المظم) بل ارتباطا ارتباطا بريطانيا خالصا ٠٠ وافضل من يروى قصة هذا الاختيار حاييم وايزمـــن الرجل الذى تسلم الراية الصهيونية بعد هرتزل ٠ وهو رجل عملي والحق يقال ٠ ولايعاني من اية تأثيرات دينية البتة ٠(٢) لقد قال وايزمن ٠ وهو يخطب امام مجموعة من الصيونيين سنة ١٩٢٧ ٠ " لقد اصبح هرتزل صهيونيا فلسطينيا في اللحظة التي قال فيها المندوبون من كيشنيـف " لا " في المؤتمر الذى درست فيه قضية اوغندة " وكان يشير الى المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣) الذى قاد فيه المعارضة لمشروع اوغندة ضد هرتزل ٠ زعيم (احباء صهيون) مناحيم اوسشكين الذى كان قبل عدة سنوات قد توسم فوائد جمة من تزعيم الذى " لايعرف

(١) ـ المصـــدر السابـــق ـ ص ١٠٧ ـ ١٠٨ ـ ستشرن عدد >

(٢) ـ الايديولوجيا الصهيونية ـ المصدر السابق ج ٢ ـ ص ٢١٥

شيئا على الاطلاق" على الحركة مرحليا . وكان المؤتمر قد عقد في نفس

العام الذى حملت فيه مذبحة لاسامية جديدة في مدينة "كيشينيف"

الروسية ويتابع وايزمن : لا انني استطيع ان اتذكر هرتزل يقول بعد

التصويت :" لاستطيع ان افهم ذلك ، فالحبل لايزال ملتفا حول اعناقهم [

يقصد المذبحة] ومع هذا فانهم يقولون " لا" . نعم ان الحبل كان

(ومايزال) حول اعناقنا . ومع ذلك قلنا " لا" لاننا ادركنا جيدا بأن

الحكومة البريطانية نفسها ستقدم لنا عرضا آخر . ولهذا وبالفعل قدمت

لنا ذلك العرض" . ويروى وايزمن انه سافر بعد المؤتمر الى لندن

وقابل هناك في مقر الحكومة البريطانية " بيرسي مدير دائرة المستعمرات

الافريقية " وان ذلك الرجل الهام أفهمه ان فلسطين افضل :" لقد قال

هذا الانكليزى الذى ينحدر من انبل العائلات في هذه البلاد ومن المسيحيين

المتدينين :" لو كنت يهوديا لما قدمت قرشا او رجلا في سبيل هذه

القضية (اوغندة) لانه لايمكنكم استبدال فلسطين بأية بلد

اخر" . ويضيف وايزمن انه كتب لهرتزل عن هذه المقابلة ويجعل

وقعها في نفسه :" كانت معرفة هذه الحقيقة اعظم مأساة بالنسبة

لهرتزل ، ولكنها كانت في الوقت نفسه اعظم تجربة له . وهكذا

اصبح هرتزل من الداعين لفلسطين " . (١)

فساد من الغرب وجنود من الشرق

ان يقال عن الصهيونية انها المسألة الوطنية او بالتحديد " ليست

الا المسألة الوطنية التي خلقتها البورجوازية اليهودية الاوروبية لنفسها

---

(١) ـ الفكرة الصهيونية ـ المصدر السابق ـ ص ٢٤٩

(٢) ـ دراسات يسارية ـ المصدر السابق ـ ص ٨٦

كما فكر الدكتور المظلم ،"فذلك كما ظن ليس له سند منطقي على

الاقل،فلكي تكون لجهة ما " مسألة وطنية" يجب في البداية ان يكون

لديهم وطن يعاني من مشكلة او مسألة . اما التفكير بنهب اوطان

الآخرين فله اسم آخر . واسمه معروف انه الغزو الاستيطاني الابيض .

او المسألة الاستيطانية الاستعمارية مثلا .وعندما يكون الامر كذلك

فيجب ان تترك مثل هذه "المسألة " لاهلها اعني للقادرين عليها

اذ لايعقل ان فئات من البشر من حجم نصف اوربع بالمائة من سكان دولة ،

كما كان حال اليهود الاوروبين اصحاب الطاقة في لندن وباريس وبرلين

يستطيعون القيام بمثل هذه المغامرات الجبارة فيما وراء البحار .

والقادرون عليها هم المشرفون على عملية الانتاج الجبارة . انهم

اصحاب البواخر والقطارات والجيوش المجهزة بالحديد والنار واصحاب

المصانع والمناجم ، والباحثون عن المواد الخام لمصانعهم و

اسواقهم ... والخ .

والعملية برمتها في اذهان مثل هؤلاء الطغاة ، اعني عملية استعمار

فلسطين بواسطة اليهود ، لم تكن في تصورهم الا استعمارة عسكرية لحماية

طريق التجارة او قناة السويس او خطوط البترول فيما بعد . ولم تكن

تصوراتهم طوباوية مثلما كانت شطحات هرتزل ،فهم مثلما زرعوا

حصدوا ، والذي لايرى كم كانت غلتهم وفيرة منذ بناء هذه المستوطنة

ومن ثم الدولة لايرى شيئا او لايحب ان يرى شيئا .

كان المطلوب هو بناء استعمارة عسكرية على شكل دولة تمول نفسها بنفسها

والامبرياليون كانوا يخصصون ليهودهم دور النباط تادة الفصائل اما الجنود فمن يهود الشرق [(٤)] ، من المميين القادمين للبحث عن العمل في الغرب . والصهيونيون اليهود الاوائل في الغرب كانوا قد فهموا دورهم بالضبط على هذا النحو .

ويؤكد تاريخ علاقة بريطانية بهذا المشروع انها لم تكن تطلب من اليهود البريطانيين اكثر من تقديم " القيادة " حتى تبدو الحركة وكأنها حركة يهودية " نابعة من شوق اليهود الملتهب الى صهيون " . وكان واضحا منذ البداية ان اليهود الغرب " لم يكونوا على استعداد ليكونوا المواد الأولية لهذا المشروع " فالمواد الاولية الملائمة والمناسبة هم يهود روسيا وشرق اوروبا " ولهذا كانت بريطانيا ترسل مبعوثها الى التجمعات اليهودية في هذه البلدان لتمريض يهودها على قبول فكرة العودة الى " ارض الميعاد " او " ارض الآباء والاجداد "[(١)].

لانه " من الصعب كما يؤكد القس جيمس نيل - ان يستطيع الانكليز استعمار فلسطين بمثل النجاح في امريكا الشمالية بسبب الحر والمصاعب التي يخلقها العرب وعدم وجود حماية فعالة وغير ذلك " ولذلك كان " استخدام اليهود لهذا الغرض " وهو يقصد يهود الشرق يحقق جميع الشروط المطلوبة [(٢)]

فالصهيونية الغربية ، صهيونية لندن وباريس وبرلين ، رأت في يهود روسيا وشرق اوروبا " ذلك الفائض السكاني المتوجب نقله الى ماوراء البحار وتوطينه في ارض جديدة - قديمة ، يرتبط اسمها بالذكريات الدينية " [(٣)].

ويشرح هذه الفكرة تبسيط زائد لايدع مجالا للالتباس الصهيوني الالماني (آدولف فريدمان) ، فيقول : " ان الصهيونيين الالمان ، والاوروبيين الغربيين منهم بشكل عام ، هم قادة الحركة الصهيونية وضباطها بالفعل فالصهيونيون الروس والبولونيون تنقصهم الخبرة السياسية ، ويعيشون في

---

(١) - اسرائيل خنجر امريكا - المصدر السابق ص ٥٧ - ٥٨

(٢) - احذروا الصهيونية - المصدر السابق - ص ٣٥

(٣) - الصهيونية وحقوق الانسان - المصدر السابق - ص ٤٠

(٤) - ش . ث - عدد ٩ - كانون الثاني (نيار) ١٩٧٢ - ص ٤٥

ظل انامة غير حرة ، لذا تقع علينا مسؤولية القيادة والتوجيه ....
والحركة الصهيونية يجب ان تكون منظمة ديمقراطية على الورق فقط .
اما على صعيد الواقع المحلي فان الاقلية التي يشكلها الصهيونيون
الغربيون هي التي تأخذ على عاتقها مهمة طبع الحركة الصهيونية الجامعة
بطابعها الخاص.(١) وفي المؤتمر الصهيوني التاسع (هامبورغ ١٩٠٩)
قال الزعيم الصهيوني الالماني (فرانز اونبهايمر) الذى كان من اكثر
المتربين الصهيونية (الصهيونية كناية عن عملية نشرف نحن فيها على
الاخراج ويقوم اليهود الشرقيون بالتمثيل والتنفيذ (٢).
وفي ١٩٢٢ عندما كان وايزمن يخطب امام عدد من الصهيونيين الروس
قال :" لم يكن هرتزل يعتقد ان بامكاننا ان نكون قوادا للحركة الصهيونية
بل كان يعتقد اننا (يهود روسيا واوروبا الشرقية) سنكون اداة تستفيد
منها الحركة الصهيونية الغربية "(٣). وواقع ان وايزمن، الداعية ، كان
يخدع مستمعيه ، لانه انذاك لم يكن قائدا للمنظمة الصهيونية العالمية
باعتباره روسيا من ليتوانيا ، وانما باعتباره انكليزيا بالجنسية
واحد ابرز المقربين من وزارة الحرب البريطانية وادارة الاستخبارات
البريطانية .
لقد حاول الصهيونيون اليهود الاوائل في الغرب ، وخاصة تلك الرؤوس
القريبة من الدوائر الاستعمارية ، ان يظهروا وكأن لديهم " مسألة وطنية "
وقد خدعوا ببراعاتهم التمثيلية الكثير من المستمعين والمشاهدين
والحقيقة انه لوجمع آنذاك كل ما في جيوبهم من نقود لما كفي ذلك البناء
كوخ في فلسطين، ناهيك عن بناء مستعمرات ومن ثم جيوش محاربة .....
وهلمجرا ...

---

(١) المصدر - ص ٤١ - الصهيونية وحقوق الانسان - السابقة
(٢) المصدر السابق ص ٤١
(٣) - الفكرة الصهيونية المصدر السابق ص ٤٥٠

محاولات في التلتين الايديولوجي /

يجب التذكير مجددا بقوله المؤرخ (فرانزكوبلر) انه في بريطانيا " اكثر من اي مكان آخر" استمد كبار الناطقين بلسان اجيال عديدة " وحيهم من رؤيا اسرائيل المنبعثة من جديد " . لانه في بريطانيا بالذات وبالاضافة الى جميع الوسائل المادية او السياسية التي استخدمت بهدف تنفيذ المشروع الصهيوني ، يمكن ان نعثر على اول استخدام للوسائل الفنية الادبية في محاولة واضحة لايحاء او بالاصح للتلتين لايديولوجي لاولئك الناس اليهود ، الذين سيكلفون " بالتمثيل " او الذين سيكونون " اداة نستفيد منها الحركة الصهيونية الغربية " ع ولقد طبقت مثل هذه التجارب في بريطانيا بواسطة الادب الروائي . وفي الوقت الحاضر يصعب تصور تأثير الرواية بسبب طغيان الوسائل الاخرى المعروفة . ولكن من الضروري التذكير ان ابطال الروايات عند منتصف القرن التاسع عشر كانوا يشبهون او يزيدون قليلا عن المعنى " النجومي " لابطال السينما مثلا عند منتصف القرن العشرين . فأبطال الروايات كانوا آنذاك قدوة او حلما للقراء او للشباب في افكارهم واقوالهم ومسالكهم . ومن هذه النظرة للرواية في ذلك الوقت يمكن تصور تأثير رواية عندما تكون مثقلة بالافكار الايديولوجية التي يتم تعميمها بشكل مخطط وعلى نطاق عالمي .

في بريطانيا كان القرن التاسع عشر هو قرن اندماج اليهود في المجتمع البورجوازي البريطاني مثلما كان الامر او أفضل قليلا مما هو عليه الحال في بقية البلدان الاوروبية . وقد تجلى هذا المعنى الاندماجي لليهود عند بداية القرن في رواية (ماريا اوجورث) المسماة " هارنجتون" . حيث ظهر فيها لاول مرة في الادب الانكليزي " شخصية يهودية طيبة " تعبر تمام التعبير عن روح العصر البورجوازي . وفي ١٨١٩ نشر (السيروالتر سكوت) روايته "آيفنهو" وهي تضرب على الوتر ذاته وترفض الموقف

العنصري من اليهود وتدعو للاندماج .

لكن في عام ١٨٣٣ سيكتب (بنيامين دزائيلي) " الصهيونية " الاولى باسم " دافيد الروي " . في هذه الرواية يقوم درزرائيلي بعملية الرتكاس يختال فيها الشخصية اليهودية التي طرحتها (هارنجتون) لانها شخصية قد تكون مقدمة لدعوة للاندماج ، ويطرح بالمه اليهودي طرحا عنصريا عنيفا ، هو في الحقيقة الوجه للعملة الهتلرية الدامية التي ستظهر بعد قرن[1] . من هو هذا الروائي الذى يرفع شعارات يهودية جديدة ، التعصب ، العنصرية ، رفض الاندماج ، الغزو ؟ .. انه السياسي البريطاني " المعمد " ومن اصل يهودي (بنيامين درزرائيلي ١٨٠٥ -١٨٨١) النائب في البرلمان منذ عام ١٨٣٧ ، وعضوا الوزارة البريطانية ثم رئيس وزراء بريطانيا مرتين (١٨٦٨ و ١٨٧٤) ، وفي زمن رئاسته ضمت الهند رسميا الى التاج البريطاني ، وهو الذى مهد لاحتلال مصر بالعمل على شراء اسهم الخديوى في قناة السويس بأموال روتشيلد لحساب الحكومة البريطانيـة .

ان اعظم مهندس لسياسة بريطانيا في زمن عظمتها الامبريالية وانتشارها الاستعماري في العالم ، كانت لديه في اوقات فراغه هواية تختلف عن هوايات الساسة الآخرين ، وهي تأليف الروايات . كان في اوقات فراغه يفكر بالمسألة الشرقية وبطريق الهند . لذلك ، وبدلا من ضياع الوقت بلعب الجولف او ركوب الخيل او الصيد ، على طريقة الساسة الآخرين فقد كان يشغل وقته بصناعة بطل يهودى " صهيوني " ويضع على لسانه ما يجب على كل يهودى ان يتعلمه ويعتنقه ويعمل بموجبه .....

وبلا تطويل ، اراد ان يقول لليهودي القادم من روسيا واوروبا الشرقية الباحث عن الحرية ولقمة العيش ، والهارب فعلاً من تحت النير الاقطاعي

(١) - كنفاني غسان - في الادب الصهيوني - مركز الابحاث - بيروت ١٩٦٧ - ص ٤٤

والمذاهب الاسلامية ، اراد ان يقول باختصار : اسمع ، انت نصف اله ، اجدادك اعطوا للعالم آلهته ، من هو اله المسيحيين ؟ انه يهودي ، ان هؤلاء الاوروبيين الذين يقابلونك بسخرية انما يغارون منك لانك اكثر اصالة وانقى دما واحسن دينا .. هل تعلم ماينقصك حتى تستعيد مجدك السابق وتصبح اعظم من جميع البشر ؟ .. ينقصك ان تستنشق حسامك وتذهب لتحرير ارض ابائك وأجدادك . انه ينقصك فقط ان يكون لك وطن وان يكون بيدك سيف وعند ذلك سوف ينحني جميع الناس تسليما لك نقاد روايته " دافيد السروي " قالوا في حينه ان دزرائيلي اراد ان يقول باختصار ان "اليهود هم المهيأون الوحيدون لقيادة الكون" وكان تركيزه الاساسي على المزج بين " العرق والدين " وكان مفهوما ان " المركز الروحي" الذي يشير على اليهود ببنائه هو فلسطين او " ارض التوراة " [1].

ان الافكار التي وضعها دزرائيلي على لسان ابطال رواياته "دافيد آلروي" و "تانكريد " ١٨٤٤ والتي يمكن قراءتها متناثرة في ادب الكتاب الصهيونيين عند نهاية القرن واعرض فيما يلي عينات منها :-

يتأثر البطل (آلروي) بما يعانيه اليهود من بؤس ، فيقول: "يا آله آبائي .. اني لااجرؤ على تسميتك اله ابنائهم الاشقياء ... ان خادمك اسرائيل يارب هو الآن عبد مهان ومذعور .... واسفاه ..... انهم لايعانون ، انهم يتحملون ولايشعرون" [2]. ويخاطب آلروي أحد اليهود الاندماجيين (حنين)، وهو من اتباع فلسفة مندلسون، فيقول :(ان العالم مريح لك يامولاي حنين ولكن لو كنت مثل اخوانك تعامل بالكف واللعنة بدلا من الانحناءات والتبريكات ، لو كنت تنهض كل صباح لتشعر ان وجودك ذل وترى نفسك مشارا اليك ببنان الكره والتدرية . لوكان خلك مثل خلهم في جرجرة حياة مهينة بليدة ، يائسة وبلا هدف ،وليس

---

(1) المصدر السابق - ص ٥٠ .

(2) الراهب هاني - الشخصية الصهيونية في الرواية الانكليزية مركز الابحاث - بيروت ١٩٧٤ - ص ٤٠

فيها سوى الحل من قيمتك فيما انت تنفر بشدة بقيمتك الاملية وتعرف جيدا عرقك التفوق ، عندئذ ، ربما يكتشف -نين انه لابأس بالنضال لاجل الحريــة والشرف [١] . وماهي المهمات التي يجب ان يعد نفسه لها هذا البدل " ؟ .... " يارب الجمود ، دعني اغزو او امت ... دعني اغـــزو مثل داوود او امت ، يارب مثل شاوول " . وهو ينذر المسلمين على لســان احد الابطال الروائيين : " سوف ثيب (ادفيد آلروي) على بواباتكم ، ويطحن ويدمر تماما كل مالديكم ، ولن يوفر احدا ، بل سوف يذبح الرجل والمرأة الطفل والرضيع ، الثـور والنعجـة ، الجمل والحمـار " . " تسألني ماذا اريد ؟ ... جوابي هـو ، وجودا قوميـا لانملكـه . تسألنـي ماذا اريد ، جوابي هو ، ارض الميعاد . تسألني ماذا اريـد ؟ .. جوابـي هـو القـدس [٢] " . وبعد ان يقوم البطل (دافيد آلروى) بقتـل " جوليات " الامير المسلم ، يصرخ " هه ... اخيرا انـا رجـل . هذه فعـلا هي الحياة .. فلأعش ذابحـا [٣] " .

وفي (تانكريد) يقول البطل (سيدونيا) : " التضية قضية عـرق .. كل شيء عرق ، وليس ثمة حقيقية اخرى " . واليهود " هم من جمتهم الطبيعة بالعبقرية كهبة الهيه ... انهم الوسطاء بين الله والانسان الصلـة الربانية التي تعطي للجنس البشرى انسانية " . ويقول سيدونيا : اعظم المشرعين موسى ، واعظم الملوك سليمان ، واعظم المعلمين يسوع ، وكلهم يهود . " اي عرق ، منقرض اوحي ، يستطيع انجاب مثل هؤلاء الثلاثة ؟ ... وتقول (ايفا) بطلة الرواية) ، : (نصف المسيحية يعبدون يهوديـة (مريم) والنصف الاخر يهوديا (يسوع) ... فمن تطن العرق المتفوق اذن العابد أم المعبود ؟ ... " [٤] والسبب الذى يدفع الاوروبيين لاضطهاد اليهود هو " الغيرة " " لابد ان احدى نتائج الحكم الالهي في هذا العالم

(١) - المصدر نفســـه - ص ٤١
(٢) - المصدر السابق - ص ٤٠ - ٤١ - ٤٣
(٣) المصدر نفســه - ص ٣٩
(٤) = = - ص ٤٨ - ٤٩

الذى قرر ان الهدف المقدس يجب ان ينجز بواسطة عروق بشرية مختلفة ، هي سخط غيور على الوحي الذى انزل على عائلة خاصة عرق . وبسبب " هذا السخط الغيور " ، حاول الاوروبيين باستمرار ان يدمروا اليهود ، ولكن عبثا . لهؤلاء يحميهم الله ، " اي ميزة ان يحمي " يهوه شعبه ؟ ... وهل يمكن ان يحميهم بأفضل من ان يهبهم قدرات تفوق قدرات الامم الاخرى التي يعيشون بينها ؟ .. " "الحقيقة هي انك لاتستطيع ان تدمر عرقا نقيا ... انه حقيقة فيزيولوجية، قانون بسيط من قوانين الطبيعة أعيا ملوك مصر وآشور والاباطرة الرومان والمفتشين المسيحين " .(١)

ويرد على لسان بطل رواية تانكريد قول له مغزى " لم يعد صعبا الوصول الى القدس ، الصعوبة الحقيقية هي التي عاناها الصليبيون ، ماذا تفعل بعد وصولك هنالك(٢) . وكان ذلك عام ١٨٤٤ اى بعد هزيمة محمد علي امام التحالف الاوروبي بزعامة بريطانيا ، وتبلور فكرة عودة اليهود الى فلسطين بحيث اصبحت من المسائل الجدية في السياسة الخارجية البريطانية .

والمغزى ان احد الممثلين للرواية ، ولكن بعد اكثر من قرن ، وهو اسحق رابين ، رئيس اركان الجيش الاسرائيلي ، وكان يتحدث بعد حرب حزيران ٧ ١٩٦٧ بمناسبة الذكرى الـ٧٠ للمؤتمر الصهيوني الاول ، فقال ان المملكة الصليبية والدولة الاسرائيلية قد عانت كل منهما من مشاكل متشابهة مثل مشكلة تعدد اجناس السكان ومشكلة الامن " وكان الصليبون محاربين مثل الاسرائيليين عرفوا ان امنهم كان يكمن في تفاقم لمقاومة الهجمات المعادية . ومملكة الصليب مثل مملكة نجمة داود فابعت امتدادها بواسطة الحرب لمدة طويلة بعد اقامتها " . واضاف : " ان القلق الذى شعر به يهود العالم على اسرائيل في حرب ١٩٦٧ ما هو الاصدى لخوف اوروبا على مملكة القدس عندما كانت تقع في خطر .. وكذلك كان تبعيتها الاقتصادية ليهود العالم شبيه بتبعية مملكة القدس لاوروبا(٣) . ويقول افنيرى وهو

---

(١) - المصدر السابق - ص ٤٧

(٢) - المصدر نفسه - ص ٥٦

(٣) - اسرائيل بدون صهيونية - المصدر السابق - ص ٦٦ - ٦٧

يعلق على حديث رابين : (لقد قال لي مؤرخ شهير انه يتوجب على الاسرائيليين ان يتخذوا من الاخطاء الصليبية درسا عمليا حتى لايكرروها " .

من جورج اليوت الى احباء صهيون /

في عام ١٨٧٤ سوف تأخذ مهمة التلقين الايديولوجي بالنيابة عن دزرائيلي الروائية البريطانية (جورج اليوت) وتضع روايتها الشهيرة " دانييل ديروندا" . حيث تظهر فيها الافكار الصهيونية اكثر تحديدا والاهداف اكثر وضوحا . واضع دراسة " الشخصية الصهيونية" هاني الراهب ، يلخص الاهداف السيكولوجيه والسياسية للرواية ، فيقول :"ان امكانية وجود انبياء وقادة بين اليهود ، على غرار العهد القديم ، تبدو واضحه فيها وكذلك تظهر الشخصية اليهودية والتراث اليهودى في اعلى مجدهما وشاعريتهما كما ان هدف انشاء جمهورية يهودية بحتة مرسوم ليس فقط بأمكانيـة وانما كواجب(١).

لم تكن اليوت بحاجة الى (تمهيد) لانها مسيحية ابا عن جد . وكانت حتى عام ١٨٤٨ فقط تحتقر اليهود " كل تاريخهم يقزز النفس تماما" ولاكل شيء يهودى على وجه الخصوص لهو من درجة وضيعة(٢)." لكن للضرورة احكام فقد كان رئيس وزراء بريطانيا مشغولا بأمور اكثر واقعية ، شراء قناة السويس والاشراف على تنظيم جمعيات " احباء صهيون" . لذلك تقدمت اليوت لتكمل الطريق .

في رواية (دانييل ديروندا) تتحاور الشخصيات الصهيونية وتشحن بالعواطف والافكار السياسية والقومية وتصبح مستعدة للانتظام في الحزب الصهيوني المنتظر " الحركة الصهيونية العالمية " .. ان (مور ديخاى) بطل اليوت يتحدث مثل (آلروى) بطل دزرائيلي : " منذ عهد الاسكندرية وما بعده كانت اكثر العقول تكاملاً هي العقول اليهودية " . ومثل دزرائيلـي

---

(١) ـ الشخصية الصهيونية ـ المصدر السابق ـ ص٥٧

(٢) ـ المصدر نفسه ـ وذات الصفحة

تؤمن المؤلفة بأن الدين اليهودي "قد تغلغل في تفكير نصف العالم وقولب الدين الرائعة لدين هذا العالم[١]" وفي ذلك الوقت البريطاني الحرج لم يعد الحديث الدائر مع المندمجين مقبولا كما كان يفعل دزرائيلي . ان المؤلفة تتخذ هنا موقفا متطرفا في حكمها الاخلاقي على اليهود اذ تعتبر ان كل من لايكون صهيونيا منحطا وبلا اخلاق "[٢] فهي تصف اليهودي المندمج بأنه شخصية وضيعة " انه مصاص دماء الجنس البشري ، انه ليس انسانا[٣]" . ويظهر اليهودي في الرواية وكأنه محتوم عليه بقوى جبارة اشبه ما تكون بقوة القضاء والقدر ان يكون يهوديا وحسب ولاشيء غير ذلك . تقول ميرا ، بطلة الرواية ، " سوف لن أكون شيئا آخر ابدا وانما اشعر انني يهودية " ويقول لها موريخاي - البطل - " لقد كان خالنا هو خادل اسرائيل " لايستطيع ان يكون شيئا آخر .
ان أبطال رواية اليوت هم " تجسيد لتلك الروح التي دفعت الناس بعد ارث طويل من اعتناق الكاثوليكية الى ان يتركوا الثروة والمكان الرفيع ويجازفوا بحيواتهم هربا (الى مكان آخر) فيما ينضموا الى شعبهم ويقولوا انا يهودي " . ويتضح بـ ايمان احد ابطال الرواية بانبعاث اسرائيل في رغبته بأن يكون له " حفيد يمتلك قلبا يهوديا حقيقيا " وأمله في ان ينشيء كل يهودي اسرته " وكأنه يأمل ان يبعث فيها مخلدا[٤] وتصور المؤلفة الشخصية القومية اليهودية وكأنها " قوة القدر ، وفيها قدامة لايمكن ان يعني الناس في طرقها ، انها النتائج التي يأتيها أجيال ولها جذور أعمق وأبعد انتشارا " وهذه القوى الفارقة والجذور الخفيف تجبر الناس " على الاقرار بقدسية الحياة اليهودية " . يتحدث بطل الرواية (ديروندا) الذي يمثل دورمرس الجديد " المنتظر " فيقول

---

(١) المصدر - السابق - ص ٥٨

(٢) - = نفسه - ص ٧٠

(٣) - " " ص ٧٥

(٤) - " " - ص ٧٤

" الفكرة التي تتملكني هي استعادة وجود سياسي لشعبي ، جعلهم أمة مرة اخرى ، اعطاؤهم مركزا قوميا ، مثلما للانكليز ... انها مهمة تتقدم الي كواجب ... وأنا مصمم على تكريس حياتي لها . على الاقل ، قد أتمكن من ايقاظ حركة في العقول الاخرى، مثلما ايقظت في عقلي (١) .

لقد كانت رواية جورج اليوت (دانييل ديروندا) رواية ايديولوجية بكل معنى الكلمة . فأبطالها تم شحنهم بالافكار والحجج والمبررات والسوالف لكي ينفصلوا كيهود عن مجتمعاتهم التي يعيشون فيها ومن ثم يعبئوا انفسهم لانجاز مشروع عودة اليهود الى فلسطين واقامة دولة لهم فيها من جديد . بل ان ابطال اليوت الخياليين ربما كانوا اكثر تعبا من الابطال الحقيقيين الذين سيظهرون على المسرح اليهودى بعد قليل .

ان الرواية عبارة عن مجموعة من الخطابات الصهيونية يتتابع ابطال الرواية بالقائها مبررين انفسهم ومبررين اهدافهم تجاه الآخرين وبسبب من هذه الادلجة المكثفة فان الرواية كانت ، حسب رأى النقاد من الناحية الفنية تافهة للغاية . ويقول غسان كنفاني ان "القسم الصهيوني " في رواية اليوت ، كما اصطلح النقاد على تسميته فيما بعد " يسقط في قعر البرود" فنيا ، وانه بدون تحفظ " فاشل تماما " . وكان هذا رأى هنرى جيمس اكثر النقاد رتخصصا بجورج اليوت . كما لاحظ ناقد آخر (ف . ليفز) ان هذا القسم - الصهيوني - الذى يهدف الى شحن اليهود بايماءات خاصة ،يتميز " بالذكاء الذي مكنها " المؤلفة) من ان تتنبأ كم يستطيع الانفصال القومي ان يؤثر على اليهود " (٢) وان اهم ما يميز هذا القسم هو " توفير كمية كبيرة من الايحاء " .

---

(١) ـ المصدر السابق ـ ص ٧٥

(٢) ـ في الأدب الصهيوني ـ المصدر السابق ـ ص ٥٥

يخاطب البطل (موريخاى) ، الذى يأخذ في الرواية دور النبي الجديد المخلص ، فيقول: " انا اقول بأن تأثير تفرقنا لن يكتمل ، ولن يصل الى ذروة تحوله دون ان يتخذ حنبسنا مرة اخرى شخصية قومية .... هذا بالضبط هو الكتيب الوحيد للامانة الدينية التي جعلت منا شعبا كانت حياته نصف وحي العالم .... والذى يهمني من تمزقنا وتشتتنا ؟ .. انّ الجوهر مازال قائما ... دع الرجال الاغنياء ، دع كبار التجار دع المثقفين ، في كل المعارف والخبراء في كل الفنون ، الخلفاء والسياسيين الاكفاء الذين يحملون في عروقهم الدم العبرى ودماغه العبقرية العبرية ، دعهم يقولون : سوف ننشيء مستوى عاليا ، سوف نتحد في عمل قاس ولكن مجيد ، مثل موسى وعزرا .... لديهم المال الكافي ليشتروا الارض من محتليها المنهارين ، ولديهم مهارة رجال الدولة ليبتكروا ، ولديهم لسان المتكلم يقنعوا .... ألا يوجد فيما بيننا نبي اوشاعر يجعل آذان اوروبا المسيحية تتسرع بالعار لما يلحق بالكفاح المسيحي الذى يلبس بالسر فيما يحدق اليه الاتراك كما يحدق مؤجر الحلبة لصراع الوحوش فيها ، هناك مخزن من الحكمة فينا يكفي لايجاد نظام يهودى جديد ، كبير وبسيط وتماما مثل القديم ، جمهورية تتوفر فيها المساواة في الحماية ...." وعند ذاك ، سيكون لجنسنا مركز عضوى ، قلب ودماغ ليحرس ويقود وينفذ .... سوف يحصل اليهودى المضطهد عند ذلك على دفاع في محكمة الشعوب ، كالانكليزى المضطهد والامريكي المضطهد ... وسوف يكسب العالم اسرائيل من جديد كما تكسب اسرائيل بدورها .... لان مجتمعنا سيكون مجتمعا في طليعة الشرق يحمل ثقافة واحاسيس كل الامم الكبيرة في ذروة ازدهارها ..... صعوبات : أعرف ان هناك صعوبات ، لكن دع روح التوثب تتحرك في الكبار من شعبنا وسيكون العمل قد بدأ[1] " .

---

(١) ـ المصدر السابق ـ ص ٥٧ ـ ٥٨

في هذا الخطاب تلتقي جورج اليوت ابطال المستقبل رزمة الاسس والاهداف دفعة واحدة : العرق والدين والتقاليد كأساس للقومية الصهيونية بالاضافة للبرنامج العملي الذى سيكون على اصحاب السلالة ، اصحاب التقاليد القيام بوضعه مستقبلا موضع التنفيذ . وكل ذلك مصاغ داخل اطار حق الرجل الابيض الاوروبي بفرض سيطرته على الآخرين وخاصة "مؤجر الحلبة لصراع الوحوش" السلطان الذى كان يسبب آنذاك انفعالا للادارة البريطانية بسبب من انحيازه نحو الالمان .

وقد كتب هاني الراهب وهو يلخص المدلول السياسي لهذا الخطاب ، فقال " على الصعيد السياسي العملي نستخلص من رؤيا "موردخاى" البرنامج التالي : (١) / التمويل من قبل الاغنياء اليهود

(٢) الاعلام والدعايـــــة

(٣) الاتحاد في شكل منظمة سياسية

(٤) استعمار فلسطين

(٥) واقناع الغرب ان اسرائيل ستكون صلته الثقافية بالشرق

وهذا بالضبط ما سوف ايصوغه دعاة الصهيونية في مؤتمرهم الاول عام ١٨٩٧ "[1] ولم يكن وصف رواية اليوت بأنها رواية ايديولوجيه مسألة استنتاج نقد اعتبرت الرواية من قبل أولئك الذين كانت موجهة اليهم في الاصل كذلك . ويكتب غسان كنفاني ، وهو يستند الى وثائق تاريخية " لقد كانت قيمة " دانييل ديرونذا " خدماته السياسية لتيار من التعصب كان يقف على مفترق الطرق ؛ فقد اعتبر ، لدى قادة ذلك التيار كتابا في غاية الاهمية فتبنوه ووزعوه واعادوا طبعه ونشره في اوروبـــا

---

(١) ـ الشخصية ت الصهيونية ـ المصدر السابق ص٧٦

وبعد اربع سنوات من ظهوره غيرت المدرسة النظرية

الجديدة في روسيا (سمولنسكين - غوردون - ليلتنبلوم)

رأيها في الاندماج وقررت تبني " النهضة السياسية القومية

كحل للمشكلة اليهودية - وهكذا " فقد تبنى هؤلاء الكتاب فورا

دانييل ديروندا : ترجموه الى العبرية واليديش والحقوا

به وجهات نظرهم السياسية الخاصة حول اعادة استعمار فلسطين [1]

وغزا الكتاب " بمخططات مدروسة " البيوت اليهودية .

وما ان ترجم للعبرية حتى اضحى " انجيلا صهيونيا " وكان اسم

جورج اليوت يسمع في الشرق ، لدى روسيا واوروبا الشرقية ،

مقرنا باسم موسى مونتفيوري - وادموند روتشيلد ، باعتباره من

" الاصوات المسيحية التي كانت تساندهم " [2] في الغرب . وفي عام

١٩٤٨ ، وقبل ان يذوب دخان الذارنة الفلسطينية اطلقت

حكومة اسرائيل اسم جورج اليوت على احد شوارع

تل ابيب . كما سجل في الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل لعام

١٩٥١ - ١٩٥٢ ان (دانييل ديروندا) كانت احدى الاسس

التي " أرست اسطورة بعث اسرائيل [3] "

---

(١) - في الادب الصهيوني - المصدر السابق - ص ٦٠

(٢) - دافيين غوريون - المصدر السابق - ص ١٤

(٣) - في الادب الصهيوني - المصدر السابق - ص ٥٤

اللاسامية وتكوين الوعي الذاتي :

ان الناس ، الايديولوجيين ، لا يفكرون عبثا . ولكن قبل ان نفتش في مكان اخر ، ~~بين الطبقات مثلا~~ ، أو نستنبط افكارهم ، يجب ان نسألهم نستقرؤهم ، لماذا فكروا وما هي ~~المناسبة~~

فالايديولوجيون الصهيونيون الاوائل جميعهم تقريبا يقولون بانفسهم أن اللاسامية هي التي أتت بهم الى الصهيونية . واللاسامية كما عرفها لينين هي (كراهية غير اليهود لليهود) وهذا ابسط واشمل تعريف لتلك الظاهرة التي عملت اوروبا من غربها الى شرقها اعتبارا من الثلث الاخير للقرن التاسع عشر ، وتجلت على شكل حملات ثقافية وسياسية وصحافية واحيانا احداث عنف موجهة ضد اليهود .

فتوتر العلاقة الاجتماعية بين اليهودي وغير اليهودي المحددة تاريخيا بتلك المرحلة ، كان له دور بارز ليس فقط كمناسبة لخلق تصورات عن مكان بديل أكثر أمنا والرحيل اليه ، وانما ايضا كمناسبة لاعادة خلق ذلك الشعور لدى قسم كبير من يهود اوروبا بانهم متميزون من غير اليهود . فاللاسامية هي في الواقع ، واكثر من اية وسيلة اخرى التي جعلت اليهودي اذا صح القول يعود الى يهوديته التي كان قد بدأ يهجرها منذ بداية القرن . ولا يوجد هنا شيء غير عادي . فجميع الناس عندما تسد في وجوههم سبل للحياة محددة يفتشون عن سبل اخرى جديدة . وقد لاحظ الدكتور المسيري ، بحق ، ان القوانين القيصرية اللاسامية ، (قوانين مايو الشهيرة في روسيا) ١٨٨٢ ، وهي القوانين التي حجرت على اليهودي في عمله وملكيته وثقافته وحتى في مسكنه ، هي التي اجبرت بعض قطاعات اليهود وبخاصة مثقفي البرجوازية اليهودية الصغيرة على الارتداد عن الاتجاه الاندماجي الى التفتيش عن حل في الصهيونية . وهكذا عاد يهود كثيرون ((مرة اخرى الى التلمود الذي كانوا يتناسونه ، وللتوراة التي التي كانوا قد توقفوا عن قراءتها ، وبدأوا في تعلم العبرية بدلا من الروسية))(1)

واذا كان قد تم في نهاية الفصل الاول الاستناد الى الحاخام سولومون شختير لتعريف الفكرة الصهيونية (الايديولوجيا) للبرهان على انها تضم (جميع صنوف الثقافة والفكر) وليس فقط ثقافة وفكر برجوازيين فمن الافضل ان نبدأ به . لانه هو الذي تصور ان الصهيونية (مثل اعلى) انما اتت به اللاسامية ، وليس المثل الاعلى الى حومته الصهيونية . وفي

---

(1) الايديولوجيا الصهيونية - المصدر السابق ج ١ - ص ١٩٢

مقاله السابق الاشارة اليه بالذات ، يبدأ مطلعه هكذا ((هناك قصة تحكي عن يهودى الماني من الجيل القديم تقول انه عندما جاء اليه اصدقاؤه في بداية الثمانيات من القرن الماضي [التاسع عشر] وسألوه عن رأيه بالهجمات الجديدة [اللاسامية] على اليهود ، اجاب بكل دهشة ((انها ليست جديدة ، انها الهجمات القديمة نفسها))[1] لا بل انه رأى في الصهيونية السبيل الوحيد ((لتخليص اليهود في اوروبا الشرقية))[2] من الاضطهاد الذى يلحق بهم . انها ، الصهيونية ، يقول شيختر ((اعلان الاستقلال اليهودى من كل انواع العبودية ، مادية كانت ام روحية))[3] ان وجهة النقاش هنا الا من بين ٣٧ ايديولوجي مؤسس الذى يحتوى كتاب ((الفكرة الصهيونية)) على خطاباتهم ، يوجد بينهم من الرؤوس الكبيرة عدد غير قليل لم تكن فلسطين ((ارض الميعاد)) تشده نحوها باعتبارها ((مثل اعلى)) ولكن لا يوجد بينهم ولا ايديولوجي واحد يستطيع ان ينفي ان اللاسامية كانت تدفعه من الخلف لكي يسقط في الصهيونية . وسأكتفي هنا بذكر عدد من هؤلاء ومن اصحاب الاتجاهات الثقافية البارزين ، وأبدأ بهرتزل :

فقد كتب هرتزل في (الدولة اليهودية) ١٨٩٦ (الشيء الذى يرجعنا الى خاصتنا هو الضغط علينا . والعداوة وحدها هي التي تسمنا بسمة الاختلاف) ((نحن شعب واحد ، هكذا عملنا اعداؤنا سواء رغبنا في ذلك ام لم نرغب)) وفي خطابه امام المؤتمر الصهيوني الاول ٢٩ اب (اغسطس) ١٨٩٧ ، قال ((سنستمع هنا الى تقارير عن حالة اليهود في البلاد المختلفة ، وانتم تعرفون جيدا ، حتى ولو بصورة غير مكتملة ، ان الحالة لا تبشر بالخير في معظم البلاد ، فلو كانت الحالة مختلفة لما كنا اجتمعنا))[4]. ويقول افنيرى انه عندما كان هرتزل يحلم بدولة المستقبل((لم يفكر ببلد معين فلم يكن مهما بالنسبة له ان يكون ذلك في الارجنتين او اوغندة او كندا)) وقد قال حاييم وايزمن في المؤتمر الصهيوني المنعقد عام ١٩٣١ ، أن هرتزل عندما كتب (الدولة اليهودية) كان على الاغلب ((يفكر بالارجنتين وان المقطع الذى كتبه عن فلسطين انما كان لارضاء اصدقائه الصهيونيين))[5] ويقصد جماعة احبار صهيون ، كما يؤكد افنيرى ان اولئك الصهيونيين الذين حضروا المؤتمر الصهيوني الاول (بال ١٨٩٧) ((لم يكونوا يمون الا

---

(١) الفكرة الصهيونية المصدر السابق - ص ٣٧٤

(٢) الفكرة الصهيونية - ص ٣٧٣

(٣) الفكرة الصهيونية - ص ٣٨٢

(٤) الفكرة الصهيونية - ص ١٢٣

(٥) اسرائيل بدون صهيونية - السابق - ص ٤٢

حقيقة واحدة : الهرب من اوروبا الشرقية ، والمذابح ، والتمييز العنصرى ، والاهوال المتوقعة ، والكوارث التي يمكن ان تحل بهم))(١)

واذا نظرنا في امر صهيونية اولئك المفكرين اليهود الذين جعلتهم رواية جرج اليوت يرتدون من الاندماج الى الصهيونية (سمولنسكين - جوردون ليلنيبلوم) ، فقد نجد اسبابا اخرى ، اكثر واقعية من الخطابات الطنانة لابطال دزرائيلي وجورج اليوت عن اعظم العروق،واعظم الاديان،واكبر الالهة،وراء عودة هؤلاء المفكرين الايديولوجيين من جديد الى الصهيونية .

كان بيرتز سمولنسكين (١٨٤٢ - ١٨٨٥) من اليهود المتنورين ((كان ينتمي في الخفاء الى الجماعات [اليهودية] التي اعتنقت افكاره التنوير)) وارتداده الى الصهيونية ، يوضحه هو ذاته . فقد كتب تحت عنوان (نبحث عن طرقنا) ١٨٨١ ، وبمناسبة المذابح الشهيرة في روسيا ((نزلت المصيبة تلو المصيبة والكارثة تلو الاخرى على يهود روسيا ، ولم يترك حجر على حجر في كثير من المجتمعات [اليهودية] لقد نهبت متاجر اخوتنا وحطم الرعاع كل شيء لا يستطيعون حمله ، وقد قتل يهود كثيرون كما جرح عدد لا يحصى)) وقبل المذبحة كانت حياة اليهود الروس بائسة كلها ((متاعب وهضم حقوق .. حتى في تلك المدن التي يسمح لليهود الاقامة فيها كانوا يسجنون ويتركون كي يموتوا جوعا)) . ولقد حاول اليهود ان يندمجوا وان يعيشوا كالاخرين ولكن اللاساميين لم يسمحوا لهم بذلك . وها هي الان لايد العدوان فوقهم قد دمرت منازلهم ونهبت ملابسهم ولم يترك طعام حى للاطفال والرضع منهم الذين في الشوارع))(٢)

اما تصور الوحدة اليهودية فيكاد يولد من شعور الدفاع عن النفس في ذهن سمولنسكين : ((يجب ان نعترف بخزى واسى بانه لا توجد وحدة او سلام بيننا لذلك كانت قوتنا في ايام الشدائد قليلة . فهل كان يحصل هذا الشر لو اعتقدنا في قلوبنا بان عشرة ملايين نفس يهودية تنتمي الى امة واحدة ؟ سيجيب كل انسان بكل قواه العقلية : كلا))(٣)

وعندما طالب اللاساميون بطرد اليهود من روسيا وانتشرت شائعات ان القيصر سوف يأمر بتهجيرهم ، قال سمولنسكين ان هذا ((يخيف اخوتنا اكثر من اى كارثة حلت بنا من قبل .. واذا كانت موجة الهجرة ستتوجه الى ارض واحدة فمن المؤكد انه ليس هناك مكان في العالم يمكن التفكير فيه سوى ارض اسرائيل(٤)))

(١) اسرائيل بدون صهيونية - المصدر السابق ص ٤٣
(٢) الفكرة الصهيونية - المصدر السابق - ص ٤٧
(٣) = = = = - ص ٤٩
(٤) المصدر السابق ص ٥٠

كان سمولنسكين قد تحدر في الاصل من ثقافة تلمودية حيث تخرج من اكاديمية التلمود وعمل في((جوقات الكنيس واقامته المواعظ الدينية)) • لذلك كان من الطبيعي ان تنعكس وحدة المصير اليهودي البائس التي كان يشاهدها على الارض على شكل وحدة في الفكر والشعور مستمدة من الدين والتوراة - والروح • قال : ((كنا دائما امة روحية وكانت التوراة ركيزة دولتنا •• نحن شعب لاننا نعتبر انفسنا بالروح والفكر مرتبطين مع بعضنا بروابط الاخوة • ينظرنا الى انفسنا دائما كأمة مع علمنا بان التوراة هي الرابط الاساسي بيننا))(١) •

اما آرون دافيد غوردون (١٨٥٦ - ١٩٢٢) • فقد كان يهوديا مندمجا وكان يعمل في مزرعة قريبة للاقطاعي الروسي الغني البارون هدراس غونزبرغ وقد ترك العمل في المزرعة على اثر مذبحة (كيشينيف) ١٩٠٣ • وفي عام ١٩٠٤ عندما انتشرت اشاعات عن مذابح وموجات من الخوف بين اليهود هاجر الى فلسطين •

لقد كتب تحت عنوان (ملاحظات) ١٩١١ • ما يؤكد ان اللاسامية كانت دافعه الى الصهيونية ((لقد تساءل شاعرنا العظيم بيالك : ((هل ستبقى الاموات ؟ هل سيتحرك الاموات ؟*)) انه لمن المستحيل ان لا يتحرك شعبنا فالخطب جسيم والالم شديد لدرجة ان الموت الظاهرى لا يمكن ان يبقي الشعب بدون تحرك)) • ((عندما نعرف الحقيقة كما هي • بكل رعبها • وعندما نشاهد الحفرة العميقة التي تقع امام اقدامنا - عندئذ سيوجد اناس يندفعون دون حساب للثمن ودون اية اسئلة • لانقاذ ما يمكن انقاذه • ولن تردعهم حكمة انبياء الدنيا الذين سيحاولون اقناعهم بان من الحماقة ان يستمروا في السير الى الامام •• ان ايمانهم سينبع من اعماق عذابهم اليهودى))(٢) •

كان غوردون فيلسوفا متصوفا يصدر عن قاعدة ثقافية متأثرة بحب الطبيعة والعمل بالقرب من الطبيعة كتلك التي كان قد بشر بها روسو وتولستوى • حيث دعى اليهود الى (العودة الى الطبيعة على غرار دعوة جان جاك روسو وتولستوى)) وفي عمله في مستوطنة (دجانيا) في فلسطين ((يذكرنا بهرب الكتاب الروس في القرن الماضي من بيوتهم وعائلاتهم لكي يعيشوا مع الفلاحين في اتصال حقيقي مع الطبيعة والروح الانسانية))(٣).

---

(١) المصدر السابق ص- ٤٦

* من قصيدة الشاعر نحمن بيالك على اثر مذابح كيشينيف ١٩٠٣ وعنوانها (في مدينة الذبح)

(٢) المصدر السابق - ص ٢٦٢ - ٢٦٣

(٣) = = - ص ٢٥٣ - ٢٥٤

وقد تصور ان المصائب التي تقع على اليهود أو كراهية الاخرين لهم ناتجة عن المهن الطفيلية التي يمارسونها مثل التجارة والسمسرة والحرف الاخرى لذلك بشر بما اسماه (دين العمل) ودعا اليهود الى العودة الى فلسطين للعمل في الارض، قال: ((الشعب الطفيلي ليس شعبا حيا وان شعبنا يمكن ان يمنح الحياة فقط اذا ما حاول كل فرد ان يحدد نفسه بالعمل وبالعيش قرب الطبيعة)) وتصور انه في فلسطين يمكن بناء حياة جديدة. ((عم نبحث في فلسطين ؟ اليس عن الشيء الذى لا نستطيع ابدا ان نجده في مكان آخر))(١)

اما المفكر الثالث، موشيه لايب ليلنيبلوم (١٨٤٣ - ١٩١٠). فقد كان في البداية من علماء التلمود. ثم اعتنق افكار حركة التنوير (الهاسكالا) وصار بسبب ذلك منبوذا في الاوساط الدينية المتزمتة. تأثر بآراء ((المفكرين الوضعيين الروس وفقد ايمانه الديني وكل اهتمام بالافكار المجردة)) وفجأة بعد احداث ١٨٨١ يرتد عن افكاره الليبرالية العلمانية لاويعتنق افكار جمعية (احباء صهيون) ومع ظهور دعوة هرتزل صار من انشط مؤيديه في روسيا (٢) .

يكتب في مذكراته بعنوان (طريق العودة) ١٨٨١ ما يوضح اسباب عودته الى الصهيونية، وهو يؤرخ لاحداث المذبحة: ((٥ أيار (مايو) ١٨٨١: الحالة مخيفة ومزعجة .. نحن في الحقيقة محاصرون. احيطت الساحات بالقضبان وها نحن ننظر من خلال الحواجز لنرى ما اذا كان الرعاع سيبدأون بمهاجمتنا. هل سيشفقون على الصغار والذين لا يعرفون بعد انهم يهود وانهم تعساء - فلا يؤذونهم ؟ يا اله اسرائيل الى متى هذا الشقاء ؟))

((٧ أيار (مايو) ١٨٨١: انني مسرور لاني تعذبت. اقتربت التظاهرات من البيت الذى اعيش فيه - صرخت النساء ونحبن وهن محتضنين الاطفال الى صدورهن محاولات الاختباء ووقف الرجال جانبا مذهولين. وتصورنا انه سيقضى علينا في لحظات. لكن، والحمد لله استطاع رجال البوليس تهريب المتظاهرين فتفرقوا دون ان يؤذونا. واني لمسرور اذ تعذبت، فكانت لي الفرصة على الاقل كي اشعر بما كان يشعر به اجدادى كل يوم)).

لاكنت طيلة حياتي اشعر بالالم على انحطاط القومية اليهودية وعلى فكرة ان وجود اليهود مكتوب له الفشل. ولكنني الان ارى امامي طريقا مستقيما ومؤكدا يقود الى الخلاص الابدى لشعبنا وقوميته، طريقا قادتني اليه ضروريات الحياة، فوقف الخلاص الذى لا اعرف كيف ومتى سيحل، وقف امامي

(١) المصدر السابق - ص ٢٥٧ - ٢٦٠
(٢) المصدر السابق - ص ٦٧

بكل مجده) . (كنت في العام ١٨٧٧ اظن بان حياتي لا معنى لها لانني لا استطيع العيش دون ثقافة عالية وعمل رسمي) وفي نهاية العام ١٨٨١ اصبحت اسير بوحي هدف سام وصرت رجلا مختلفا ومليئا بشعور اكتناء روحي حتى بدون الدراسة العلمانية [١])).

وكما نلاحظ فان ليلينبلوم يقدم بنفسه وصفا اختباريا مبسطا ونادرا عن الكيفية التي تتحول فيها ٪ لاسباب موضوعية جدا ، مشاعر وافكار مفكر يهودي من اتجاه حركة التنوير الاندماجية الى الصهيونية . وطالما ان اللاساميين لا يفرقون بين يهودي وآخر ، لذلك فلا لزوم لظهور نزعات واتجاهات مختلفة في داخل اليهودية ((عندما يتعلق الامر بالامة يجب ان تختفي الطائفية فلا يكون هناك رجال من الطراز الحديث واخرون من الطراز القديم ، ولا مؤمنون أو كفار)) انما الجميع ابناء ابراهيم واسحق ويعقوب)) والحل تجاه الحصار اللاسامي هو في الرحيل الى فلسطين ((اتحدوا واجمعوا القوى ، فلنجمع شعبنا المشتت في اوروبا ونذهب الى وطننا بفرح ، وليقل كل من هو مع الله ومع شعبه : انا مع صهيون [٢])).

بنسكر والتحرر الذاتي :

من رأيي ان تسمية (انجيل صهيوني) ، بالنسبة ليهود روسيا واوروبا الشرقية تنطبق على كتاب (التحرر الذاتي : نداء من يهودي روسي الى شعبه) ١٨٨٢ ، الذي وضعه الطبيب اليهودي الروسي (ليوبنسكر) اكثر مما ينطبق على رواية جورج اليوت (دانيل ديروندا) ١٨٢١ - ١٨٩١ فقد كان دور ابطال تلك الروايات يساعد على النطق او التذكر مثلما يفعل الملقنون الذين يكمنون في اماكن بعيدة عن الانظار في المسرح ثم يشرعون بتلقين الممثلين بعض العبارات او الكلمات التي يمكن أن تهرب من ذاكرتهم وهم يؤدون ادوارهم امام الجمهور . وسيكون من الزائد عن اللزوم اعطاؤهم دورا اكبر . فالذي ادى الى تشغيل مسرح الافكار برمته هي تلك الحالة العامة ، ماديا ومعنويا ، التي وجد اليهودي الروسي والاوروبي الشرقي عموما نفسه فيها وكأنه داخل حالة من الحصار يفرضه عليه اللاساميون بالقوة . وهذه الحالة عبر عنها وطورها الى الدرجة القصوى ليوبنسكر كتاب التحرر الذاتي ومن المؤكد ان بنسكر لم يخطر في باله يوما ان يعود الى يهوديته التي كان قد هجرها تماما فقد تثقف بثقافة روسية علمانية وتحررية صرفة بعيدا عن اى اجواء يهودية

(١) المصدر السابق - ص ٦٩ - ٧٠

(٢) = = - ص ٧٣

فحصل على شهادة في الحقوق من أوديسه ونال شهادة في الطب من جامعة موسكو . وقد حصل على تكريم من القيصر نيقولا الاول ((اعترافا بخدماته للجنود المصابين بالتيفوس)) . عمل منذ البداية ((على وجوب سيادة اللغة والثقافة الروسية كليا في حياة كل يهودي روسي)) وكان من أبرز العاملين في نشاط ((جمعية نشر الثقافة بين يهود روسية)) التي تأسست سنة ١٨٦٣ عندما وقعت احداث لا سامية دامية في اوديسا (١٨٧١) بقي على قناعته انه يجب زيادة النشاط والعمل من اجل ((دمج اليهود في حياة روسية الليبرالية والمتحررة)) ولكن على اثر مذابح ١٨٨١ التي اعقبت اغتيال القيصر اسكندر الثاني ((راح بنسكر يبحث عن علاجات واساليب جديدة للمشكلة . فسافر الى اوروبة الغربية والوسطى لنشر افكار دعوته الجديدة الى ضرورة تركيز اليهود في دولة قومية (١))).

لقد اصابت مذابح ١٨٨١ بنسكر الروسي المندمج بحالة من الانتكاس النفسي فصار يتوهم ان كراهية غير اليهود لليهود موجودة تقريبا في الهواء الذى يتنفسه جميع الناس . حتى ان حاخام فيننيه (آدولف جيلينيك) وهو صديق حميم لابيه اشار عليه باخضاع نفسه للمعالجة الطبية ((لانه يمر في ازمة عاطفية)) .

تصور بنسكر ان ((العداء للسامية خطر يسود العالم اجمع مصدره الخوف من اليهود والذى اعتبره بمثابة الخوف من الاشباح . واعتقد ان هذا الخوف تحول الى مرض نفسي (توارثه) الناس عبر الفي عام ولا امل في شفائهم منه)) وقد خلص من قناعته في غربة اليهود وعذابهم بين الامم الى ((ضرورة التحرر الذاتي والعمل على الاحياء القومي عن طريق ايجاد وطن لليهود)) اعتبر بنسكر بحق ، من اكبر مؤسسي الصهيونية اليهودية في روسيا واوروبا الشرقية قبل ظهور صهيونية هرتزل الرسمية بعقدين من السنين . فقد ترأس منذ عام ١٨٨٤ حركة (احباء صهيون) التي كانت بداية تأسيسها في عام ١٨٨٢ فاعيد تنظيمها وتجديدها تحت رأسته حيث ((تمكنت الحركة من جمع المال لاقامة المستعمرات الصهيونية في فلسطين وساعدت كثيرا في تمهيد السبيل امام الفكر والعمل الصهيوني بين يهود اوروبا الشرقية من خلال اعمالها التثقيفية (٢))) . وقد سجل هرتزل في مذكراته فيما بعد انه لو اطلع على كتاب (التحرر الذاتي) لكان اكتفى به ولم يكتب ((الدولة اليهودية))

---

(١) المصدر السابق - ص ٧٩

(٢) = = - ص ٨٠

والواقعة الهامة التي تؤكد دلالة اللاسامية في تكوين افكار بنسكر انه كما يؤكد اسعد رزوق ،((لم يأت في طبعة كراسه الاولى على ذكر فلسطين كوطن محتمل للشعب اليهودي . وكان يتصور ان((الوطن القومي اليهودي يمكن قيامه في اي مكان من العالم)) . فقد كتب في (التحرر الذاتي)((يجب ان لا نربط انفسنا في المكان الذي قطعت فيه حياتنا السياسية ودمرت بعنف ، يجب ان لا يكون هدف جهادنا ((الارض المقدسة)) انما مجرد ارض نملكها . نحن لسنا بحاجة الى اكثر من قطعة ارض يقيم فيها اخواننا ولا يستطيع اي سيد اجنبي اقتلاعنا منها . وقد تكون قطعة الارض هذه في الولايات المتحدة ، او ولاية كتلك التي يقوم عليها باشاوات آسية التركية يعترف بها الباب العالي والقوى الاخرى كبلد محايد))(١) ان المطلوب حل المشكلة التي خلقتها اللاسامية لليهود . ولو كان الامر يمكن حله بدون وطن خاص لكان بنسكر سيوافق على ذلك ((فلو تمكنا مثلاً توزيع اليهود على كل انحاء العالم لامكن ربما بهذا التوزيع حل المشكلة . ولكن هذا مستحيل))(٢) . ويكاد الشعور بوحدة الهوية اليهودية ، بالوعي الذاتي والرغبة في الانتظام في حركة سياسية تبدأ لهذا الوعي يظهر من تلقاء نفسه على ساحة الشعور لدى بنسكر بسبب موقف الاخرين من اليهود : ((لم ينقطع هذا الشعب عن كونه امة روحية . لذا نظر العالم الى الشعب اليهودي كميت يسير بين الاحياء . فاثرت هذه الحادثة الغريبة من نوعها في التاريخ على تخيلات وانطباعات الامم لان اليهود عاشوا شبح امة بدون وحدة او تنظيم وبدون ارض او اي رابط للوحدة))(٣) .

اللاسامية كانت الوجه الاخر من العملة أو من وحدة الهوية اليهودية . ((لا تنفصل اليهودية عبر التاريخ عن اللاسامية)) يقول بنسكر و (شعب الله المختار) ليس هو كذلك باعتباره مختارا من قبل الله ، وانما باعتباره مكروها من الجميع ((ان الشعب الذي لا يقول ان الشعب اليهودي هو شعب الله المختار ، المختار للكراهية العالمية لا بد ان يكون اعمى))(٤) .

اللاسامية رباط الوحدة :

كانت اللاسامية بمثابة الحبل السري الذي وحد الثقافات المتعددة في ايديولوجيا واحدة ، الايديولوجيا الصهيونية .

---

(١) المصدر السابق – ص ٩٥

(٢) = = – ص ٩١

(٣) = = – ص ٨٣

(٤) = = – ص ٨٤

ان جاكوب كلاتزكين (١٨٨٢ - ١٩٤٨) المفكر الصهيوني الذى ينطلق من فضاء ثقافي قومي وعلماني وليبرالي ، وكان مناضلا علنيا ضد الصهيونية الروحية وايضا ضد القومية الصهيونية الدينية ، كانت اللاسامية كما تصورها تماما ((سبب وحي هرتزل)) وعندما اراد ان ينكرها كمضمون للوعي الذاتي اليهودى اضطر ان يحدد دورها بحيث ان احدا غيره لم يستطع ان ينفذ الى مثل هذا العمق . فقد قال ان اللاسامية كانت ((المحرك)) ، كانت المناسبة لظهور الفكرة الصهيونية ((تماما كما كان سقوط التفاحة بالنسبة لاكتشاف نيوتن قانون الجاذبية))(١) . وفي الحقيقة كان هذا هو دورها الفعلي كوسيط في تكوين الايديولوجيا الصهيونية .

ومثل الاخرين ، هو ذاته ، اتت به اللاسامية الى الحومة الصهيونية حتى انه يستعير شتائم جون اليوت ضد المندمجين الذين يرون اخوانهم يذبحون ولا يتحركون . فهؤلاء ينقصهم ، في نظر كلاتزكين ، ((الاحساس بالحرية والشرف والسمي وراء الكرامة والصدق)) لانهم ((لا يستطيعون التعبير عن غضبتنا القومية بصرخة الثأر للدماء التي سفكت))(٢) . ماذا ينقص الحياة القومية بالمعنى العلماني ؟ الارض ، واللغة . يقول كلاتزكين ((لقد بدأت الصهيونية مرحلة جديدة ، ليس لوضع حد للشتات فحسب ، ولكن من اجل ايجاد تعريف جديد للذاتية اليهودية - تعريف علماني . انني متيقن من ان ابناء بلادنا سوف يضحون بانفسهم في المستقبل في سبيل الاهداف القومية ، اى في سبيل الارض واللغة))(٣) . ((ان الكفاح في سبيل مستقبل قومي لارضنا (فلسطين) ولغتنا والتوجه نحو وجود في المستقبل لم يتحقق بعد - هذه هي فقط المطالب التي بواسطتها يتمكن يهود المنفى ان يصبحوا أمة))(٤) .

والصهيوني الماركسي دوف بيربوروشوف (١٨٨١ - ١٩١٧) ، الذى تصور بناء مجتمع بروليتارى في فلسطين ، كانت اللاسامية سبب انتقاله من البلشفية الى الصهيونية . ((فلو كانت اللاسامية - يكتب بوروشوف - هواية قلة من الافراد المعتوهين والمرضى نفسيا فقط لما كانت خطيرة مخيفة . ولكن للاسامية شعبية قوية بين الجماهير ، وغالبا ما ترتبط دعاواتها بتحرك

---

١) المصدر السابق - ص ٢١٤
٢) = = - ص ٢١٣
٣) = = - ص ٢٠٥
٤) = = - ص ٢٠٣

مجتمعات العناصر الدنيا من طبقة العمال . هذا هو ما يولد خطر الخوف من اليهودية(١)». انها موجودة في كل مكان ، في الشرق وفي الغرب ، وباشكال مختلفة . يقول : «ان اللاسامية هي اساس جميع قوانين التمييز ضد اليهود ، في البلدان المتخلفة سياسيا واساس المقاطعة الاجتماعية لهم في البلدان البورجوازية الديمقراطية (٢)» .

وبيالك (حاييم نحمن بيالك) ١٨٧٣ - ١٩٣٤) اشتهر كاكبر شاعر صهيوني بقصيدته (في مدينة الذبح) ١٩٠٣) على اثر مذبحة كيشينيف الشهيرة . وفي خطابه بمناسبة افتتاح الجامعة العبرية (١٩٢٥) قال : «لقد استطعنا عبر الخطوب والتجارب المريرة ، وعبر القنوط والامال الضائعة ، وعبر الاضطهادات التي لا تحصى ، ان نتوصل الى حقيقة اننا بدون وطن محسوس وبدون اماكن للسكن خاصة بنا ، لن يكون لنا اى نوع من الحياة ، روحية كانت ام مادية ، وبدون ارض اسرائيل لن يكون هناك امل باعادة اسكان الاسرائيليين في اى مكان ابدا » وتظهر في خطابه نزعة الهروب من اللاسامية الى مكان آمن دون اى حساب لنمط الحياة الذى يمكن ان يتحقق في الوطن الجديد : «ولم نأت الى هنا بحثا عن الثروة او السيطرة او العظمة . كم من هذه الاشياء تستطيع هذه البلاد الصغيرة المسكينة ان تعطينا ؟ اننا نريد فقط ان نجد هنا منطقة لعملنا الذهني والجسدى(٣)»

ومن فوق العتبة اللاسامية كان الفاشي جابوتنسكي (فلاديمير جابوتنسكي ١٨٨٠ - ١٩٤٠) ، الاب الروحي لحزب مناحيم بيجن ، يدبج حججه وتبريراته في المطالبة باستخدام العنف لطرد العرب من فلسطين . فقد قال امام اللجنة الملكية البريطانية (١٩٣٧) : «ان ثلاثة اجيال من المفكرين اليهود والصهيونيين ، بينهم مفكرين عظام ، قدموا فكرا كثيرا لتحليل الموقف اليهودى ووصلوا الى نتيجة مفادها ان سبب ما يقاسيه اليهود هو قضية الشتات . والحقيقة المهمة باننا اقلية في كل مكان . فعداء السامية ليس موجها من الناس بل من الاشياء ، انها عقدة بعض الاجانب التي يتعرض لها الجسم الاجتماعي او الجسم الاقتصادى الذى نعاني منه .. هناك لحظات وحتى فترات كاملة من التاريخ يتخذ « الخوف من الحياة نفسها » بعدا جديدا لا يمكن لاى شعب ان يتحمله ، وهذا هو ما نواجهه اليوم»(٤).

(١) المصدر السابق - ص ٢٤٦
(٢) = = - ص ٢٤٨
(٣) = = - ص ١٧٦ - ١٧٧
(٤) = = - ص ٤٣٢

واليهودى الملحد هوراس مايركالن (١٨٨٢ -) استاذ الفلسفة البراجماتي ، وتلميذ الفيلسوف الامريكي وليم جيمس ، كانت اللاسامية هي سبب وحيه الصهيوني ، فالتجمع اليهودى الكبير، حسب رأيه، ان يضم جميع الناس اليهود من مختلف الفئات ومختلف الطبقات وحتى اولئك الذين تتنافر مصالحهم الاجتمعية والاقتصادية وذلك لان اللاسامية لا تفرق بين يهودى ويهودى اخر . يجب ان يجتمع ((جميع الذين يسمون يهودا ، بغض النظر عن الطبقة او المعتقد او البلد الذى ينتمون اليه)) والقاسم المشترك الذى يوحدهم هو الدفاع ((عن اليهود ضد هجمات اعداء السامية في جميع مجالات الحياة))(١) . فقد كتب تحت عنوان (الوحدة اليهودية) ١٩٢٣ ((ان اساس هذا اللقاء المشترك يجب ان يكون واسعا لاستيعاب البرت أنشتين وكذلك جيرير ديبي [حاخام متزمت] وبني ليوناز [ملكم يهودي امريكي] وستيفن دايز [زعيم صهيوني امريكي] وليون تروتسكي [الزعيم الشيوعي] وهوراس كالن [الكاتب نفسه باعتباره براجماتيا ملحدا] . وحتى يجب ان يكون فيها مكان لسيروس آدلر [زعيم يهودى امريكي معادى للصهيونية])) . والذى سيضم هذا الخليط المتنافر من اصحاب المذاهب الثقافية والمواقع الاجتماعية المختلفة ، هو الحبل اللاسامي ((اما القاسم المشترك لهذا المنبر الجامع فهو الدفاع ، انه وحدة العمل جنبا الى جنب ضد الهجمات الزائفة والجبانة التي تقوم بها معادات السامية)) وبعد اعتناق الفكرة (الصهيونية) يمكن بالطبع الانتقال الى العمل . ((ووراء الدفاع ، يجب ان يكون هناك برنامج بناء يشترك فيه كثير من اليهود ، هو برنامج الحفاظ على الثقافة والمثل العبرية العليا ... وهناك ايضا بناء الوطن القومي اليهودى))(٢) -

والحاخامون ايضا ، وهم الذين يرغبون ان تكون غزولهم ذوما في السماء لا يخرجون عن هذا الاطار . فصهيونيتهم كانت مربوطة بالحلقة اللاسامية ويمكن ان ينطق باسمهم هنا الحاخام أبا هيلل سيلفر (١٨٩٣ - ١٩٦٣) وهو من الشخصيات الصهيونية التي لعبت دورا خطيرا في الصهيونية الامريكية وفي وضع برنامج بلتيمور (١٩٤٢) بالتعاون مع دافيد بن غوريون . فهو يتصور ان سلسلة من الاحداث اللاسامية تمسك بكل يهودى وتشده الى اليهودى الاخر عبر مراحل التاريخ . فقد كتب تحت عنوان (نحو وحدة يهودية فـي

(١) المصدر السابق - ص ٣٩٦
(٢) = = - ص ٤٠٢ - ٤٠٣

امريكية) ١٩٤٣ : (ان هناك حبلا ثنينا يربط ما بين عصرفختة[النزعة الجرمانية العنصرية] بصرخة المعادية للسامية ((هب - هب)) [ضحايا قد ضاعت القدس] ، وعصر هتلر بصرخة العنصرية ((يهودى قذر)) وحوادث دمشق في العام ١٨٤٠* ترتبط برد الفعل الذى انتشر بعد ثورة ١٦٤٨ وحادث مورتارا** في ايطاليا ، والحركة المسيحية الاشتراكية في عصر بسمارك وحادث تزا - ازلار في المجر*** واحياء الاتهامات الدموية في بوعيمية ومذابح الثمانيات في روسيا وكتب التشهير باليهود (فرنسا اليهودية****) وقضية ديرفوس في فرنسا ومذابح ١٩٠٣ (كيشينيف) وحمامات الدم الاوكرانية بعد الحرب الاخيرة والمذابح البشرية في البيوت في بولنده في مذه الحرب . هذه ايها الاصدقاء ، هي مشكلتنا الدائمة . والعمل من اجل الخلاص من مثل هذا الاضطهاد هو الحاجة الملحة لكل جيل من شعبنا في كل بلاد العالم)(١) .

---

* - في شباط ١٨٤٠ اواخر عهد الادارة المصرية في سوريا ، اتهم يهود دمشق بانهم كانو خلف عملية خطف حصلت لاحد الرهبان المسيحيين (توما الكبوشي) (بقصد استنزاف دمه ليصار الى استخدام دمه الضحية البشرية في صنع الفطير اليهودى .

** - ادغار مورتارا ، طفل يهودى عمره ٦ سنوات خطفه حرس البابا من قرية بولونيا في ايطاليا سنة ١٨٥٨ . وكان للحادث مضاعفات دولية تم بعد تشكيل (الاتحاد الاسرائيلي العالمي) في باريس للدفاع عن حقوق اليهود .

*** - في عام ١٨٨٢ اتهم اليهود في المجر بقتل طفل مسيحي من اجل استنزاف دمه) وقامت ضجة لا سامية ضد اليهود (ثم تبين ان التهمة كانت كاذبة .

**** - (فرنسا اليهودية) اسم كتاب وضعه الكاتب الصحفي الفرنسي اللاسامي ادوارد دريمون (١٨٤٤ - ١٨٨٦)

(١) المصدر السابق - ص ٤٦٤ - ٤٦٥

التكوين المصطنع للخطاب الصهيوني :

عندما تستبعد اللاسامية كوسيط يتحول الخطاب الايديولوجي الصهيوني الى تركيبة من افكار ومعاني متنافرة وربما منيرة للاستغراب والسبب في ذلك واضح ، فالايديولوجي الصهيوني لم يتدلل في تعبيره من الاسس المتعارف عليها لصياغة خطاب ايديولوجي . فالايديولوجي بالمعنى المتعارف عليه يجب ان يكون عضوا في ((الشمولية الاجتماعية)) التي يحددها التوسير بـ ((وجود النشاط الاقتصادي في القاعدة ، والتنظيم السياسي ، والاشكال الايديولوجية)) التي تعني هنا البنية الفوقية بكاملها ((اديان ، اخلاق ، فلسفة ... الخ .)) فالايديولوجية هي احد المكونات العضوية في الثلاثية الاجتماعية اذا جازت هذه التسمية لا اقتصاد ، سياسة ، ايديولوجيا . او هي كما يقول التوسير ((جزء من الكلية الاجتماعية))(١) . فاليهودي لا يمكنه ان يؤلف خطابا ايديولوجيا بالمعنى المألوف الا اذا كان اندماجيا . اما اذا شرع في الحديث كيهودي وحسب فانه سوف يلفق كلاما من مختلف الاصناف لانه يفتقد الى ابسط الاسس المادية والفكرية لنشأة الخطاب الايديولوجي . وقد قال رودنسون في مقدمته لكتاب ليون ، وكان يشير الى بطلان الاسس الاجتماعية للايديولوجيا الصهيونية ، انه خلال الفين من السنين افتقر اليهود الى ما يصفه بـ ((معطيات ملموسة دائمة وثابتة ومشتركة - لدى الجماعة الواحدة - هي الارض واللغة والتاريخ .. الخ .))(٢)

وفي الحقيقة كان هناك مفكرون صهيونيون ذووا بصيرة نافذة فلم تكن تخفى عليهم مثل هذه الحقائق البسيطة . لذلك كانت دعوتهم باتجاه اعادة تكوين حياة يهودية كاملة . ان (آدون دافيد غوردون) مثلا كان يرى بدقة ووضوح مدهشين ان الحياة اليهودية تفتقد الى البنية التحتية والبنية الفوقية معا . فقال : ((نريد ان نخلق معتقدات وايديولوجيات ، وفنا وشعرا ، واخلاقا ودينا ، من حياة صحية وبشكل تكون مرتبطة بها وبذلك نكون قد خلقنا علاقات انسانية - صحية وصلات حيوية تربط الحاضر بالماضي ما نريد ان نخلق هو الحياة - حياتنا نحن - بروحنا نحن وبطريقتنا الخاصة وبصراحة متناهية ، يجب ان نعمل بايدينا في فلسطين كل الاشياء التي تشكل مجموع الحياة .. لانه في مثل هذه الحالة فقط نستطيع ان نمتلك ثقافة خاصة بنا وان تكون لنا حياة خاصة بنا))(٣) .

---

(١) الايديولوجيا - المصدر السابق - ص ٧٧
(٢) المفهوم المادي - طبعة ثانية - بيروت ١٩٧٣ - ص ١٣٨
(٣) الفكرة الصهيونية - المصدر السابق - ص ٢٥٧ - ٢٥٨

اما جاكوب كلاتزكين ، وهو صاحب النزعة القومية العلمانية فقد اكد انه بدون لغة وارض لا معنى لاى حديث عن القومية . فهو يكتب : ((لغة وارض ، هذان هما العنصران الاساسيان للكيان القومي)) لكنهما غير موجودتين . لذلك يجب الحصول عليهما . ((ولكن ارضنا ليست لنا ولغتنا ليست اليوم لغة شعبنا . ثم ان على حركتنا القومية ان تحقق هذين الهدفين في الوقت الحاضر نحاول ان نجعل حقنا في ان نصبح امة شرعيا ... ان الكفاح في سبيل مستقبل قومي لارضنا ولغتنا والتوجه نحو وجود في المستقبل لم يتحقق بعد . هذه هي خطط المطالب التي بواسطتها يتمكن يهود المنفى ان يصبحوا امة (١))

لقد استعار كلاتزكين في خطابه الكثير من المصطلحات والمفاهيم القومية البورجوازية فقد تحدث عن ((العائلة الواحدة)) و ((التاريخ المشترك)) والقبول بالمصير المشترك والارادة والرغبة للقبول بهذا المصير ((ان هناك اساسين للقومية اليهودية - الالتزام التاريخي ورغبة في ذلك التاريخ)) ودعى الى فصل الدين عن القومية اسوة بفصل الدين عن الدولة في الايديولوجيات القومية البورجوازية . فالتعريف (الروحي) لليهودية ، يقول كلاتزكين ، ((يؤدى الى الشوفينية القومية ، والحركة القومية تكون عديمة المعنى حتى تنمي حرية الفرد - ولن يكون هناك نهضة قومية جديرة بان نناضل في سبيلها ما لم تحرر هذه النهضة وتحيى القيم الانسانية ضمن القيم القومية (٢))).

ان هذه اللغة القومية الليبرالية كانت لغة اتجاه واسع في الايديولوجيا الصهيونية . لكن هؤلاء في حمأة حماسهم القومي العلماني والليبرالي ، كانوا يتناسون ان الفكر القومي الليبرالي هو فكر الطبقة البورجوازية وهذه الطبقة غير موجودة لديهم وان هذه الطبقة ايضا نمت وتطورت في مجتمع مدني وهذا ، يهوديا ، غير موجود ايضا . واول من تصدى لهؤلاء بقصد تسفيه آرائهم كان زملاؤهم ، الايديولوجيون ، من اتباع الاتجاه الديني . ان اصحاب الاتجاه الديني قالوا لهؤلاء صراحة انهم يقولون كلاما اجوف ولا معنى له . لان اليهودى عندما يفكر كيهودى وليس كمواطن في البلد الذى يعيش فيه ، فلن يجد ما يفكر فيه الا التوراة والتلمود والصلاة .. والخ .. يقول (يحيل ميخائيل بانيس ١٨٤٢ - ١٩١٢)

(١) الفكرة الصهيونية المصدر السابق ص ٢٠٣

(٢) المصدر السابق - ص ٢٠٣ - ٢٠٥

اننا اذا حذفنا الدين يصبح اى كلام عن قومية يهودية مجرد كلام فارغ ((القومية التي امثلها هي تلك القومية التي روحها التوراة (١))) .
((عندما فقد الشعب اليهودى وطنه وتشتت في العالم ولم يعد يستخدم لغته القومية بقيت له وحدته القومية بفضل التوراة(٢))). ويسأل بانيس وهو يوجه الكلام الى القوميين العلمانيين ، (كيف يمكن تطبيق فكرة القومية العلمانية في الشعب اليهودى مع العلم ان العملية تحتاج الى الصفتين الاساسيتين للقومية التقليدية ؟ فاليهود لا يعيشون على ارض واحدة ولا يتكلمون لغة واحدة ؟ ، ويجيب ((انها قاعدة جوفاء ليس فيها سوى تعابير منمقة))(٣)
في لائحة الفكر القومي البورجوازى توجد دائما منطقة عموميات لان تلك الطبقة حاولت في الاصل ان تصور مصالحها وكأنها مصالح كل مواطن وحتى كل انسان في العالم تقريبا . ولذلك قد يلتبس الامر على القارئ احيانا عندما يشرع صهيوني بالحديث عن قومية يهودية علمانية او غير علمانية فيظنه وكأن الامر حقيقي ولا يوجد ما يثير الاستغراب * . لكن ما ان يصل المرء الى تلك المفاهيم الاجتماعية الاكثر تحديدا مثل الطبقات والصراع الطبقي ، حتى يتبين على الفور ان استعارة افكار الاخرين وتطبيقها على الوضع اليهودى ، لا تعدو كونها تصورات تشبه تقريبا العاب التسلية .
فالماركسي (بيريوروشوف) مثلا ، عندما نظر في وضع يهود روسيا وشرق اوروبا ، لم يجد بينهم فلاحين . لذلك كان لا مفر من ان يسقط من حسابه طبقة اجتماعية كاملة ((وبما انه - يقول - ليس للامة اليهودية طبقة من الفلاحين ، فان تحليلنا لمسألتها القومية سيبحث وضع طبقاتها التي تقطن المدن))(٤). وعندما نظر فيما تبقى من الطبقات

---

(١) المصدر السابق - ص ٢٨٥
(٢) = = - ص ٢٨٩
(٣) = = - ص ٢٩٠
(٤) = = - ص ٢٤٦

* خطاب الحاخام كاليشر مثلا الذى نقله الدكتور العظم ((يجب ان نخجل من انفسنا . لقد كافحت جميع الشعوب الاخرى من اجل شرفها الوطني ، وعليه يجدر بنا ان نبذل جهودا اكبر بكثير .. الخ)

وجد عنده يهودا من البورجوازية الصغيرة أكبر بما لا يقاس من عدد اليهود البروليتاريين . لذلك لم يكن عنده مناص من دمج الطبقتين مما ((يمكننا اعتبار البرجوازية اليهودية الصغيرة والبروليتاريا مجموعة واحدة)) ولديه تعليل ، ((ونتيجة لظروف معينة اصبحت هذه المجموعة تشكل غالبية الشعب اليهودي))(١) . فقد اراد ان يطبق مفاهيم ماركسية على بنية يهود مختلفة . فالبروليتاريا اليهودية عبارة عن طبقة رقيقة جدا في الاسفل وفوقها طبقة هائلة من البورجوازية الصغيرة . فالوضع اذن اشبه ما يكون ((بهرم مقلوب)) قاعدته العريضة ((البورجوازية الصغيرة)) موجودة في الاعلى وليس في الاسفل . وهذا وضع يجب اصلاحه وبما ان الماركسية تعتبر البورجوازية الصغيرة طبقة مشؤومة ، لذلك كان على بوروشوف ان يجد طريقة لتحويلها الى بروليتاريا . وقد رأى ان الحل يتمثل بـ ((هجرة البورجوازية الصغيرة التي تتحول فيما بعد الى بروليتاريا))(٢) . فالهرم المقلوب يجب نقله الى فلسطين وقلبه من جديد بحيث تصبح قاعدته في الاسفل مثل جميع الاهرامات الاخرى .

لم تكن علاقة اثرياء اليهود في الغرب (البارونات) في مد يد العون للحركة الصهيونية منذ بدايتها الاولى بخافية على بوروشوف ، وهو الزعيم المرموق . لذلك حاول ان يجد تفسيرا لهذه العلاقة ، وفي الماركسية ، كما هو معلوم لا توجد مهادنة بين بروليتاريين وبارونات مهما كانت الاسباب ، دينية او قومية او عاطفية الخ .. لذلك قرر بوروشوف ان هذا العطف ناتج عن خوف البارونات من الشر الذي قد ينجم عن اللاسامية . لان هؤلاء الاغنياء (كما توهم) باعتبارهم يهودا لا بد ان يصيبهم بعض الاذى اللاسامي . ((وهذه الطبقات الغنية من اليهود - قال - تمقت هذه الجماهير اليهودية الضعيفة ولكن اللاسامية تذكرهما بقرابتها لها)) واضاف ((ولو لم يكن هناك لا سامية فان فقر وبؤس المهاجرين اليهود ما كان لينال اهتماما كبيرا من البورجوازية اليهودية العالمية)) ويظهر ان مؤلف (دراسات يسارية) قد اخذ رأي بوروشوف على محمل الجد فظن خطأ ان البارونات كانوا خائفين من انتشار موجة اللاسامية وذلك عندما قال ((لم تكن البورجوازية اليهودية الكبيرة لتهتم كثيرا بجماهير اليهود الفقيرة ... لولا التأثيرات السلبية .. الخ))(٣) .

(١) المصدر السابق - ص ٢٤٩
(٢) = = - ص ٢٥١
(٣) دراسات يسارية - المصدر السابق - ص ١٤٤

أهداف غير مألوفة للخطاب الايديولوجي

الصهيونية (الحركة) ، يقول رئيس المنظمة الصهيونية العالمية (ناحوم جولدمان) ((هي حركة عودة اليهودي الى ارض وطنه ، الى ارض اسرائيل))(١) . وهكذا فالصهيونية (الايديولوجيا) لها هدف محوري وهو البرهان ان حياة اليهودي بين الشعوب الاخرى لا معنى لها او هي ((حياة منفى)) ، وان العودة الى فلسطين هي (المثل الاعلى) أي ان المجال الايديولوجي برمته يدور في الصهيونية حول ايهما افضل ، ان يبقى اليهودي في مكانه حيث هو ام يذهب الى مكان آخر يحتمي فيه هو واليهود الاخرين ؟ وهذا الهدف في الايديولوجيا الصهيونية ، كما هو واضح ، يختلف تماما عن اهداف الايديولوجيات المعروفة حتى اليوم ، لان جميع ايديولوجيات الانظمة الاقطاعية والبورجوازية والاشتراكية . في المجتمع هذه الايديولوجيات تدور اهدافها حول قضايا السلطة والسياسة في المجتمع ان الايديولوجيات تتجه في المقام الاول نحو امتلاك السلطة وحيازة القدرة(٢) ان هذا ما يميزها ، كما يقول باريون ، عن النظريات السياسية في المجتمع . وتكاد لا توجد ايديولوجيات الا المحضة او الافكار الفلسفية المجردة . من خلال علاقات متبادلة ، سلبا او ايجابا ، مع مؤسسات سياسية محدودة فالايديولوجيا والمؤسسة السياسية ، يقول باريون ، ((تشترط الواحدة منهما وجود الاخرى(٣))).

حتى انه لا يوجد مثلا في ايديولوجيا الطبقة البورجوازية ما هو ابرز من نقد اللاهوت ونقد مؤسسات النظام الاقطاعي السياسية بالاضافة الى تبرير العقل وتنصيبه حاكما وتبرير المؤسسات المقترحة حسب احكام العقل ، وهي المؤسسات الديمقراطية وشعاراتها في الحرية والاخاء والمساواة .. الخ . واذا كان كتاب سبينوزا (رسالة في اللاهوت والسياسة) هو قلب الروح في الايديولوجيات البورجوازية ، فانه على اي حال لا يتضمن ما هو ابرز من نقد ((الكتب المقدسة والكنيسة والعقائد والتاريخ المقدس)) وما هو ابرز ايضا من نقد ظلها على الاراء ((الانظمة التسلطية القائمة على حكم الفرد المطلق)) والبرهان على ان النظام الديمقراطي

(١) المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ١٩٦٨ - المصدر السابق ص ٢٤١
(٢) ما هي الايديولوجيا ؟ المصدر السابق ص ١٠٦
(٣) - - - ص ١٠٨

هو اكثر الانظمة اتفاقا مع العقل والطبيعة [(١)]».

وعلى نفس المنوال فان كتاب كارل ماركس (رأس المال) وهو محور الايديولوجيات الاشتراكية والشيوعية ، يحمل الاسم الاضافي « نقد الاقتصاد السياسي »؛ ولا يوجد فيه ما هو ابرز من نقد مؤسسات النظام البورجوازي والتبشير بمؤسسات اشتراكية تحقق عدالة اجتماعية افضل . فالماركسية ، كما يقول احد منظريها « تسمى وراء مشروع سياسي : تحويل الاقتصاد الرأسمالي الى اقتصاد اشتراكي [(٢)]»، او هي« الماركسية» كما يقول لينين « ايديولوجيا نضال البروليتاريا الطبقي [(٣)] .» وليس عبثا ان (رأس المال) يسمى ، او سمي في القارة الاوروبية حين صدوره ، « توراة الطبقة العاملة » [(٤)] .

كان محور التفكير الايديولوجي حتى اليوم الدفاع عن نظام اجتماعي او الثورة عليه . ومن اجل ذلك وجه الايديولوجيون خطاباتهم ، وحشدت الايديولوجيات المختلفة الاتباع ووجهتهم نحو العمل السياسي . اما في الايديولوجيا الصهيونية فان كل هذه الاهداف المألوفة غير مطروقة البتة وكل المساجلات التي تتعلق بشكل الحكم ومؤسسات السلطة مفقودة تماما . فلم يكن يشغل بال الصهيوني لا شكل النظام السياسي ولا طبيعة الدولة التي يحلم باقامتها في المستقبل . كل ما يشغل باله انه سوف يرحل او سيدعو الاخرين الى الرحيل الى مكان اخر . « اقول بوضوح وتأكيد - كتب هرتزل في الدولة اليهودية - بانني أؤمن بامكان تحقيق الفكرة رغم انني اعترف بانني لم اكتشف الشكل الذى ستتخذه » [(٥)]

---

(١) سبينوزا - رسالة في اللاهوت والسياسة - ترجمة د. حسن حنفي - الهيئة العامة المصرية للتأليف والنشر ١٩٧١ ص ٨ - ١٠ - ١١

(٢) طرابيشي ، جورج - الماركسية والايديولوجيا - دار الطباعة والنشر، بيروت ١٩٧١ ص ١٧٦

(٣) المصدر نفسه - ص ١١٩

(٤) ماركس ، كارل - رأس المال - نقد الاقتصاد السياسي - ترجمة - انطون حمصي - منشورات وزارة الثقافة - الكتاب الاول - الجزء الاول ط٢ - دمشق ١٩٧١ - ص ٤٩

(٥) الفكرة الصهيونية - المصدر السابق - ص ١٠٣

وبما ان كل جدال حول نمط الحياة في المجتمع المأمول كان مستبعدا ، لذلك ترك لكل انسان حريته ان يحلم بالعيش حسب رغباته الشخصية . يقول جابوتنسكي : ((ان الظاهرة المسماة الصهيونية يمكن ان تضم جميع الاحلام - (مجتمعا نموذجيا) وثقافة عبرية وربما طبعة ثانية من التوراة ولكن كل هذا الحنين للدمى وللحياة المخملية والفضية ليس شيئا اذا ما قورن بذلك الزخم المحسوس من الفاقة والالم الذى يقوينا ويدفعنا الى الامام[1])).

في جميع الخطابات الايديولوجية الصهيونية ، حتى انشاء الدولة في فلسطين ، لا توجد سوى هوامش ثانوية وسطحية عن شكل النظام الاجتماعي اما الجوهر فكان البرهان دائما ان (وطنا خاصا) للشعب اليهودي المنشود لمشكلتهم : ((نحن لسنا بحاجة الى اكثر من قطعة ارض يقيم فيها اخواننا ولا يستطيع اى سيد اجنبي اقتلاعنا منها)) ويضيف بنسكر : (اننا نريد ملجأ واحدا ، لان وجود عدة ملاجئ سيعيد خلق معالم تشتتنا القديمة))[2]

او كما قال ليلنبلوم : ((اتحدوا واجمعوا القوى ، فلنجمع شعبنا المشتت في اوروبا ونذهب الى وطننا بفرح)) . ((بدون وطن محسوس كما قال بيالك - وبدون اماكن للسكن خاصة بنا ، لن يكون لنا اى نوع من الحياة ، روحية كانت ام مادية)) .

وكان عبد الوهاب المسيرى قد لاحظ هذا الاتجاه المحورى في الايديولوجيا الصهيونية ، فقال ان الجميع الصهاينة يؤمنون بفكرة العودة لارض الميعاد لتأسيس دولة يهودية ، وهذه هي نقطة البداية والنهاية بالنسبة لهم جميعا)) اما المحتوى الاجتماعي لهذه الدولة ((فمسألة مؤجلة وليست ملحة)) فالايديولوجية عندما وضعت في اهدافها اقامة دولة يهودية لم تحدد ((شكل الدولة الصهيونية ولا شكل ملكية الارض ، ولا المثل الاجتماعية أو الايديولوجية الظاهرة ، او بالكابامنة ، وانما تحدثت فقط عن الحصول على ارض فلسطين كي تكون ملكا للشعب اليهودى)) ويضيف المسيرى وهو يشير الى نقطة جوهرية في الايديولوجيا الصهيونية ، ((ولهذا يصعب الحديث عن يمين او يسار داخل الحركة الصهيونية))[3]

---

(١) الفكرة الصهيونية - المصدر السابق - ص ٤٣٣

(٢) = = ص ٦٢

(٣) الايديولوجيا الصهيونية - المصدر السابق - ص ٢١٣ - ٢١٤

ولما كان الامر كذلك فقد شغل زعيم الحركة الصهيونية نفسه بامور يمكن ان تعد طريفة ، فقد شغل ذهنه مثلا بترتيب دفعات المسافرين (الى الارجنتين ،او فلسطين) . ففي البداية يجب أن يرحل البائسون وبعدهم مباشرة الفقراء ، ويليهم الاغنياء ، وفي اخر المطاف ، (المتمولون الكبار) . وهكذا فقد كان تنظيم القافلة بالنسبة لدون كيشوت الليبرالي يعاكس تماما التنظيم الذى اقترحه دون كيشوت الاشتراكي (بوروشوف) . ((ان الذين يذهبون اولا - يقول هرتزل - سيرفعون انفسهم الى مرتبة توازي مرتبة الذين سيلحقون بهم من الاغنياء ، لذلك فالخروج سيكون طريقة للرقي الطبقي)) (١)
اما اذا اعطيت لهرتزل قطعة ارض (وطن قومي) ملأى بالوحوش الكاسرة فان هرتزل يجهد دماغه ليخترع الحلول المناسبة . يقول : ((فلنفرض على سبيل المثال باننا اجبرنا ان نخلي بلدا ما من الوحوش ، يجب علينا ان لا نقوم بهذا العمل وفقا لاسلوب الاوروبيين في القرن الخامس ، كأن نأخذ الرمح ونذهب كل على حدة للبحث عن الدببة ، يجب علينا تأليف حملة صيد كبيرة ومن ثم نجمع الحيوانات كلها معا ونلقي وسطها القنابل المحرقة (٢)) .
اذن في نهاية المطاف ، وعندما تزاح جميع الاسترة البراقة وغير البراقة ، لا يبقى في قاع الايديولوجية الصهيونية سوى ركيزتين اثنتين : اليهودى الخائف (السامي) وعدو اليهودى المخيف (اللاسامي) وعندما شرع المفكر الصهيوني (الايديولوجي) في محاولة لتكوين نسق ايديولوجي انطلاقا من هاتين العكازتين (اليهودى ، وعدو اليهودى المفترس) ، فقد خلق وهذا امر طبيعي حالة من الاستغراب بين المحيطين به . فالصهيوني الذى تحدث لغة الدين لبناء قومية يهودية أثار استغراب رجال الدين الاخرين ، والذى استعار لغة القومية البورجوازية . اثار الشك في نفوس القوميين ... وهلمجرا . ويوجد عند (ليلينبوم) وصف نادر لانطباعات أولئك الشهود الذين كانوا معاصرين لبداية تكوين الافكار الصهيونية . فقد كتب في (مستقبل امتنا) ١٨٨٣ ، ما يلي : ((ينظر الينا خصوم القومية باننا قوميون متعصبون ذووا اله قومي وتوراة قومية . اما القوميون فيرون فينا افرادا دوليين وطنهم حيث

---

(١) الفكرة الصهيونية - المصدر السابق ص ١١٠
(٢) = = ص ١١٨

يجدون معيشة افضل ويقول الاممميون [غير اليهود] المتدينون باننا خالون من الايمان ، ويقول المفكرون الاحرار باننا نؤمن بكل الاشياء السخيفة ، ويقول الليبراليون باننا محافظون ، ويقول المحافظون باننا ليبراليون ، وبعض البيروقراطيين والكتاب يرون باننا جذور الخراب والدمار والثورة بينما يقول المحرريون باننا رأسماليون(١)

مظاهر اللاسامية في اوروبا :

ايام المؤتمر الصهيوني الاول (بال ١٨٩٧) قال ماركس نوردو :((اعتقد اليهودى لمدة جيل او اثنين بانه الماني او فرنسي أو ايطالي أو غير ذلك ، كأنه تماما مثل غيره من المواطنين .. وظهرت فجأة قبل عشرين سنة وبعد فترة هدوء استمرت ما بين ثلاثين وستين سنة حملة ضد السامية وانتشرت في اوروبا الغربية . تكشفت لليهودى المسكين والذى ظن أن اللاسامية قد ذهبت الى الابد كشفت الصورة الحقيقية لوضعه)).(٢)

يجب ان نسجل في البداية هنا ان الـ (حملة ضد السامية) استجدت فجأة على الساحة الاوروبية بعد فترة من الهدوء استمرت ثلاثين وستين سنة . وواضح ان معرفة وقائع تلك الحملة يساعد على فهم ماهيتها ويوضح اكثر النتائج التي اسفرت عنها ، وفي ذات الوقت تلقي ضوءا على اولئك الذين كانوا خلفها او المستفيدين منها . وسأختار في البداية ثلاثة احداث لا سامية بارزة يمكن تعميم منزاها على جميع الحوادث المتشابهة .

الاولى : حادثة دريفوس ـ على اثر هزيمة فرنسا في الحرب امام المانيا (١٨٧٠ ـ ١٨٧١) . اتهم ضابط فرنسي من اصل يهودى وهو برتبة نقيب واسمه دريفوس بانه كان يعمل جاسوسا لحساب الالمان ضد بلاده فرنسا وانه كان السبب في هزيمة الجيش الفرنسي امام الجيش الالماني . فسجن به في السجن بسبب هذه التهمة ونفي الى احدى الجزر النائية . وقد دامت محاكمته مدة تزيد على اثنى عشر عاما . وتبين في نهاية الامر انه كان بريئا وان الاوساط السياسية النافذة في فرنسا قد لفقت له تلك التهمة للتمويه على مسؤوليتها في الهزيمة العسكرية . وقد احدث هذه الحادثة هزة سياسية كبيرة في فرنسا وأثرت في الرأى العام واتخذت

---

(١) الفكرة الصهيونية ـ المصدر السابق ـ ص ٧٤

(٢) = = = = = ـ ص ١٣٤

كذريعة من قبل الاوساط ذات العلاقة لشن حملة سياسية واعلامية ضد اليهود في فرنسا وحتى في اوروبا عموما ، مما ادى الى ظهور موجة شعبية عارمة عن اللا سامية في فرنسا (١). وقد سجل هرتزل في مذكراته فيما بعد ان حادثة دريفوس هي التي جعلت منه صهيونيا .

الثانية - حادثة تيزا - عزلار : في عام ١٨٨٢ وقعت في النمسا حادثة عرفت باسم (تيزا - عزلا -) وهي اسم القرية التي وقعت فيها الحادثة فقد اختفت فتاة في الرابعة عشرة من عمرها اسمها (استير صوليموزى) واتهم اليهود باختطافها ((واستنزاف دمها واختفاء جثتها)) (٢) . وقد تبين فيما بعد ان التهمة كانت ملفقة ، حيث قامت المحكمة بعد ان وصلت القضية الى القضاء بتبرئة اليهود من هذه التهمة . ولكن هذه الحادثة استغلت ضد اليهود واثارت حملة في الرأى العام تشابه ما حدث في حادثة دريفوس في فرنسا .

والثالثة : - حادثة بايليس : في عام ١٩١٢ اتهم يهودى روسي بقتل طفل مسيحي ((لكي يستخدم دمه لاعداد الفطير في عيد الفصح)) (٣) . وبمناسبة (محاكمة بايليس) في مدينة كييف أثار (المئة السود) وهو اسم يطلق على التجمع الرجعي الموالي للقيصر ، حالة من الهياج المعادى للسامية في روسيا شبيها بما حدث سابقا في كل من باريس وفيينا . وكالعادة ايضا فقد كانت التهمة ملفقة . وكان لينين قد اتى على ذكر هذه الحادثة في المشروع الذى صاغه وقدمته كتلة نواب البلاشفة الى البرلمان الروسي (الدوما) للمطالبة برفع القيود القيصرية المفروضة على اليهود الروس . فقد ورد قول لينين : ((ان اللاسامية تمد جذورها على اعمق ما يكون بين الفئات المالكة . والعمال اليهود يئنون تحت وطأة نير مزدوج بوصفهم عمالا وبوصفهم يهودا . ويكفي ان نعيد الى الاذهان المجازر اللاسامية وقضية بايليس (٤))) .

---

(١) حول الصهيونية واسرائيل - المصدر السابق ص ٤٠

(٢) التلمود والصهيونية - المصدر السابق - ص ٩٥

(٣) دوتيشر - المصدر السابق - ص ٥٨

(٤) نصوص حول المسألة اليهودية - المصدر السابق - ص ٦٦

الحملة المعادية لليهود في الثقافة والاعلام

اعتبارا من النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بدأت اجهزة سياسية وثقافية واعلامية بشن حملة اتهامات ضد اليهود ، كانت تشتد وتتسع شيئا فشيئا مع الاقتراب من نهاية القرن ، بحيث ظهر في تلك الفترة التي كانت تتكون فيها الافكار الصهيونية الاولى وكأن اللاسامية هي ايديولوجية اوروبا عموما من غربها الى شرقها . وفيما يلي ابرز الوقائع في تلك الحملة :

- عند مطلع القرن التاسع عشر (١٨٠٣) صدر كتاب باللغة الرومانية نسب الى حاخام يهودي اسمه (ناوفيطوس) اعتنق الدين المسيحي وكان للكتاب عدة عناوين ، منها (اظهار سر الدم المكتوم) و (طريقة استنزاف دم الاطفال الجارية عند اليهود) وقد قيل ان اسم المؤلف مستعار لشخص مجهول(١) . هذا الكتاب تم رفعه الى النطاق الايديولوجي السائد ، أي تعميمه ، اعتبارا من منتصف القرن . فقد نشر باللغة الفرنسية (١٨٤٦) على يد آشيل لوران . وفيما بعد اعيد نشره من جديد في الفرنسية بعد تنقيحه على يد (غوغينو دي موسو) كجزء من كتابه (اليهود واليهودية وتهود الشعوب النصرانية) . وكتاب دي موسو هذا ترجم الى عدة لغات ((وثارت ضجة عند صدوره)) وقد كتب (نورمان كوهين) ، الكاتب اليهودي، عن تأثير كتاب دي موسو ، فقال : ((ان كتاب دي موسو كان سيصبح الكتاب المقدس لمعاداة السامية الحديثة .. فالمؤلف على اقتناع بان العالم اخذ بالسقوط في قبضة جماعة سرية من عبدة الشيطان ، الذين يدعوهم باليهود القباليين .. اما قتل الاطفال المسيحيين فانه يتيح لليهود بنوع خاص اكتساب قوى سحرية(٢))) . وفي ١٨٨٦ اصدر الكاتب الصحفي اللاسامي الشهير ادوار دريمون (١٨٤٤ - ١٩١٧) كتابه (فرنسا اليهودية) وكان احد اجزائه نفس الكراس الذي نسب الى الحاخام ناوفيطوس (اظهار سر الدم المكتوم) . وكان نشر كتاب دريمون بمناسبة محاكمة دريفوس الشهيرة . وقد لقي الكتاب ((نجاحا منقطع النظير واعيد طبعه مئات المرات خلال عام واحد)) . حتى ان كاتب سيرة حياة هرتزل (اليكس باين) اعتبره ((من اكثر الكتب رواجا ومبيعا في القرن التاسع عشر(٣))) .

---

(١) التلمود والصهيونية - المصدر السابق - ص ٧٤

(٢) - - - - - ص ٧٣

(٣) الصهيونية وحقوق الانسان - المصدر السابق - ص ٦٠

وفي عام ١٨٦٢ اصدر دريمون مجلة اسمها (الكلمة الحرة) تناطقة باسم حركته اللاسامية . وحتى عام ١٨٩٩ كان دريمون قد اصدر سلسلة من المؤلفات وكلها تنسج على نفس المنوال في معاداة اليهود . ويمكن ايجاز الخطوط العامة لاراء دريمون اللاسامية على النحو التالي :

- يهود فرنسا كانوا متآمرين مع بسمارك في الهزيمة التي لحقت بفرنسا خلال حرب ١٨٧٠ - ١٨٧١ .
- يهود فرنسا ليسوا فرنسيين بل هم عنصر غريب ويجب اعتبارهم ضيوف على فرنسا .
- التجار والمتمولون اليهود يشكلوا خطرا على ((الطبقة الوسطى المسيحية الناشئة)) وكذلك يشكلون في الوقت ذاته خطرا على ((مستقبل الطبقة العاملة)) في فرنسا .
- كل مظاهر الفوضى والانحطاط في المجتمع الفرنسي سببها اليهود لانهم يتصفون ((بخصائص وميزات عرقية منحطة وغير نقية)) .
- لا يجوز فسح المجال لاندماج اليهود في المجتمع الفرنسي ، بل يجب طردهم ((ومصادرة ممتلكاتهم واموالهم))[(١)] .

ان هذا الكاتب والصحفي الذى كان يعبر في الواقع عن التصور الايديولوجي السائد لدى الاوساط الرأسمالية الفرنسية بخصوص حل المسألة اليهودية ، كان قد ساهم ((بنصيب وفير)) ، كما يقول اسعد رزوق في الاتوجيه النظرة الهرتزلية نحو اعتماد الحل الصهيوني للمسألة اليهودية[(٢)])) . اما في المانيا ، فيمكن توقيت الحملة ضد السامية بكتاب (انتصار اليهودية على الجرمانية) . لمؤلفه وليم مار [١٨١٩ - ١٩٠٤) وهو يهودى (مسمد) كان قد اعتنق المسيحية حديثا . وهو ابن الممثل اليهودى الالماني (مايزيخ مار) وقد صدر الكتاب في فترة الازمة الاقتصادية التي حصلت في اوروبا بين عامي ١٨٧٢ و ١٨٧٣ . ((انتهت المانيا . الويل للمغلوب)) . هكذا كان الشعار الذى اطلقه اليهودى المنتصر وليم مار . وقد حظي كتابه ((بست طبعات متوالية خلال اثنى عشر عاما من صدوره)) وكانت قاعدة افكار مار ((تقوم على التمييز بين اليهودي والالماني من ناحية العرق والدم)) . فقد ادعى ((ان اليهودية ما برحت تشن حربا لا هوادة فيها

(١) المصدر السابق - ص ٦١
(٢) = = - ص ٥٧

على الجرمانية منذ العام ١٨٤٨ بقصد الاستيلاء على مقدرات المانيا وتهويدها كليا)) . وفي عام ١٨٧٦ اصدر وليم مار منشورات انتخابية في برلين ، تقول ((لا تنتخبوا اليهود .. الطريق الى انتصار الجرمانية على اليهودية)) . ثم اسس (رابطة اعداء السامية) فكان من اهدافها :
- العمل على توحيد الالمان ((من غير اليهود)) . والعمل على انقاذ الوطن الالماني من ((التهويد)) .
- الوقوف بوجه عملية استمرار ((التغلغل اليهودي)) وتحرير الجرمانية من تسلط ((النفوذ اليهودي)) (1) .

وبسبب تأثير افكار وليم مار على اوضاع اليهود في اوروبا ، فقد كتب الزعيم الصهيوني (ليلينبلوم) في ١٨٨٣ ، قائلا ((نذكر منذ ثلاث سنوات عندما بدأ مار فكرة مناوأة السامية ، اننا سخرنا من فكرته ومن مخططاته وقلنا انها فكرة قديمة تعود الى ما قبل اربعمئة سنة ولكن لم يمر اكثر من اربعة اعوام حتى اخذت حركة اللاسامية هذه تجتاح اوروبا ، وملأت هذه الحركة العالم بالاحتجاجات والتظاهرات والحرائق والاجتماعات والخطب في البرلمان وغيرها)) (2) .
وفي عام ١٨٧١ كان اوغست روهلنج (١٨٣٩ - ١٩٣١) استاذ اللاهوت في جامعة مونستر في المانيا قد اصدر كتابا بعنوان (اليهودي التلمودي) . واعتبارا من عام ١٨٧٦ اخذ كتابه المذكور ((يطبع ويوزع على بلدان واسعة)) ثم ترجم الى ((لغات كثيرة)) . وفي المانيا طبع ((في ١٧ طبعة متوالية ابان ارتفاع موجة العداء للسامية واليهود - وقبل مجيء النازيين الى الحكم)) كما قامت الجمعيات والاندية الدينية بالترويج للكتاب وتوزيع ((الاف النسخ منه مجانا)) واستقبلته ((الصحافة الكاثوليكية)) في المانيا والنمسا بالترحاب ، ((فاحرز مؤلفه الشهرة والنجاح)) والتف حوله كثير من الانصار والمريدين من ((النافذين)) واعتبارا من مطلع الثمانينات اصبح هذا الكتاب يتمتع بمكانة ((مرموقة في عالم البحث والتنقيب العلمي ، الى جانب الرواج الذي صادفه على صعيد الانتشار الشعبي)) حتى ان روهلينج تعين بفضل جهود النافذين من مريديه وكذلك ((تأييد الاوساط المناوئة للحكم الليبرالي في النمسة)) استاذا لكرسي ((اللغات السامية في جامعة براغ)) اما الفكرة المحورية في كتاب روهلنج فتزعم ((ان تعاليم

---

(1) المصدر السابق ص ٣٢ - ٣٣ .
(2) الفكرة الصهيونية - المصدر السابق - ص ٧٥ - ٧٦

التلمود تأمر اليهود بارتكاب الذبائح [البشرية] واستنزاف الدماء لصنع فطير الفصح الشهير)) (١) . وعندما قامت المحكمة في فيينا بتبرئة اليهود من التهمة الموجهة اليهم في حادثة (تيزا - عزلار) ادعى الدكتور روهلنغ ان لديه براهين ((بان اليهود يرتكبون الذبائح التلمودية لاغراض شعائرية والقسية في ديانتهم)) واعرب عن استعداده للمثول امام المحكمة وتقديم مثل هذه الادلة . وعندما رفضت السلطات الاستجابة لطلباته راح مؤلف (اليهودي التلمودي) ينشر في الصحف بسلسلة من المقالات يهاجم فيها ((التلمود)) و ((الشولحان عاروخ)) (كتاب فقه يهودي) زاعما ان تعاليم التلمود ((تأمر اليهود بارتكاب الذبائح واستنزاف الدماء)). وفي عام ١٨٨٣ جمع روهلنغ مقالاته هذه واصدرها في كتاب جديد . ويقول الحاخام (جوزيف بلوخ) الذي اقام دعوى امام محاكم فيينة ضد روهلنغ ((بان توزيع الكتاب المتضمن مقالات روهلنغ ضد التلمود والشولحان عاروخ وصل الى ٢٠٠ الف نسخة في البلدان التي تتكلم الالمانية من الامبراطورية النمساوية والمجرية ، بينما وضع ما لا يقل عن ١٧٥ الف نسخة من كتابه عن الذبائح البشرية لدى الربانيين في متناول الجمهور (٢))) .

ويكتب الدكتور اسعد رزوق انه لم تكد اسهم روهلنغ ترتفع في (الاوساط المحافظة) حتى اخذت ((النقمة على اليهود تنتشر بين العمال في الضواحي الصناعية)) بينما راح المعادون لليهود يروجون الشائعات بان ((الرأسماليين اليهود والاغنياء استطاعوا تبرئة ساحة اخوانهم في الدين من تهمة قتل فتاة مسيحية بريئة)) . ويبدو ان الظروف السياسية والاقتصادية كانت مؤاتية لاشتداد النقمة على اليهود مما ضمن السيطرة لاراء الدكتور روهلنغ وجعل اقواله عن التلمود لاتحتل المسرح بلا منازع (٣) .

ومن المفيد الاشارة الى ان روهلنغ الذي كان يحمل لقب بروفيسور و (استاذ اللغات السامية) ، عندما وضع على المحك وطلب اليه ان يمثل امام لجنة تحكيم مؤلفة من علماء ذوي مكانة غير مختلف عليها

---

(١) التلمود والصهيونية - المصدر السابق ص ٩٣ - ٩٤ - ٩٥
(٢) المصدر السابق ص ٩٥
(٣) = = ذات الصفحة

وان يدلي امامها باقواله وبراهينه ضد الدين اليهودي ، تملصا من التحكيم وبذلك اثبت على نفسه التهمة التي وجهت اليه من قبل علماء الدين اليهود وبأنه ((جاهل)) و ((عديم الكفاءة)) وحتى انه لا يعرف كيف ((يترجم النصوص العبرية)) [1] .

هناك ايضا شخصية غامضة لمع اسم صاحبها في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، كما لعب دورا بارزا في ((تلفيق الكتابات ضد اليهود)) وقد عرف ذلك الشخص الناعس تحت اسماء عدة ، فهو (عثمان بك) حينا و (كبروه لي زاده) حينا اخر . لكن يقال ان اسمه الحقيقي هو (ميلنغر) وعلم انه طرد من مدينة البندقية عام ١٨٣٠ ومن بلدان اخرى خلال الثمانينات ، واتجه نحو معاداة السامية كوسيلة لكسب الرزق .. فراح يدبج الكراريس المعادية للسامية لكي يعرضها للبيع متنقلا من باب الى باب : من اثينة الى الاستانة فالاسكندرية وقد بقي على هذا المنوال ، يتعرض للاعتقال والسجن بسبب نشاطه الاحتيالي الى ان توفي حوالي عام ١٨٦٨)) ان عثمان بك هذا ((كان يهودي الاصل فاصبح محتالا دوليا)) . وقيل انه من مواليد الصرب . وكان يكتب بالالمانية وينشر كتبه في سويسرة ((ثم انتقل الى روسية القيصرية والحركة المعادية للسامية هناك محاولا تقديم خدماته [2] . هذا الشخص الناعس وصاحب الاسماء المتعددة الف كتابا بعنوان (غزو العالم بواسطة اليهود) وفكرة الكتاب الرئيسية تقول ان (جمعية الاليانس) التابعة لفرع روتشيلد الفرنسي ، هي ((نبع الشرور في العالم لا بل القوة الخفية وغير المنظورة وراء احكام الطوق اليهودي حول عنق العالم واخضاعه لسلطان المال والذهب والفولاذ)) كما زعم ايضا ان لدى اليهود ((مجمع مسكوني)) يعقدونه ويبحثون فيه مسألة السيطرة على العالم ((من القطب الشمالي الى الجنوبي)) كما انه اضاف لذلك كتب العديد من التصص عن ((الذبائح التلمودية)) [3]

وفي عام ١٩٠٢ صدر باللغة الروسية كتاب بعنوان (بروتوكولات حكماء صهيون) لمؤلف مجهول الهوية كذلك عرف تحت اسم مستعار (سيرجي نيلوس) وهذا الكتاب يشبه بموضوعاته تلك الافكار التي روج لها (ميلينغر) من قبل في كتاب (غزو العالم بواسطة اليهود) . فكتاب (البروتوكولات

---

(١) المصدر السابق ص ٩٦
(٢) = = ص ١٠٢ - ١٠٣
(٣) = = ص ١٠٣

يتحدث عن مؤامرة عالمية يديرها اينا (حجمي حكومي) يهودي مؤلف من (حكماء صهيون) هدفها تدمير اخلاق العالم وسياسات والاطاحة بحكوماته والسيطرة على جميع الامم بواسطة الدسائس والمال والنساء الخ .. والهدف النهائي هو ((استعباد العالم كله تحت تاج ملك من نسل داود)) . يقول المؤلف ((يجب ان يكون شعارنا - كل وسائل العنف والخديعة)) و ((يتحتم الا نتردد لحظة واحدة في اعمال الرشوة والخديعة والخيانة اذا كانت تخدمنا في تحقيق غايتنا))(١) .

ويظهر في مواضيع عدة من الكتاب انه كان موجها للاستخدام ضد تيار الشيوعية البلشفية في روسيا (٢). وقد اعيد طبع الكتاب مرة ثانية باللغة الروسية سنة ١٩٠٥ وهو عام الانتفاضة الروسية ضد القيصرية وعام المذبحة اللاسامية الشهيرة . ثم إنتشر الكتاب في البلدان الاوروبية الاخرى . وحتى عام ١٩٢١ كان قد طبع باللغة الانكليزية خمس طبعات متوالية . ويبدو من اقوال المفكرين الصهاينة (الايديولوجيين) انه في روسيا خاصة كان للصحافة دور في التحريض ضد اليهود مثل دور الكتب او اكثر . فكما اشار سمولنسكين فان الصحافة الروسية قد بدأت منذ وقت مبكر تشن حملاتها . وكتب اثر مذابح ١٨٨١ فقال ((لقد بدأ الهجوم على اليهود مؤخرا ، لكنه كان يحضر على مر السنين ، يعود السبب الحقيقي في كل هذا الى ان الضغينة التي ملأت معظم الصحافة الروسية ضد اليهود خلال العشرين سنة الماضية القت علينا كل انواع الذنوب . القت علينا اشكالا من تهم المعاصي والخداع والشرور . وقد كتبت المقالات والكتب الكثيرة بتهمة اليهود بشرب الدماء . وذلك لاثبات ان اليهود يشربون دماء الاطفال المسيحيين . فهل يستغرب الامر بعد التحريض لمدة عشرين سنة على السلب والنهب وحتى القتل ، بان تثمر هذه الكلمات في النهاية (٣))).

---

(١) الخطر اليهودي - بروتوكولات حكماء صهيون - تقديم وترجمة محمد خليفة التونسي - المكتب العربي - بيروت بدون تاريخ ص ١١٨

(٢) المصدر ذاته - ص ١١٠

(٣) الفكرة الصهيونية - ص ٤٨

حيلة في نطاق الايديولوجيا السائدة :

في وقت مبكر ومنذ مطلع القرن ١٩٠٣ قال لينين وهو يوجه الانظار الى تلك القوى ذات المصلحة في تسعير الحملة اللاسامية ضد اليهود :
((امن الممكن ان نلجأ الى الصدفة لتفسير ان القوى الرجعية في اوروبا باسرها وفي روسيا على الاخص وعلى وجه التحديد التي تحتج على مثل (اندماج) اليهود وتبذل قصارى جهودها لتكريس خصوصيتهم ؟)) • وقد علق ايضا ايفانوف على تساؤل لينين بقوله : ((يتبين من وضع السؤال بالذات ان لينين لم يعتبر قط هذا الواقع بانه مصادفة [1]))•
كيف يكون الامر مصادفة ؟ فعندما تدور مطابع الكتب والصحف وخطابات اساتذة الجامعات ورجال الاحزاب والبرلمانات ورجال الجمعيات والنقابات الخ •• ، عشرات المرات واحيانا مئات المرات في السنة الواحدة ، ثم تترجم هذه الكتب والخطابات الى مختلف اللغات وتنتقل من قطر الى قطر مثل النار في الهشيم وكلها تنادى بالويل والثبور وفي جوقة واحدة وصرخة واحدة ((ايها القذرون)) اخرجوا من اوروبا ، فهل يحتمل ان يكون ذلك كله مجرد مصادفة ؟
ان وقائع الحملة اللاسامية ومن الناحية النظرية وحسب ، وفي المستوى الثاني وحده ، توضح من قراءة سريعة انها من نطاق الافكار السائدة في المجتمعات المدنية • وهذا يعني من ناحية نظرية ان القوى الاجتماعية السائدة على المستوى الاقتصادى والسياسي في تلك المجتمعات هي صاحبة المصلحة في تعميم هذه الافكار وسيادتها • وهذه العلاقة بين الافكار السائدة والقوى السائدة في البنية التحتية في المجتمع كانت اساس نظرية الايديولوجيات المعاصرة كما وضعها ماركس وانجلز في كتابهما المشترك (الايديولوجيا الالمانية) • ففي كتاب الايديولوجيا الالمانية ورد قولهما : ((ان الطبقة التي هي القوة المادية السائدة في المجتمع هي في الوقت ذاته القوة الفكرية السائدة • ان الطبقة التي تتصرف بوسائل الانتاج المادى تملك في الوقت ذاته الاشراف على وسائل الانتاج الفكرى ، بحيث ان افكار اولئك الذين يفتقرون الى وسائل الانتاج الذهني تخضع من جراء ذلك لهذه الطبقة السائدة • وليست الافكار السائدة شيئا اخر سوى التعبير المثالي عن العلاقات التي تجعل •••

(١) احذروا الصهيونية ـ المصدر السابق ص ٤١

الطبقة الواحدة طبقة سائدة ، وبكلام آخر فهي أفكار سيطرتها(١)))
ومن المعروف ان القوى المهيمنة في الاقتصاد هي التي تشكل الدولة
بمعنى ان سلطة الدولة هي التعبير السياسي عن هيمنتها . وعلى ذلك
اذا بحثنا في المستوى الفكري ، فان الجامعة او المدرسة ، ودار
الصحافة ودار النشر ، الحزب او الحركة السياسية ، المنشآت الثقافية
الثقافية ، واضف اليها في زماننا الاذاعة والتلفزيون والسينما ..
الخ ، هذه كلها اجهزة من سلطات سلطات الدولة . ولويس التوسير وهو
من الشراح البارزين لنظرية الايديولوجيات الماركسية ، وله في هذا
المجال بالذات توضيحات ضرورية لفهم تأثير الايديولوجيات ، يسمي
هذه الاجهزة ((اجهزة الدولة الايديولوجية)) ، وهذه يصنفها الى جانب
((اجهزة الدولة القمعية)) باعتبارها الوسيلة الثانية التي تستخدمها
الدولة في ممارسة سلطانها(٢) على المجتمع .
وليس الا من قبيل الوهم عندما تظهر حملة من حملات الايديولوجيا مثل
الحملة ضد السامية في اوروبا ، وكأنها تحدث بالصدفة بسبب تناقضات
ثانوية في المجتمع ، او بسبب الاشكال الديمقراطية لممارسة السلطة
بحيث تظهر الاراء الثقافية وكأنها صادرة عن حرية الرأى . واجهزة
الدولة الايديولوجية في الدولة الديمقراطية في الغرب تسمح بتسريب
مثل هذه الاوهام ، بسبب انتماء هذه الاجهزة الى القطاعين العام
والخاص . وهكذا يمكن ان يظهر الصحفي (دريمون) ، واستاذ الجامعة
(روهنلنغ) ، ورجل البرلمان (آهلوارد*) ، وعضو الحزب السياسي
(وليم مار) ، ومؤلف الكتاب (ميلينغر) ... الخ ، وكأنهم جميعا
يقولون او ينشرون آراء خاصة لا علاقة لها بسلطات الدولة . بينما الامر
كما يؤكد التوسير غير ذلك تماما . حيث ان ((اجهزة الدولة الايديولوجية))
لا تختلف عن ((اجهزة الدولة القمعية)) الا باستخدامها الرأى والفكرة بدلا
من العصا ، وايضا لكونها تقاد بواسطة الايديولوجيا المسيطرة(٣) بدلا من
قيادة الاجهزة القمعية بواسطة اشخاص من ممثلي الطبقة الحاكمة

* – هيرمان آهلوارت نائب في البرلمان الالماني كان ينادى من فوق
منبره البرلماني بطرد اليهود من المانيا (الفكرة الصهيونية

(١) ماركس – انجلز – الايديولوجيا الالمانية ترجمة فؤاد ايوب ص – ٨٣
دار دمشق – بدون تاريخ – ص ٥٦
(٢) دراسات لا انسانوية – السابق ص ٨٣
(٣) = = = ص ٨٩

واكبر دليل ان الحملة اللاسامية كانت من نتاج سلطات الدولة ، ان العداء لليهود وكذلك حوادث العنف ضدهم قد توقفت كلها دفعة واحدة بمجرد سقوط الدولة القديمة في روسيا واقامة دولة جديدة في مكانها ليس لها مصلحة في اضطهاد اليهود . ولينين تحدث في عام ١٩١٩ عن حركة العداء للسامية في روسيا حديث تاريخ وذكريات ، فقال : ((عندما كانت السلطة القيصرية الملعونة تعيش ايامها الاخيرة ، كانت تعمل جاهدة على تأليب العمال والفلاحين الجهلة على اليهود . وكانت الشرطة القيصرية المتحالفة مع كبار الملاك العقاريين ومع الرأسماليين تنظم المجازر ضد اليهود)) وبمناسبة هذه الذكريات عن اللاسامية في روسيا ، اضاف لينين مذكرا ان ما جرى وما يجرى في اوروبا الغربية ضد اليهود ما هو الا تأليف وتنظيم رأسمالي تقوم به تلك الدول خدمة لمصالح الطبقات السائدة فيها . قال لينين ((وكثيرا ما نشاهد الرأسماليين في البلدان الاخرى ايضا يؤججون جذوة الحقد على اليهود ذرا للرماد في عين العامل وبهدف تحويل انتباهه عن عدو الشغيلة الحقيقي المتمثل في الرأسمال[1])) .

---

(١) نصوص حول المسألة اليهودية – المصدر السابق ص ٧٠

حرب بين مسيحيين :

انهم ، الاقطاعيون والرأسماليون ، لا يحصرن البوان من اجل الالان وهذه صورة ادبية ولكنها صيحة للتشنيل عن النار علي طيور البحر ، قوة اليهود الاجتماعية في الصراع الطبقي الذى كان يدور على الساحة الاوروبية آنذاك . وقد وقع الدكتور الشام بالخطأ لانه ، كما يظهر نظر فقط الي رائحة الدخان اليهودى (الشتائم) الذى كان يتصاعد فوق تلك المحمة الطبقية ، فظن أن لك سامية هي التعبير الايديولوجي عن المصالح الاقتصادية المسيحية التي كان يهددها اليهود أو الطبقة البورجوازيه اليهودية أو أنها بالاحرى هجوم ايدلوجي مسيحي قد تمهد يد يهودي محتمل . حيث أخذ ذلك الصراع على المصالح كما " قال ظاهر حركة العداء للسامية بين الاوربيين من غير اليهود " (١) .

وكان ابراهام ليون ايضا وهو المرجع الثاني بعد ماركس بالنسبة للدكتور الشام قد وقع في خطأ مشابه ، عندما ظن ان الكبار ، اكلة لحوم البشر ، يتعلمون الكلام من ضرائسهم ، فقد توهم ليون ان " أو " الفاشية " قد عثر على اللاسامية في الزحام على سوق العمل بين البرجوازيين الصغار ، مسيحيين ويهود ابان الازمة العالمية ١٩٢٩ فأخذها ولم تكن هي (اللاسامية) ايدلوجيتها بالاصل . فقد كتب ليون «انه لمن الخطأ ان يحمل الرأسمال الكبير تبعة اللاسامية ، بل ان الرأسمال الكبير ، لم يقم سوى بالاستفادة من اللاسامية الموجودة لدى الجماهير ة البورجوازيه الصغيرة (المسيحية) وقد استخدمها كمبدأ اساسي في الايديولوجيا الفاشية» (٢)

فاللاسامية في اطار الصراع الطبقي آنذاك كانت تشبه الى حد بعيد اسلوب الجوار الذى يقول أكلمك ياجارة فاسمعي ياكنة ، فقد وجهت التجارة في البداية الى أعنف خلته اليهود ، حتى أنهم وبسبب ضعفهم لحقتهم اذى كبير ولم يكونوا بقادرين على رد الاذى . وكان اول من تخلى عن التاجر والمرابي اليهودى حليفه القديم الاقطاعي . كانت الطبقة الاقطاعية في روسيا وأوروبا الشرقية عند نهاية القرن التاسع عشر تتهاوى وتفقد سيطرتها على الموقف تجاه قوى جبارة هي قوى الرأسمالية

---

(١) _ دراسات يساريه _ ص ٨٨ و ١٣٨

(٢) _ المفهوم المادى _ ط _ المصدر السابق _ ص ١٧١

والاشتراكية الصاعدة ومثلما يؤمل الغريق عندما يتمسك بقشة ، فقد حاول هؤلاء الاقطاعيون توجيه الاحقاد الاجتماعية ضد اليهود «فبأمل التخلص من المصير المحتوم - قالت الدكتورة امين في تأجيله في افضل الاحوال لاشيء في أنه توجه النقمة والتمرد ضد الحليف السابق التاجر والمرابي والممول والوكيل اليهودي الذى كان احيانا يكلف من قبل الاقطاعيين بالاحتفاظ بمفاتيح الكنائس مما كان يثير حنق الفلاحين القوزاق الارثوذكس» (١)

أما الجبهة الرأسمالية وهي الجبهة الاقوى من الغرب الى الشرق فقد كانت تنظر بعين الرعب الى جبهة الفقراء التي شرعت بالانتظام في مواجهتها . وصار من مصلحتها ان تهم بالتخريب أولا «اليهوديه العالمية» كل من يقف في صف الاحزاب الاشتراكية . وكانت المعركة الطبقية هنا تأخذ مسارها العادي فقد كان اليهودي الفقير يقف مع جبهة الفقراء وكان اليهودي الغني يقف مع جبهة الاغنياء . وتوجد شهادة تاريخية من ساحة الصراع عندما كانت المعركة الطبقية قد وصلت الى الاوج . فقد قال لينين في ١٩١٣: «انظروا الى الرأسمالية ، انهم يسعون الى اثارة الاحقاد القومية في اوساط "الشعب الوطني" ولكنهم يعرفون أتم المعرفة كيف يسوون من جهتهم قضاياهم الصغيرة ، ففي شركة مساهمة واحدة نرى جنبا الى جنب روسا واوكرانيين وبولونيين ويهودا والمانا ان الرأسماليين من الامم جميعا والاديان كافة متحدون ضد العمال او يسعون في الوقت نفسه الى زرع الشقاق بين هؤلاء الاخيرين واضعافهم بواسطة الكراهية القومية » (٢)

لابد ان الرأسماليين اليهود في الغرب (البارونات وفروعهم المصرفية) كانوا اشد الناس انفصالا . فقد كان هؤلاء يفضلون ان يلقي اليهودي في الشارع لقمة سائغة للرعاع، على ان ينتظم مع أقرانه على الجانب الاخر من خط المواجهة الطبقية - فلا فبالنسبة لهم كان على اليهودي اما ان يختار الصهيونية واما ان يختار الموت . وعندما تأكد لهم ان يهود روسيا واوروبا الشرقية يطمحون الى حل مشاكلهم كيهود وعن طريق الاشتراكية اصيبوا بحالة من الذعر وكما قال المسيري: «فقد انزع

---

(١) - المشكلة اليهودية - المصدر السابق ص١٠٦

(٢) منصور حول المسألة اليهودية - المصدر السابق - ص٨٥

هذا اثرياء اليهود في الغرب ، امثال "روتشيلد" ، فسارعوا بتمويل الحركة الصهيونية ليحولوا الشباب والعمال عن طريق الثورة "(١)

ولقد عملت اللاسامية على قاعدة من تلك المصالح المشتركة للرأسمالية والرجعية تضم اوروبا من غربها الى شرقها ، كما كان لها الاطماع الواضحة للاستثمار لاحقا في المشروع الصهيوني . فقبل ان يشرع الرأسماليون في الغرب بتصدير الجيوش والرأسمال نحو افريقيا واسيا عند نهاية القرن كانوا قد حولوا بلدان اوروبا الشرقية وروسيا القيصرية الى مناطق نفوذ لاستثماراتهم التجارية والماليه . ولذلك فان خلق البلبلة الاجتماعية في الصراع الطبقي وتوجيه الاحقاد بشكل خاص ضد اليهود في هذه البلدان كان يخدم مصالح الرأسماليين في الغرب ومصالح حلفائهم الاقطاعيين والرأسماليين الجدد في الشرق . .

كما ان الرأسماليه الغربية كانت تنتظر الفقراء اليهود المطرودين من بلادهم لايلوون على شيء لكي تتلقفهم وتستخدمهم كوقود في مشروعها الصهيوني في فلسطين . وكان مفهوما ان دائرة المصالح يمكن ان تنتقل على حافة الطبقات الدنيا الفقيرة والجاهلة في تلك المجتمعات . ومثلما كان للاقطاعيين والرجعيين وحلفائهم من الرأسماليين مصلحة في توجيه السخط ضد يهودهم كذلك كان للجهلاء والرعاع مصالحهم الخسيسة ايضا النهب والسلب . وكان يكفي ان ينسج البوليس الحبال لمثل هذه الغرائز ، وهذا امر مفهوم في كل زمان ومكان ، حتى تأخذ الامور المجرى المرسوم لها .

وبهذا الصدد يقول موشي مينوهين مؤلف كتاب انحطاط اليهودية : ((ان الجماهير البدائية في روسيا وبولندا كانت تقاد وتحرض على اضطهاد اليهود لا لسبب الا لاستغراق الجماهير بعملية النهب والاغتيال والشهوة والكراهية كي لاتفيق لتدرك مستغليها الحقيقيين ـ الحكومة والطبقة العليا المتفسخة وبذلك تظل بعيدة عن الثورة ضد النظام السائد (٢)))

كانت اللاسامية صورة رمزية تعبر عن علاقة هامشية في الصراع الطبقي وقد وظفت في حينها لاخفاء علاقة اكثر أصالة ، وهي علاقة الصراع الطبقي بين قوى اجتماعية اساسية في المجتمعات الاوروبيـة . والدكتورة بديعة امين كانت السباقة من بين الباحثين العرب لكشف عن تلك العلاقات الاساسية

---

(١) ـ الايديولوجيا الصهيونية ج ٢ ـ المصدر السابق ـ ص ٦٢

(٢) ـ المشكلة اليهودية ـ المصدر السابق ـ ص ١٠٦

ففي المانيا مثلا" عند نهاية ... القرن التاسع عشر حيث ظهر أكثر من
آى سكان آخر ذلك التزاحم بين طالبي العمل من البورجوازية الصغيرة
الالمانية والبورجوازية الصغيرة اليهودية القادمة من الشرق، لاحظت
بديعة امين ان رياح اللاسامية لاتنبعث من تضاد في المصالح الطبقية بين
يهود وغير يهود، وانما من تضاد بين مصالح المان والمان آخرين
بصرف النظر عن الدين . وان ذلك ته الصراع يدور بين ذوى النزعات
الرجعية وخصومهم ذوى النزعات التقدمية ، كتبت:(ان اللاسامية الجديدة
في المانيا كانت مظهرا من مظاهر الصراع الطبقي بين القوى الاقطاعية
السائرة في طريق الزوال والقوى الاكليريكية من جهة ،وبين البورجوازيه
الناهضة من جهة اخرى(١) وقد لاحظت بسمن ان ماكان يظهر من صراعات على
العمل والوظائف بين فئات البورجوازية صغيرة مسيحية واخرى يهودية
لم يكن اكثر من مظهر ثانوى لمصالح اكثر قوة لان ذلك الصراع الهامشي
اللاسامي كان يحصل في نفس الوقت الذى كانت فيه البورجوازيه اليهوديه
الماليه والمصرفية تمول مشروعات بسمارك في المانيا فقالت(وكدليل
مادى ملموس على ذلك".
نشير الى حقيقة انه فيما كانت البورجوازية اليهودية العليا تسهم
مساهمة نشيطة في تمويل الصناعات وفي مشاريع الخطوط الحديدية والمناجم
كان الصراع محتدما" في اوساط الطبقة البورجوازية الصغيرة المسيحية
واليهودية ، حيث قدمت لبسمارك في نيسان ١٨٨١ عريضة تحمل ٢٢٥ الف
توقيع تطالب بمنع يهودية جديدة في اوروبا الشرقية وبابعاد اليهود
عن مجال التعليم وتحديد عددهم في المدارس الثانوية والمهنة الثانوية(٢)
وفي فرنسا ، وهي منبع التأليف والنشر ضد السامية ،لم يكن الامر خلاف
ذلك، فقد كان الصراع الحقيقي يدور بين قوى متجابهة ، قديمة وحديثة
أما المظهر اللاسامي فكان ستارة فقط أولم يكن الا "جزء" من الصراع
الطبقي الوحشي الدائر بين البورجوازية الكبيرة والصغيرة والارستقراطية
فقد كتبت بديعة امين وهي تحلل اسباب حادثة دريفوس) فقالت:"ان مرتزل
ورفاقه الذين كانت تدفعهم دوافع استعمارية صرفة ... لم يكونوا
راغبين في ان ينظروا الى قضية دريفوس ضمن اطارها الموضوعي- الصراع

---

(١) - المصدر السابق - ص ١٢٧
(٢) - " نفسه - ص ١٢٨

بين القوى التقدمية الموالية للنظام الجمهوري والقوى الرجعية المعادية للجمهورية" وتستشهد بالمؤرخ (كارستن) فيما يخص هذه القضية. فكتبت . ان صداما مكشوفا "بين القوى الموالية للنظام الجمهوري والقوى المعادية للجمهورية هز أسس النظام القائم نفسها ، قد وقع في نهاية القرن حول مسألة ما اذا كان الكابتن الفريد دريفوس المتهم بالتجسس لصالح المانيا بريئا" أم مجرما" .. وخلال السنوات اللاحقة تصاعد ببطء الاحتجاج من اجل اعادة المحاكمة وفي بداية ١٨٩٨ نشر اميل زولا كتابه الشهير "اني اتهم" دفاعا عن دريفوس" ماذا نستخلص من الشقاق الذى حصل في المجتمع الفرنسي بسبب حادثة دريفوس؟ تضيف المؤلفة :" لو كان هناك حقا لاسامية طاغية موجهة ضد اليهود في فرنسا ، فقط لانهم يهود لاسامية تستطيع ان تجعل من اليهود - اللايهود يهودا" اذا جاز القول، كما حصل لنوردو وهرتزل، كما يزعم الاخير اقول - لوكانت هناك لاسامية كهذه في فرنسا فان فرنسا لما انقسمت على نفسها ولما برأت ساحة دريفوس" لقد قال هرتزل في بداية اعتناقه الصهيونية "ان حادثة دريفوس هي التي جعلت مني صهيونيا"

وبديعة امين تشير الى ان الصهيونيين عملوا على استثمار المعنى اللاسامي من حادثة دريفوس وغضوا الطرف عن معانيها الاخرى "ان الصهاينة - قالت - كانوا يرفضون باصرار النظر الى هذه المسألة على انها جزء من الصراع ضد الديمقراطية وان دريفوس لم يكن الا كبش فداء اختارته القوى الرجعية وانه كان من المحتمل جدا ان يكون هذا الكبش بروتستانتي وليس يهوديا لا بل ان الصهاينة تغاضوا عن كون دريفوس "قد برئت ساحته وأعيد له شرفه العسكرى، وان الضابط الذى ثبتت ادانته بتهمة تزوير وثائق ادين دريفوس استنادا لها ، وهو الكولونيل هنرى، الموالي لقوى الرجعية المحافظة كان قد اعتقل وانه قد انتحر وفقد شرفه العسكرى الى الابد[1]"

وعند هذه النقطة ردت الدكتورة بديعة امين على صادق جلال العظم لانه تصور ان اللاسامية قد ولدت من الصراع بين يهود ومسيحيين . فتساءلت باستنكار هل الصهيونية "هي التعبير الايديولوجي والقومي للبورجوازية اليهودية كما يعتقد الدكتور العظم ؟ " . واجابت " يبدو ان من الصعب جدا ان توافق على هذا" [2]

---

(١) المصدر السابق - ١٣٠

(٢) المصدر السابق ص ١٣٦

وبديعة امين وهي تنظر الى الارهاصات الاولى للفكرة الصهيونية لا من اثبته وزارة الخارجية البريطانية " حيث لم يكن هناك البتة اى صدام بين يهود وغير يهود " حيث لم يجابه اليهود اية صدامات " يمكن ان تذكر مع " السكان المحليين " وبالنظر الى نشوء الحركة الصهيونية عند نهاية القرن التاسع عشر من اجل اهداف استعمارية واضحة تتماشى وحركة اوروبا الامبريالية ومصالحها في الشرق الاوسط تتول شيئا متميزا وهاما وهي تدفع بالتفكير الى نهايته المنطقية وذلك عندما تؤكد ان الحركة الصهيونية لم تولد من مشكلة يهودية او لحل مشكلة يهودية وانما ولدت من المشكلة الاستعمارية ولحل مشكلة استعمارية . فقالت:((انه لايوجد هناك اية صلة تربط بين مايعرف بالمشكلة اليهودية وبين الحركة الصهيونية التي برزت فقط في اواخر القرن التاسع عشر في خضم تصاعد الموجة الاستعمارية في بلدان اوروبا الغربية حين بلغ النظام الرأسمالي اعلى قمة في تطوره - المرحلة الامبرياليـــة " وهي تدلل على رأيها في ان الصهيونية لم تنشأ لحل مشكلة يهودية بقول " وايزمن ((ان اليهود كانوا ضدنا واننا كنا بمفردنا نقف فوق جزيرة صغيرة [بريطانية -] مجموعة صغيرة من يهود ذو ماضي اجنبي)) وايضا بقول الاستعماري البريطاني والصحفي الشهير سايدبوثام الذى كان شغله الشاغل الدعوة لعودة اليهود الى فلسطين حين قال : ((لم يكن لي اية صلات يهودية على الاطلاق ، وقد قامت حجتي لارجاع اليهود الى فلسطين على الاسس المصلحية البريطانية بشكل بحت ، ورائدي تلك الفكرة الوحيدة لمساعدة الحلفاء على النصر في الحرب))(١) جديد تكرر انتقادها لاراء ابراهام ليون وصادق جلال العظم حول منشأ الصهيونية فتؤكد ((ان الحديث عن كون الحركة الصهيونية وليدا للمشكلة اليهودية انما هو شرط تعسفي ومفارقة تاريخية ... ولايزيد عن محاولة تطبيق نظريات وقواعد علمية صيغت من مقومات واقع مادى ملموس معين وقائم فعلا على وضع لا يملك شيئا من مقومات وأسس ذلك الواقع))(٢)

ووقائع التاريخ تؤكد رأى بديعة امين ضد رأى ليون والعظم واحيانا يكون لهذا الوقائع معنى رمزى بالغ الدلالة . ففي عام ١٨٩٥ عندما كان

---

(١) - المصدر السابق - ص ١٨١

(٢) - المصدر نفسه وذات الصفحة

هرتزل يعتنق الصهيونية ويضع كتاب "الدولة اليهودية" كان سيسل رودس بطل اوروبا الامبريالية ورمزها عند نهاية القرن التاسع عشر المليونير الاستعماري ومؤسس روديسيا ، يقول لصديقه الصحفي الانكليزي ستيد :

" كنت امس في الايست أيند (حي العمال في لندن) وحضرت اجتماعا من اجتماعات العمال العاطلين ، وقد سمعت هناك خطابات نارية كانت من أولها الى آخرها صرخات : الخبز .. الخبز .. واثناء عودتي الى البيت كنت افكر بما رأيته وتبينت اوضح من السابق اهمية الامبريالية .. ان الفكرة التي اصبو اليها هي حل المسألة الاجتماعية ، اعني : لكيما ننقذ اربعين مليونا من المكان البريطانية المتحدة من حرب اهلية مهلكة ينبغي علينا نحن الساسة طلاب المستعمرات ان نستولي على اراض جديدة لنرسل اليها فائض السكان ولنقتني ميادين جديدة لتصريف البضائع التي تنتجها المصانع والمناجم . فالامبراطورية ،وقد قلت ذلك مرارا" وتكرارا" ، هي مسألة البطون . فاذا كنتم لاتريدون الحرب الاهلية ينبغي عليكم ان تصبحوا امبرياليين(٢) .

ففي هذا الواقع الاوروبي ، والبريطاني على رأس القائمة ، لم تكن اللاسامية الملاحقة واحدة من حجج الصراعات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تعج بها القارة بأسرها . لابل انها الصوت الاضعف بين الايديولوجيات الاخرى : ايديولوجيا الرجل الابيض ، وتفوق الانكلوسكسون وألمانيا فوق الجميع ... الخ .

والمعنى الرمزي الذي اشرت اليه انه يوجد في وثائق التاريخ في لحظة تشكل الحركة الصهيونية ، رسالة ذات مغزى واضح ، حيث لايوجد فيها تقريبا اي شيء عن اليهودية ويوجد فيها كل شيء من تصورات الاوروبي الابيض عند نهاية القرن والرسالة وجهها هرتزل رمز الصهيونية "الى رودس رمز اوروبا الامبريالية باعتباره " مرجع استعماري له خبرة" وقد طلب فيها هرتزل من رودس أن يصادق له على مخططه الصهيوني في استعمار بلد على غرار روديسيا لان موافقة رودس تعني ان المخطط سيكون " عمليا" و " مملوء بالحضارة " ومفيد لـ " تقدم البشرية " بالاضافة طبعا ،وهذا امر أهم((مفيد لبريطانيا العظمى)) وقد ورد في رسالة هرتزل

---

(١) - لينين - المختارات - مجلد (١) - جزء (٢)
دار التقدم - موسكو ١٩٦٦ - ص٣٨٤

قولــه : ((كيف حدث اذن ان اتجهت نحوك، مادام الامر خارج طريقتك ؟ لانه امر استعماري،ولانه يقوم على فكرة تنمية تستغرق عشرين وثلاثين سنة لكنك أنت يا سيد رودس سياسي خيالي أوخيالي عملي . وقد برهنت على هذا ما أريده منك ليس ان تسليني او تقرضني تبنة من الجنيهات ، بل ان تصدق على المخطط الصهيوني وان تعلن التصريح التالي امام عدد من الناس : أنا رودس تمت بفحص هذا المخطط ووجدته صحيحا وعمليا . انه مخطط مملوء بالحضارة ممتاز بالنسبة الى الشعب الذى يتوجه المخطط نحوه . لايعيق تقدم البشرية العام ، مفيد جدا لانكلترا وبريطانية العظمى)).(١)

((لانه امر استعمارى)) . ولم يكن لدى هرتزل مايعرضه أهم من هذا الامر . و ومثلما طلب من حامل ايديولوجيا الرجل الابيض ان يشرفه بوضع توقيعه على مخططه ، كذلك قدم وعودا لحكام اوروبا الرجعيين الاخرين،وليقصر روسيا بشكل خاص ،انه سوف يعمل من الحركة مخففصدمة تقيهم من الاخطار الطبقية المحدقة بهم . وحسب شهادة الكاتب التقدمي اليهودى موشيه مينوهين ،فان هرتزل((قدم وعدا مرضيا لكل من بليفه (وزير القيصر الروسي) وقيصر المانيا ، ولكل مجموعة الاوغاد والرجعيين الذين كانوا يحكمون اوروبا : ان الصهيونية ستقضي على جميع العناصر الثورية والاشتراكية بين اليهود)) (٢) . وهكذا فانه اذا كان لدى هرتزل مشكلة فهي مشكلة اليهود التقدميين وليست المشكلة اليهودية .

لمـــــــاذا الصـــــــا ؟ ....

ويبقى سؤال هام وهو يخص المسافة بين منبع الفكرة الصهيونية ومنبع اللاسامية والسؤال هو ،لماذا اتخذت اللاسامية اسلوب العنف بشكليه الايديولوجي والقمعي؟ .. وجوابه بداية بسيط: لان يهود اوروبا في الغرب وفي الشرق ، لم يكونوا مستعدين لتنفيذ الاهداف الشريرة التي كانت تطلبها منهم تلك القوى المحركة الجبارة ، قوى الاستعمار والامبريالية ولم يرفضوا فقط التطوع ضد القوى التقدمية الصاعدة على الساحة الاوروبية وانما رفضوا ايضا وباصرار التطوع لخدمة الامبريالية في مشروعها الرامي الى توطينهم في فلسطين .

---

(١) - ش . ف عدد ٢٩ - كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤ - ص ٥٧

(٢) المشكلة اليهودية - المصدر السابق - ص ١٥٨

ولما لم يمتثلوا بالتي هي احسن فقد وضعوا في التجربة امام ما هو أسوأ . وكان هذا امر عادي بالنسبة لمن يضنيهم الامر .
وفي التأكيد على منحى الرفض اليهودي يمكن البدء بذكر حادثة تتضمن دلالتها في ذاتها . كان لورانس اوليفانت (١٨٢٩ – ١٨٨٨) وهو رجل استخبارات بريطاني من جنوب افريقيا . مكلفا بالعمل من قبل اللورد " شافتسبرى" ورئيس الوزراء " دزرائيلي" كصلة وصل مع جمعيات احباء صهيون في روسيا . وفي سبيل تشجيع الاستيطان في فلسطين ذهب هو بنفسه ممثلا دور " الرائد" سنة ١٨٨٢ الى فلسطين ومعه سكرتيره اليهودي " ((نافتالي هيرزامير)) وهو مؤلف نشيد الهاتيكفا (الامل) الذى اصبح النشيد الوطني الصهيوني (ثم الاسرائيلي فيما بعد) . والدلالة المعنية " ان هذا الصهيوني . غير اليهودي قضى بقية حياته في فلسطين مستوطنا يروج لفكرة الاستيطان اليهودي. في حين هاجر مؤلف النشيد القومي الصهيوني الى الولايات المتحدة لانه لم يطق الحياة في ارض الميعاد"(١)
وتكاد تكون وقائع تاريخية مبتذلة . ان جميع الدعوات التي وجهت لليهود من قبل رجال الدولة او رجال دين . للتوجه الى " ارض الميعاد " للصلاة او للتلاقي مع " المسيح المنتظر " او حتى لكي يصبحوا " سادة العالم " في مركز العالم (ملتقى القارات الثلاثة) قد باءت جميعها بالفشل الذريع . فلم يستجب احد لدعوة كرومويل منذ منتصف القرن السابع عشر ولم يلحق احد بجيوش نابليون عندما كان الامبراطور يتجه لفتح فلسطين (١٧٩٩) وقد وجه نداء ((الى ورثة فلسطين الشرعيين))(٢) وعدهم فيه باعادة " القدس القديمة ومملكتها المجيدة " وعندما نادى عليهم مجددا القس البريطانيون " استفيقوا يا أبناء ابراهيم فالله ذاته . الاب السماوي. يدعوكم للرجوع الى وطنكم القديم"(٣) كذلك لم يستجب لمثل هذه الدعوات احد .
وقد كتب الدكتور اسعد رزوق حول رد فعل اليهود في اوروبا الغربية على دعوة " صهيونية الاغيار" فقال : ((ان يهود اوروبا الغربية آنذاك لم يشاطروا جماعة الالفيين رأيهم. بل رأوا في فكرة الاسترجاع دعوة لاعتناق المسيحية والتخلي عن دينهم . لذا تميزت استجابتهم لحماس الاغيار

---

(١) – الايديولوجية الصهيونية – المصدر السابق – ص١٣٨
(٢) الصهيونية وحقوق الانسان – المصدر السابق – ص ١٦٤
(٣) – المشكلة اليهودية – المصدر السابق – ص ١٥١

غيرتهم الشديدة بالصمت او الرفض المؤدب»(١) . ان المشروع الذى يتبنى عودة اليهود الى فلسطين يجب بداهة ان يؤمن به اليهود، ورجال الدولة الاستعماريون الذين يعنيهم الامر تأكدوا في اكثر من مناسبة ان اليهود غير متحمسين البتة لمثل هذه العودة . وفي أوج الحماس لاعادة اليهود الى "ارض الاباء والاجداد" ، عندما كان صوت الصحف يختلط بصوت التبشير وخطابات اللوردات بخطابات النواب في بريطانيا سنة الازمة "الشرقية" ١٨٤٠ ، كان اليهود وحدهم غير مبالين في الامر . وقد سجل المؤرخ اليهودي "لوسيان وولف" هذه الواقعة بقوله : " ان اليهود انفسهم كانوا غير مبالين بالامر ، فلم يكترثوا له كثيرا ، حتى انه لم يرتفع بينهم عام ١٨٤٠ صوت يطالب بفلسطين »(٢) .

وفي عام ١٨٤١ وضع القنصل البريطاني في القدس (الكولونيل تشارلز هنرى تشرشل) ، وهو من اركان الجيوش المتحالفة ضد محمد علي ، مشروعا لتوطين اليهود في فلسطين . وارسل بذلك رسالة الى السياسي والمصرفي البريطاني اليهودى (موسى مونتفيورى) في لندن . وجاء في رسالته ان " تجديد وجود الشعب اليهودى هدف يمكن الحصول عليه ، ولكن اهم الشروط الضرورية لذلك ان يقوم اليهود انفسهم اولا باثارة الموضوع في كل مكان وبالاجماع" وطلب الكولونيل تشرشل من مونتفيورى القيام بمساعي بين اليهود لانجاح مثل هذا المشروع . والذى حصل ان مونتفيورى عندما عرض اقتراح تشرشل على "لجنة ممثلي الطوائف اليهودية في بريطانيا قررت اللجنة بتاريخ ١٨٤١/١١/٨ انها غير مؤهلة للقيام بالمهمة »(٣) .

لم يكف الصهيونيون المسيحيون " الاغيار" عن الدفع باتجاه المشروع لكنهم بعد تأكدهم من عدم الاستجابة ، غيّروا لهجة النداء ، فصارت الموضة ان ينادى اعتبارا من النصف الثاني من القرن التاسع عشر باسم اله اليهود "يهوه" وليس اله المسيحيين . فلم يعد" العام الالفي" وعودة المسيح من جديد هي الرمز الروحي ، بل عودة "المسيا" الملك من نسل داوود" الذى سوف ينتظر "شعبه " هناك في فلسطين ، لكي يعيد "مجد اسرائيل مجددا" صاروا يقولون لهم : ليس من الضروري ان تصيروا مسيحيين عودوا الى فلسطين من اجل دينكم انتم .. وصاروا يقرأون لهم في سفر أرميا : " اسمعوا كلمة الرب ايها الامم واخبروا في الجزائر البعيدة وقولوا مبدد اسرائيل يجمعه ويحرسه

---

(١) الصهيونية وحقوق الانسان - المصدر السابق - ص ١٦٨

(٢) المصدر السابق - ص ١٤١

(٣) اسرائيل خنجر امريكا - المصدر السابق - ص ٢٤

كراع تدليحة " (ارميا ٣١/١٠) . ومجددا اينما وجدوا الرد ذاته . في ١٨٥٤ أصدر الحاخام الاكبر في بريطانيا (الدكتور آدلر) وهو انكليزي عتيق أكثر من شافتسبوري ودزرائيلي وتوجيها دينيا قال فيه : " ان مصائر اليهود بيد الله " وان الله امرنا ان لا يستنبات) به وان لايثار حبه حتى تلك الساعة التي يختارها هو نفسه " لكن مع مرور الزمن وكما لاحظ ايغاتوف بنغاد " ازداد عدد الذين يرغبون في ايقاظ "يهوه" المتهاون "(١)

ان قول اللورد شافتسبري ١٨٧٦ (قومية اليهود موجودة . فلا ينقص سوى المظهر الخارجي اوريالك الوحفة المتوج لذلك " يمكن ان يقرأ باعتباره دعوة لتشكيل الحزب الصهيوني (الحركة) او دعوة لاجبار اليهود بوسائل اخرى على الانضمام لمثل هذا الحزب . وقد لايكون عبثا ان تاريخه سبق تاريخ اول مذبحة كبرى ليهود روسيا سنة ١٨٨١ . ويؤكد تاريخ الحركة اللاسامية في اوروبا ان هذه الحملة ضد اليهود .

قد اديرت بدقة واحكام ينسجمان مع الهدف السام لاستخدام يهود اوروبا وهو ضباط من الغرب وجنود الشرق . فالحملة اللاسامية لم تمس هنا في غرب اوروبا رأس أي يهودي ولم تغير من وضعه القانوني او السياسي فقد بقيت الحملة في الغرب في نطاق الايديولوجية فقط . ولم يستخدم هنا جهاز الدولة القمعي الاداري او البوليسي . بحيث كان الامر منسجما فعلا مع الاهداف : - عصا الايديولوجية في الغرب وعصا البوليس او البوليس ورعاع الناس في الشرق . وقد نقل هذه الحقيقة الموثقة عن تاريخ اللاسامية الدكتور " اسعد رزوق " فكتب ((ان الشغب المعادي للاسامية خلال الثمانينات والتسعينات [القرن التاسع عشر] قد برهن رغم ضجيجه وضوضائه على انعدام تأثيره السياسي . وعلى الرغم من ازكاء الواسع النطاق . للتعصب الشعبي والتمييز الاجتماعي ضد اليهود فانه لم يؤدي الى فرض قيود قانونية عليهم في فرنسا والمانيا والامبراطورية النمساوية - المجرية او غيرها من بلدان اوروبا الغربية والوسطى(٢) . فالقيود القانونية والتشرعات العنصرية الجائرة والاضطهادات التي كانت تصل في كثيرا من الاحيان الى التهجير بالقوة او التصفية الجسدية

---

(١) - احذرو الصهيونية - المصدر السابق - ص ٣٤

(٢) - الصهيونية وحقوق الانسان المصدر السابق ص٣٤٥

بواسطة مجازر جماعية يوجهها البوليس ويشرف عليها ، كانت تلبق فتطلق في بلدان اوروبا الشرقية عامة ، وفي روسيا القيصرية ورومانيا بنوع خاص)) عندما دارت في الشرق عصا البوليس ، دارات في الغرب مطابع الكتب[(1)] ومطابع الصحف . وتم استخدام اساتذة جامعات وايديولوجيين من مختلف الاصناف ، كتاب وصحفيين واصحاب اسماء مزورة ومشبوهين . وبدلا من تلك الاقوال المسؤولة عن ((الشعب الذي اعلى العالم الهدا)) التي لم تجد نفعا صار اليهودي مجددا حسب متداول الايديولوجية اللاسامية ((مصص ابار ومصاص دماء وجاسوس ومخرب اخلاقي وسياسي ... والخ .

وهكذا وجد اليهودي القادم من جهنم الشرق صورة مزينة ايديولوجيه تشبه تلك التي تركها خلف ظهره وقد ظنوا انهم بهذه الطريقة يستطيعون توجيه اعداد متزايدة باتجاه المشروع الصهيوني نحو الشرق . ولقد اشارت الدكتورة بديعة امين الى هذا الهدف من السياسية اللاسامية في اوروبا الغربية فكتبت ((ان محركي سياسات بلدان اوروبا الغربية الاستعمارية لم يكونوا ليمتنعوا عن حث اليهود على الهجرة الى فلسطين . حتى عن طريق خلق كل الظروف التي تستطيع ان تحملهم على الشعور في ان البلدان الجديدة التي هاجروا اليها غربي القارة لاتزيد عن كونها جحيما لايقل حرارة عن حرائق " الغيتو الشرقي " وذلك بأمل اقامة محلة امامية في الشرق الاوسط ينطلقون منها لغزو آسيا))[(2)].

واذا كان اصحاب الطاقة الامبرياليون قد وضعوا املهم في اللاسامية لانجاز الفكرة فقد كان على الزعامة الصهيونية ان تنهم لغز اللاسامية وتؤمن بمفعوله ، وكان هذا ما حصل فعلا فقد تم تكوين عقل الزعامة اليهودية التي ستقود التيار الصهيوني في مدرسة اللاساميين بالذات . في مدرسة دريمون " مؤلف كتاب ((فرنسا اليهودية)) فقد اكتشف هرتزل بوحي من دريمون بـ أن اللاسامية هي كلمة السر في توحيد اليهود . وقد توافق ذلك مع مزاجه الخيالي وهو الذي كان في تلك الحظات من حياته يعاني من حالة من الاحباط بسبب شعور سيطر عليه انه ليس اكثر من " كاتب قصص ومسرحيات فاشل " وقد سجل في مذاكراته ((حزيران عام ١٨٩٥)) أنه الفضل يعود لدريمون في اخراجه من حالته النفسية ((تحريرتصوراتة من القيود السابقة)) ، واكد انه لولا دريمون لما كان فهم مغزى الظاهرة

---

(١) - المصدر نفسه ص - ٦٥

(٢) - المشكلة اليهودية المصدر السابق ص ٢-١٠٣

التاريخية اللاسامية وكتب : ((اجد لزاما علي التوجه بالشكر الى دريمون لذلك المقدار الكبير من الحرية في تصوري الراهن للمسألة اليهودية لان دريمون فنان))(١) وعندما جاء ليضع احلامه الجديدة موضع التطبيق ((صيف ١٨٩٥)) ، كان على مقربة من احد اللاساميين الفرنسيين الكبار الكاتب الصحفي الفرنسي "الفونس دوداي" الذي كان يحرر في صحيفة (الباروول ليبر" وهي لسان حال اللاسامية في فرنسا . ((ويخبرنا هرتزل في بداية مذكراته اليومية التي باشر كتابتها فور توصله الى الصهيونية انه التقى يوماً بدوداي فجرى بينهما الحديث عن اليهود فاخبره دوداي انه لاسامي في الحرف الواحد ودون تردد، عندما يبدو ان هرتزل قال له انه ينوي تأليف كتاب يدور موضوعه حول اليهود . فسأله دوداي ((رواية ؟)) فأجاب هرتزل ((كلا كتاب رجال))فلم يتحمس دوداي لذلك وقال له : ان الرواية تصل الى آفاق اوسع ، فكر ((بكوخ العم توم(٢)) وكان دوداي يريد ان يوحي له باختيار حل للمسألة اليهودية على غرار الحل الذى اختاره زنوج الولايات المتحدة للتخلص من اضطهاد الرجل الابيض وذلك بقبول كثيرين منهم الهجرة الى " ليبيريا " وبناء دولة فيها تحت الحماية الامريكية ، وهو مضمون رواية (كوخ العم توم) التي وضعتها الروائية الاميركية (هارييت بيتشرستو) عام ١٨٥١ . وكانت جورج اليوت عندما وضعت روايتها ((دانييل ديرو ندا) قد استوحت الحل الليبيري وكانت على علاقة مع مؤلفة رواية ((كوخ العم توم))(٣) . لكن عندما بدأ هرتزل يشرح تفاصيل ماينوي كتابته (الدولة اليهودية) (مما اثار اهتمام دوداي لدرجة انه قال ((كم هذا جميل ، كم هذا جميل ....)) لقد كان على الزعيم الصهيوني الاول ان يعتنق اللاسامية قبل اعتناقه الصهيونية لانه لايمكن تنفيذ هذه بدون تلك، وهكذا فعل ، وكتب في مقدمة الكتاب (الدولة اليهودية) الذى صدر في العام التالي ١٨٩٦ ان اللاسامية تشبه في قوتها قوة بخار الماء الغالي فاذا ما تم استخدامها باحكام فانها تفعل المعجزات .... قال : (ان هذه القوة اللاسامية اذا ما استخدمت استخداما صحيحا ستكون كافية لادارة محرك كبير يحمل مسافرين وبضائع مهما كان شكل هذا المحرك)(٤)

---

(١) الصهيونية وحقوق الانسان المصدر السابق ص٥٦ ٥٧

(٢) ش ف عدد ١٥ المصدر السابق ص٦٩

(٣) الشخصية الصهيونية المصدر السابق ص٨٥

(٤) الفكرة الصهيونية المصدر السابق ص١٠٢ .

هامش

* يذكر ديفيد بن غوريون ان اول رواية في العبرية تراما وهو فتى كانت رواية (كوخ العم توم) وهذا دليل انها كانت تستخدم في الاوساط اليهودية كأداة ايديولوجية قبل نشر رواية " جورج اليوت) .

الخاتمة

لمحة عن " المفهوم المادى للمسألة اليهودية " :

سيكون من المناسب أن تختم هذه الدراسة ، التي بدأت بلمحة عن كراس ماركس المبكر ، باشارة موجزة أيضا الى كتاب ابراهام ليون " المفهوم المادى للمسألة اليهودية " . لأنه هنا ايضا تم تحميل كتاب ليون بعض المعاني التي لاتنطبق على الواقع . فقد نقلت دار النشر (الطليعة) بعض الفقرات من مقدمة المترجم (عماد نويهض) ووضعها على صفحة الغلاف الأخيرة من الترجمة العربية لكتاب ليون ، وهي : " تأتي محاولة ابراهام ليون هذه كتتمة لدراسة كارل ماركس الموجزة عن " المسألة اليهودية " وتنبع أهميتها من كونها أول محاولة علمية لتحليل دور اليهود الاجتماعي والاقتصادى عبر التاريخ " .

وهذا يتوافق تماما مع وصف الدكتور السالم لكتاب ليون بأنه " الدراسة التطبيقية الكلاسيكية للتاريخ اليهودى من ضمن الاسس التي وضعها ماركس نفسه " .

وحقيقة الأمر ان صفات كهذه لاتنطبق لاعلى " المفهوم المادى للمسألة اليهودية ، ولا على ضوء لف المفهوم المادى ، اللهم الا من ناحية شكلية وجزئية وربما عاطفية أيضا ، فالمرء لف (ابراهام ليون) هو صهيوني وليس ماركسي ، فقد ولد في بيت صهيوني /١٩٢٠/ . وهاجرت عائلته الى فلسطين سنة /١٩٢٧/ ولكنها عادت فهاجرت مرة أخرى في السنة التالية الى بلجيكا بسبب من الازمة الاقتصادية في المستوطنة الصهيونية في فلسطين في ذلك الوقت .

وقد انتسب الطفل ليون منذ نعومة أظفاره الى المنظمة الصهيونية هاشومير هاتسعير (الحارس الفتى) وهي أحد فروع منظمة " عمال صهيون " العالمية . وبسبب من حماسه ونشاطه ترقى الفتى ليون بسرعـــة لكي يصبح رئيسا للجنة الصهيونية في عموم بلجيكا أ وفي الفترة التي احتلت فيها الجيوش النازية الأراضي البلجيكية /١٩٤٠ / ترك ابراهام ليون المنظمة الصهيونية وانتقل للعمل مع المنظمات اليساريـــة التروتسكيـــة . وقد ألقي القبض عليه من قبل النازيين سنة ١٩٤٢ ثم أعدم فــي ١٩٤٤ وكـــان الأثـــر الوحيد الذى تركه هو كتاب " المفهوم " المادى للمسألة اليهوديـــة " . وكان قد وضـــع كتابه الوحيد هذا عندمـــا كان في الثانية والعشرين من عمـــره /١٩٤٢ / .

لقد حاول ليون بالفعـــل ، وفي اللحظات الأخيرة مـــن حياته ، ان يفكـــر بحل للمسألة اليهودية خارج الصهيونية بعد ان أقتنـــع أن الصهيونية لن تكون الحل المنشود . لكـــن قدره الشخصـــي كان بالمرصـــاد . فلم تسمح له فسحة العمـــر القصيـــر ان يفكر بهدوء ، وأن يعيد النظـــر بجميع الأســـس التي كانت محور احلام شبابه . ومن المؤكد ان ليون انسحب من الحركة الصهيونية لأسباب نبيلة ووجيهة . ففي الوقت الذى كانت تجرى فيه مذابح اليهود كانت العلاقة قائمة بين ادارة بن غوريون في فلسطين وبين مخابرات النازين في أوروبا (١) .

ولايحتمل ان يكون ابراهام ليون ، وهو على رأس لجنة بلجيكا ،بعيدا عن الاطلاع على هذه العلاقة . ولقد عبر بالفعل عن خيبة أملـــه في الصهيونية ، فكتب بأن الصهيونية قد تستطيع خلق أغلبية فـــي

(١) الايديولوجيا الصهيونية - ج ٢ - المصدر السابق ص٥٢و٥٣و٥٤

فلسطين أو حتى تأسيس دولة ولكن تلك الدولة ستكون "مصطنعة وخاضعة" بشكل تام للامبريالية الانكليزية أو الامريكية (١)"، كما حصلت لديه القناعة ان طريق حل المسألة مسدود داخل اطار النظام الرأسمالي الذى كان يتصوره آنذاك على وشك السقوط والانهيار، فكتب : ((إن الوهم الذى تحياه الصهيونية ينتج عن اعتقادها بان الصعوبات الناجمة عن انهيار الرأسمالية سوف تزول بقدرة ساحر بمجرد الانتقال الى فلسطين . غير ان الاسباب التي منعت اليهود من ايجاد مركز اقتصادى اثناء فترة الشتات سوف تقف حائلا دون تحقيق ذلك (٢)" .

وكان قد توصل الى قناعة مطلقة أن حل المسألة اليهودية مرتبط بانتصار الثورة الاشتراكية العالمية . وقد عبر عن ذلك بقوله : ((وتدعي الصهيونية ان بامكانها حل المسألة اليهودية بمعزل عن الثورة العالمية . وهي بجهلها المصادر الحقيقية للمسألة اليهودية في عصرنا وتعلقها بأحلام صبيانية وآمال حمقاء ، انما تبرهن على أنها خرافة ايديولوجيه وليست عقيدة علمية (٣) " .

لكن ارتداد ليون عن الصهيونية ومحاولة التفكير على أسس جديدة لايكفي بحد ذاته لأن يجعل منه مكملا لدراسة كارل ماركس أو مفكرا حسب الأسس التي وضعها ماركس نفسه . فلا حداثة سنه ولا الفترة القصيرة للغاية والمحفوفة بالمخاطر التي حاول فيها ان يفكر خارج اطار المفاهيم الصهيونية توفرلا نه للصفات التي أطلقها عليه كل من دار النشر ومؤلف دراسات

(١) المفهوم المادى - ط ١ - ص ١٩٠
(٢) المصدر السابق - ص - ١٩٦
(٣) المصدر السابق - ص - ١٩٣

يسارية .

فالواقع أن ابراهام ليون ورث عن الصهيونية الكثير من الأوهام والأساطير والتقط بسبب حداثة سنه الكثير من التصورات السائجة والسطحية . فتخيل أنها جوهرية . فقد ورث عن الصهيونية البوروشوفية الاعتقاد بأن البورجوازية اليهودية الصغيرة هي القوة الاجتماعية التي كانت خلف انشاء الصهيونية ، وذلك في محاولة منها للتفتيش عن وطن خاص بها والاستقرار فيه . فقد قال : " ظهرت الصهيونية ، منذ البدء كردة فعل من البورجوازية الصغيرة " التي لاتزال تشكل نواة اليهودية التي تلقت ضربات قاسية بتصاعد موجة اللاسامية ، مما أجبرها على التنقل من بلد الى آخر ، والتي تحاول الآن الوصول الى أرض الميعاد ، حيث تستطيع أن تجد ملجأ من العواصف التي تجتاح العالم الحديث(١) " .

وكان يظن ان المشكلة اليهودية او اللاسامية قد ولدت بشكل آلي نتيجة لانهيار النظام الاقطاعي وعدم قدرة النظام الرأسمالي الجديد على استيعاب اليهود الذين خسروا أماكن عملهم في مهنهم التقليدية السابقة . وقد عبر عن ذلك بقوله : ((ان تهديم الاقطاعية هي في أساس المسألة اليهودية في أوروبا الشرقية ،فطالما كانت منطقة ما متخلفة ، تمكن اليهود بسهولة اكبر من المحافظة على مراكزهم التقليدية ، غير ان انحطاط الرأسمالية العام يجعل حل المسألة اليهودية مستحيلا . وأدت البطالة والازمات المتتالية الى استحالة انتقال اليهود الى مهن أخرى

---

(١) المصدر السابق - ص- ١٨٢

والى ازدحام ضار في المهن التي يمارسونها ، وزادت باستمرار من عنف اللاسامية (١) " . وكتب أيضا : " وظهرت اللاسامية في اوضح صورها في فيينا ، أحد أكبر مراكز الهجرة اليهودية قبل الحرب الامبريالية الأولى . فالبورجوازية الصغيرة التي أفقرت نتيجة لتطور رأسمالية الاحتكارات والتي أخذت تنحدر الى صفوف البروليتاريا ، تضايقت من وصول العنصر اليهودى،البورجوازى الصغير الحر في تقليدنا (٢)" . وكان بسبب اعتماده على التفسير الاقتصادى وحده ، يسقط احيانا في تناقضات ملفتة للنظر فيصبح السبب ذاته ، بموجب مثل هذه النزعة الاحادية الميكانيكية ، ينتج الظاهرة وعكس الظاهرة نفسها .

فتصبح الرأسمالية التي تستوعب اليهود في مكان هي التي تعود فتلفظهم في مكان آخر ، ويكتب مثلا : " فمن جهة ، ساعدت الرأسمالية على الاستيعاب الاقتصادى ، وبالتالي الاستيعاب الثقافي ومن جهة اخرى ، فان الرأسمالية ، باقتلاعها الجماهير اليهودية من مراكزها الاجتماعية التقليدية ،وحشر تلك الجماهير في المدن واثارة النعرات اللاسامية ، ساعدت على نمو القومية عند اليهود (٣)" . وكتب ايضا : " بينما كانت الرأسمالية تساعد على استيعاب اليهود في أوروبا الغربية ، كانت تقتلعهم من مراكزهم الاقتصادية التقليدية في أوروبا الشرقية ، ففي تسببها تدفق اليهود نحو الغرب ، باليد اليسرى ، كانت تدمر ما صنعته بيدها اليمنى (٤) " .

---

(١) المصدر السابق - ص ١٦٦
(٢) المصدر السابق - ص ١٧٠
(٣) المصدر السابق - ص ١٥٩
(٤) المصدر السابق - ص ١٥١

كما كان لدى ليون تصورات ساذجة حول الصراعات على المصالح الاقتصادية ، فقد كان يظن ان الصراع على الاسواق الداخلية يجرى بين البورجوازيات الصغيرة ، اما البورجوازيات الكبيرة فانها تتصارع على الاسواق الخارجية ، فقد قال : " وبينما تتصارع البورجوازية الكبيرة بعنف مع منافسيها على الاسواق الخارجية تقاتل البورجوازية الصغيرة بعنف لايقل عن ذلك مع منافسيها على الاسواق الداخلية (١) " .

أما النظرة الاساسية في نظرة ليون للتاريخ اليهودى فكانت تتمثل في اعتقاده بخرافة تقول ان اليهود ، بعد دمار دولتهم ونزوحهم عن فلسطين قبل الفي سنة ، استمروا منذ ذلك الوقت يعيشون بين الامم كفريق اجتماعي ، بمعنى أن الخط الاساسي لعملهم الاقتصادى كان في التجارة والربا ، وحول هذا المحور الاساسي تدور المجموعة الحرفية التي تقوم على خدمتهم ، خياطين ، نجارين ، كندرجية ... الخ " .

ونزولا حتى المتسولين الذين ينتظرون يوم السبت على باب الكنيس ، أما صعودا فيقف في رأس السلم الحاخامون الذين يقومون بحراسة الدين والتقاليد . هذا الجسم الاجتماعي الوهمي أطلق عليه ليون اسم " الشعب - الطبقة " . وهو تصور كان قد نقله عن المؤرخ اليهودى (سيمون دوبنوف) .ومن الواضح انه كان لنشأة ليون الصهيونية الأثر الحاسم في التشبع بمثل هذا التصور الوهمي ، اذ ان كل صهيوني ، وخاصة الصهيوني الطيب الشبيه بليون ، لابد ان يتجرع الاعتقاد شيئا فشيئا ان يهود العالم أمة واحدة أو شعب واحد ، يربطهم عيشهم

---

(١) المصدر السابق - ص ١٧٣

المشترك وثقافتهم الروحية المشتركة ولاينقصهم الا الارض والدولة لكي يتحولوا الى أمة عادية مثل بقية الامم ، وهذا هو بالضبط مايمكن ان يوحي به الاعتقاد بفكرة " الشعب - الطبقة " وقد عبر ليون عن فكرته المحورية هذه فكتب : " اليهود يشكلون في التاريخ ، قبل أى شيء آخر ، مجموعة اجتماعية لها دور اقتصادى محدد : انهم طبقة أو على الاصح شعب - طبقة ان مفهوم الطبقة لايتعارض البتة مع مفهوم الشعب ، فلأن اليهود حافظوا على كيانهم ضمن طبقة اجتماعية ، فقد صانوا اينا بعضا من خصائصهم الدينية والعرقية واللغوية (١)" . وقد ظن ليون ان هذه الصورة هي بديل " مادى " للتصورات الدينية والمثالية التي يرددها الصهيونيون عن سبب بقائهم وحفظهم من التلف عبر العصور ، مثل " الشعور الاخلاقي المتفوق " أو " الامل في الرجوع الى وطنهم الاصلي " أو " انتظار المسيح * الموعود الذى سيقودهم الى أرض الميعاد (٢) " .

سأكتفي الان بهذه الملاحظات الأولية عن بعض آراء ليون غير الماركسية ، لان نقد ليون ليس هدفا بحد ذاته . فالهدف له مغزى آخر ، وهو يتعلق ببعض الاشارات الى التطبيق الايديولوجي الراهن في الوطن العربي وبالذات في الجانب الذى يخص الصراع العربي الاسرائيلي .

---

* يقول بن غوريون : " ان ما ضمن بقاء الشعب اليهودى عبر الاجيال ، وأدى الى خلق الدولة ، هو رؤيا المسيح المنتظر لدى انبياء اسرائيل ... ودولة اسرائيل هي أداة لتحقيق هذه الرؤية عن المسيح المنتظر " .
(انظر - الدولة والدين ص ١١٦)

(١) المصدر السابق - ص ٢٧

(٢) المصدر السابق - ص ١٨٣ - ١٨٤

في الطبعة الاولى التي صدرت بالعربية لكتاب ليون (١٩٦٩) لا يلاحظ القارئ غير المتخصص أية علائم غير عادية . فابراهام ليون هو "متمم لدراسة كارل ماركس" حسب منطوق المترجم ودار النشر . وسيقرأ القارئ العادي ايضا تبريرا رومانتيكيا لصهيونية ليون يستند الى كذبة تاريخية لا يلاحظها من يجهل تاريخ يهود بولونيا ، والكذبة تقول : " لم يكن بوسع يهود بولونيا وهم ضحايا المذابح في عهود القياصرة وفي ظل الثورة ، وفي عهود البيض والروس والبولونيين والاوكرانيين والليتوانيين ، الا ان يبحثوا عن حل يائس وهو في تخيل موطن عن قومية جديدة : الصهيونية » . وهذه الكذبة يعرفها المؤرخون المختصون وفي مقدمتهم اسحق دويتشر المناضل اليهودي الذى كان موجودا كقائد طليعي على الساحة البولونية ، حيث كان يهود بولونيا ضد الصهيونية[1] ، وكانوا ينسون احلامهم في انتصار الثورة الاشتراكية ، في نفس الوقت الذى كانت تفتش فيه عائلة ليون الصهيونية وتهاجر (١٩٢٧) في سبيل حل صهيوني خارج النضال الذى كان يندمج مع مساره الملايين ومن بينهم يهود بولونيا .

والذى كان يتبدع مثل هذه الاكاذيب عن تاريخ يهود بولونيا هو شخص اسمه " ا . جرمن " وهو يقدم ابراهام ليون الى القراء العرب . اذن ويتابع المدعو "جرمن" صاحب المقدمة ، فيقول : " في منزل ليون الابوى ، مثل والديه الصهيونية البورجوازية الصغيرة الكلاسيكية ، ومع اول احتكاكه بالحقيقة ، احس الصبي بنفسه جاذبية الوهم الصهيوني وكأنها شكل ديني " . لذلك كما يجب جرمن ان يوحي ، فان انتساب الفتى ليون الى منظمة " هاشومير هاتسعير " التي تعمل على تجنيد اليهود في بلجيكا من اجل استيطان فلسطين ، انما هو وضع انساني يفرضه تقريبا واقع نضالي . ويتابع السيد "جرمن" فيقول :

(١) - دويتشر - المصدر السابق - ص ٦٣

" كيف لايحس قلبه الرقيق بانقسام العالم بين أغنياء وفقراء ، كيف لايقف الى جانب المضطهدين ، وهو الذى يدرك بانه ضحية عسف مزدوج ؟ هكذا أصبح ليون الشاب مناضلا وقائدا في صفوف الشبيبة الاشتراكية اليهودية (١) . وبعد ان ينتقل ليون الى التروتسكية ، ينتقل معه " أ . جرمن " فيتقدمه باعتباره مكتشف " المفتاح " الضرورى لفهم الدور الماضي والحاضر لليهود " بواسطة " نظرية الشعب - الطبقة ، المدهشة في بساطتها (٢) . لكن القارئ المتخصص والمدقق سوف يلاحظ انه من الصعب تحديد عمر ابراهام ليون حيث يبقى تاريخ ميلاده ووفاته مجهولا . كما ان صاحب المقدمة " أ . جرمن " هو الآخر يبقى مجهولا . والاهم من ذلك انه لايشار الى النسخة الاصلية باللغة الاجنبية التي تمت الترجمة استنادا اليها .

وكان على القارئ المتخصص ، ان ينتظر أربع سنوات أخرى حتى تصدر الطبعة الثانية من كتاب المفهوم المادى /١٩٧٣ / لكي يتمكن من حل بعض الالغاز .

في الطبعة الثانية يستبدل اسم " ا . جرمن " في المقدمة ذاتها باسم " أرنست ماندل " . مع بعض التوسع في ذكر وقائع أخرى عن حياة ليون بحيث يمكن الاستنتاج انه ولد في ١٩٢٠ ، وانتسب الى المنظمة الصهيونية وعمره عشر سنوات أو أقل وأصبح رئيسا للجنة بلجيكا الصهيونية في ١٩٣٦ . ثم ترك الصهيونية في ١٩٤٠ ووضع كتابه الوحيد " المفهوم المادى " في ١٩٤٢ وبعدها أعتقل واعدم من قبل النازيين في ١٩٤٤ . ويفهم القارئ المتخصص ان الطبعة الاولى كانت قد ترجمت عن الفرنسية ، وأيضا دون ذكر حقيقة

(١) المفهوم المادى - ط ١ - ص ١١ و ١٢

(٢) المفهوم المادى - ط ١ - ص ١٧

ان كتاب ليون كان قد نشر لأول مرة باللغة الانكليزية في المكسيك سنة ١٩٥٢ .

والمهم ان مكسيم رودنسون كان هو الذى قدم كتاب ابراهام ليون في الطبعة الفرنسية (١) الى القراء الفرنسيين . وكانت دار النشر العربية (الطليعة) قد أسقطت مقدمة رودنسون من الطبعة العربية الأولى ١٩٦٩ دون الاشارة اليها من قريب أو بعيد أما في الطبعة الثانية ١٩٧٣ فتوضع مقدمة رودنسون في نهاية الكتاب تحت عنوان " تعقيب " ويوضع بعدها مباشرة مقال آخر بقلم " ناثان وينشتوك " بعنوان " رد على رودنسون " ومن مقال وينشتوك يمكن ان يستنتج القارىء ان ماهو تعقيب " كان في الاصل " مقدمة " للطبعة الفرنسية .

لماذا قامت دار النشر ، الطليعة ، بابعاد مقدمة رودنسون عن الساحة ؟ الجواب قد يكون متضمنا في مقدمة رودنسون ذاتها .

ان قراءة مدققة لمقدمة رودنسون ستؤدى الى الانطباع وكأن رودنسون قد وجد في اعادة نشر " المفهوم المادى للمسألة اليهودية " باللغة الفرنسية مناسبة لاعادة القراءة في التاريخ اليهودى بالاسلوب الماركسي بعد ان عبأ الصهاينة بوفرنسا الثقافي بالخرافات والاوهام عن التاريخ اليهودى .

ومنذ البداية يقول رودنسون " انني لاأحب كثيرا تعبير " مادى " الذى لم يحاول ماركس مطلقا ان يستعمله في تحديد موقفه في مجال التحليل الاجتماعي - التاريخي الذى هو عرضة لأكثر من معنى وكنت أفضل استخدام تعبير " ماركسي " (٢) .

---

(١) المفهوم المادى - طبعة ثانية - دار الطليعة - بيروت - ١٩٧٣ - ص ١٧٥

(٢) المفهوم المادى - ط ٢ ص ١٣٧

ومنذ البداية ايضا يثني رودنسون على ليون لانه حاول ان يجد تفسيرا للمسألة اليهودية عن طريق " سلوك طريق في التفكير بالتضحية اليهودية وبناءها وسيرورتها تختلف عن طريق الذين تتغذى افكارهم بالاساطير التوهية المثالية (١) .

كما اثنى رودنسون على ليون لانه حاول ايضا تفسير بقاء اليهودية " بالتاريخ وليس خارج التاريخ " . وهذا يصرف النظر عن آراء ليون واستنتاجاته الخاصة .

يقول رودنسون : « ربما يكون ليون قد اخطأ في فرضياته الخاصة ولكنه كان على حق في القضايا الاساسية الرئيسية ... ان تفسير اليهودية يتم بالتاريخ وليس من خارج التاريخ ، ولاحق لها بأي امتياز علمي أو أدبي ولم يكن هناك اية ضرورة الهية او اكثر عقلانية لاستمرار وبقاء الدين أو الشعب اليهودي كدين أو كشعب (٢) » .

ان تعريف اليهود بأنهم يشكلون شعبا واحدا او أمة واحدة أو يتحدرون من عرق واحد ، هو في نظر رودنسون تعريف باطل ولا سند له لقد " نفيت صفات العرق والشعب والامة بكل معاني هذه الكلمات عن معنى في اثناء فترة الفي سنة (٣) " ويدين رودنسون المؤرخ سيمون دوبنوف بنظريته عن أمة يهودية ، التي تقول : ان اليهود خلال مرحلة التشرد والتشتت كانوا أمة متميزة وليس جماعة دينية تسمى وسط غيرها من الامم " . ويؤكد رودنسون ان دوبنوف " يسقط في فخ المثالية بنظريته عن الامة اليهودية " لانه يعتقد بوجود " جسم اسطوري (٤) " أو غرائبي يعيش بين الامم الاخرى بالروح وليس بأسباب واقعية ملموسة .

---

(١) المفهوم المادي - ط٢ ص ١٣٨

(٢) المفهوم المادي - ط٢ ص ١٧١

(٣) المفهوم المادي ط ٢ ص ١٣٨

(٤) المفهوم المادي ط٢ ص ١٣٩ - ١٤٠

فيقول رودنسن " ان تعبير ماركس الذى يقول فيه بان اليهودية قد حافظت على ذاتها بالتاريخ لا بالرغم من التاريخ ، ليست مقولة صوفية او فلسفية غير معروفة المصدر ، بل هي بكل بساطة ضرورة منهجية يفرضها اى تاريخ علمي ... وينبغي تفسير التاريخ اليهودى بالعوامل التاريخية العادية "(١) . فالوقائع الاقتصادية هي من " العوامل التاريخية " الاساسية ، ولكن اعتمادها وحدها يشوه التاريخ اكثر مما يفسره . ولهذا فان رودنسون ينتقد اعتماد ليون على عنصر وحيد في تفسير التاريخ اليهودى وهو عنصر الاقتصاد فيقول : " ان دراسة المركبات الاجتماعية - التاريخية التي اثرت في التاريخ اليهودى لا تبين بالضرورة صحة الرأى الذى يقول بأن العوامل الاقتصادية هي وحدها العوامل المؤثرة ، وهذا ما كان ليون يميل الى الاعتقاد به في بعض الاحيان ، وما قد يوحي به تعبير " مادى " (٢) .

وينتقد رودنسون التفسير الذى يعتمده ليون كسبب لبقاء اليهودية واستمرارها أى "نظرية الشعب - الطبقة " ، التي تعني ، في نظر ليون ، ان اليهود كانوا يعيشون في كل مكان وعلى الدوام أشبه ما يكونون بغرفة اجتماعية - اقتصادية خاصة بين الشعوب الاخرى ، متميزون بطريقة معيشتهم ودينهم . فيؤكد رودنسون أن مثل هذا التفسير لا ينطبق الا جزئيا على بعض التجمعات اليهودية في اماكن خاصة في اوروبا وفقط في المرحلة التي تلت الحروب الصليبية .

---

(١) - المفهوم المادى ط٢ - ص ١٤٢

(٢) - المصدر السابق ص - ١٤٣

وبالتالي فان تفسير ليون يتعارض مع كل المعطيات السابقة في اوروبا ويتعارض كذلك مع تاريخ اليهود في الامبراطوريات الرومانية ، والعربية الاسلامية ، والعثمانية . يقول رودنسون ، " وهذا التفسير (الشعب – الطبقة) كان له بعض القيمة اثناء الفترة التي تلت الحملات الصليبية في العالم المسيحي بوجه خاص ، وذلك ضمن بعض الحدود ... ولكن ليون لا يرى كيف انه بقفزة واحدة قد اجتاز مسافة الف عام على الاقل حيث لا يلعب هذا العامل اي دور كان "(١). فاليهود ، خارج ذلك النطاق المحدود في بعض مناطق شرق اوروبا بعد الحروب الصليبية ، ولم يقتصر اسلوب معيشتهم بالدرجة الاولى على التجارة او تجارة المال – الربا ، بل كانوا يعيشون في البلاد العربية والاسلامية وفي اوروبا المسيحية قبل الحروب الصليبية وفي روما القديمة ، بالعمل في جميع المهن الاخرى. ولم يكن هناك ما يميزهم عن المواطنين الاخرين في جميع هذه الاحقاب وهذه البلدان غير اسلوب عبادتهم الخاصة بالاضافة الى المسائل التي تتعلق بادارة شؤونهم الشخصية داخل طوائفهم . يقول رودنسون : " وقد ضل ليون طريقه حول هذه النقطة عندما تأثر بالمؤرخين الذين استعانوا حينذاك بوثائق ومعلومات غير وافية ، ووقعوا تحت تأثير الاتجاه الذي يقوم على تطبيق ظروف العصر الحاضر على ذلك العصر القديم "(٢) .

ويضيف : " وفي اوروبا الغربية ، قبل القرن الحادي عشر ، طرح "بلومكرانز " وجهة نظر جيدة ونوعا ما عميقة بين فيها كيف أن اليهود كانوا يعيشون بلا تفرقة مع سائر السكان الاوروبيين ويمارسون تقريبا نفس المهن التي كان هؤلاء يتعاطونها . وكذلك الحال في العالم

---

(١) – المصدر السابق – ص ١٤٤

(٢) – = نفسه – ص ١٤٥

الاسلامي . فقد برهنت جهود " جواتين " المعروفة ان اليهود لم يكن هناك ما يميزهم عن السكان المسيحيين والمسلمين الا في نطاق الدين والملامح الثقافية المرتبطة به مباشرة "(١) .

فلا توجد اى اسرار او معجزات او مهمات الهية او قدرية خاصة وراء بقاء واستمرار الكثير من التجمعات العرقية او الطائفية ضمن مجتمعات اكبر . وما ينطبق على اليهود ينطبق على الكثير من الطوائف الاخرى في العالم وفي البلاد العربية ايضا . فالاقباط ، والموارنة ، والدروز ... الخ ، هي طوائف موجودة منذ مئات السنين . والمسألة هنا ، اى من وجهة نظر ماركسية ، في غاية البساطة : فطالما ان هذه الطوائف ، بسبب من عبادتها او اسلوب علاقاتها الداخلية الخاصة ، لا تسبب ضررا للجسم الاجتماعي الاكبر ، فان هذه الطوائف تبقى وتستمر مثلما بقي العالم باسره واستمر . وقد رد رودنسون على تلك الاراء الكاذبة التي يروجها الصهيونيون خاصة حول كراهية العالم باسره لليهود . فقال : لو ان ذلك صحيحا لكانت اليهودية قد اندثرت لا محالة . فقال : انه في جميع المجتمعات التي كانت تسمح بتعدد المعتقدات والايديولوجيات الدينية المختلفة " كان اليهود ينتظمون ويديرون انفسهم كيهود ، ويقدمون انفسهم للمجتمع كجماعة تعيش مع سواها من الجماعات الاخرى ، وكانوا يميلون الى البقاء كيهود ما دام ليس هناك سلطة قوية ترغمهم على التخلي عن هذا الميل . وكان حجم التجمعات يتغير من خلال علاقته بجميع انواع العوامل . ولم يحدث مطلقا أن

---

(١) المصدر السابق – ص ١٤٥

جرت ممارسة عنف شديد ودائم في جميع البلدان في آن واحد حيث يوجد يهود " أى في جميع انحاء العالم " بقصد اقتلاع جذور هذه التجمعات التي كانت تحتويها من اساسها ، وهذا ليس بالامر الذى يثير الدهشة ، بحكم تنوع وتعدد بنى الدول المستقلة التي عاشت في كنفها التجمعات اليهودية ، وبحكم امكاناتها الضئيلة جدا قياسا بما نشهده الان . وان تدخل الحكومات الارهابي غير كاف لتفسير وجود هذه التجمعات المتقطع وغير الدائم . وهكذا تتبدد " معجزة البقاء اليهودى الذى استطاع ان يحافظ على نفسه ويثير اعجاب رجال الدين المسيحيين والقوميين اليهود "(١) .

ويعيد رودنسون مرة اخرى التأكيد على هذه الحقائق التاريخية البسيطة التي تنسف جميع التفاسير والاقاصيص الخرافية والمثالية التي يروجها الصهيونيون ومعهم اولئك الذين يقرأون التاريخ بطريقة غير تاريخية ، ويضيف : " ومرة اخرى .. ان استمرار الهوية اليهودية في الغرب اللاتيني قبل الحروب الصليبية ، وفي العالم الاسلامي الى يومنا هذا سببه فقط هي صفة التنوع التي كانت تطبع هذه المجتمعات ، وبعض العوامل الوحدوية لديها ، وعدم اقدام الدولة على فرض ايديولوجيتها المسيطرة على جميع رعاياها وامتناعها عن تدمير وازالة سائر الايديولوجيات . وضمن اطار هذه الظروف كان من الطبيعي ان ينتصر ميل التجمعات الى المحافظة على وجودها ، وان تعمل هذه التجمعات من اجل حماية مصالح افرادها وأمانيهم "(٢) .

---

(١) - المصدر السابق - ص ١٤٦

(٢) - " " - ص ١٥٨

وبخصوص ولادة المشكلة اليهودية من اللاسامية الحديثة رفض رودنسون تأكيدات ليون "الفاضحة" حول الصراعات الطبقية ، بحيث ظهرت اللاسامية وكأنها تولد بشكل طبيعي في اطار عملية الانتقال من النظام الاقطاعي الى الرأسمالي وبالنسبة لرودنسون ليس الامر بمثل هذه البساطة ولا بمثل هذه الميكانيكية . لانه يجب ان يحسب حساب "توجيه الاحقاد" الشعبية ضد اليهود من قبل من يعنيهم الامر . كما يجب ان يحسب حساب الوسائل الايديولوجية القابلة للاستخدام على ساحة العمل في مثل هذه الظروف . لذلك قال رودنسون : " ان التقدم الذى احرزه الاقتصاد الرأسمالي في اوروبا الغربية " قد جعل اليهود اقل فائدة عما قبل" وهكذا صار " من الممكن توجيه الاحقاد الشعبية العنيفة - التي اثارتها نتائج التقدم الرأسمالي الاولى - نحو هذه الاقلية التي كانت تبدو وكأنها الرمز المجسد للتقدم الرأسمالي .. ويساعد على ذلك التراث الايديولوجي المسيحي الذى يحفل باسلحة حادة متعددة "(١) . واكد رودنسون على أن اليهودية كانت ، في النظام الرأسمالي الجديد ، في سبيلها الى الذوبان والاندماج . وان الذى اعاد اليها الحياة من جديد هما عاملان ، اللاسامية والصهيونية التي ولدت من اللاسامية . فقال : " ان الذى حافظ على استمرار اليهودية هي اللاسامية والصهيونية السياسية المعاصرة التي نجمت عنها "(٢) . وانتقد رودنسون الاتجاه الذى سلكه ليون بحيث ظهرت اللاسامية وكأنها كل شيء بينما ابعد العامل الثاني ، الصهيونية ، التي تدخلت قياداتها في استقلال

---

(١) - المصدر السابق - ص ١٦٣
(٢) - = نفسه - ص ١٦٦

اللاسامية وفي تسعيرها واستثمار نتائجها ، فقال أن ليون "للاسف قلل من قيمة قوة شعور البحث عن هوية ما الذى دفع بكثير من اليهود الى سلوك قومي لا مجد ومخرب" (١) . ورودنسون يقصد بالطبع علاقات التحالف السرى بهدف اقتسام المناصب بين القيادة الصهيونية تحت امرة هرتزل مع ادارة البوليس القيصرى الروسي والتحالف السرى بين قيادة بن غوريون والادارة النازية لنفس الاهداف . وكان رودنسون احد المؤرخين الذين ارخوا لهذه الوقائع ووثقوها (٢) . كما لاحظ رودنسون ان قيام دولة اسرائيل وزجها في المجابهة الدائمة بحيث ادت هذه الحالة الجديدة الى نفس النتائج اللاسامية السابقة . فكتب : " ان قيام اسرائيل عام ١٩٤٨ دفع باليهود في كل مكان الى الاحساس بالتضامن مما قوى أو اعاد اليها (اليهودية) خصوصية كانت قد اخذت بالانهيار والتداعي لافتقارها الى الاساس الثقافي والاجتماعي - وحتى الديني" (٣) . وبما انهم كانوا قد وضعوا كل آمالهم منذ ولادة حركتهم باللاسامية ، لذلك كان عليهم هنا ان يعيدوا خلق هذه الحالة لكي يتثنى لهم البقاء في حالة من الحيوية والنشاط . وهكذا ، وبسبب انتهاكاتهم غير المعقولة لحقوق العرب ساعدوا على تأجيج اللاسامية لدى العرب الساميين انفسهم . فكتب رودنسون انه " في البلدان العربية ... كانت اللاسامية عمليا غير معروفة ومجهولة في السابق . وقد ساعد الصهاينة بصورة فعالة على انتشار هذه الموجة بدعايتهم المستمرة التي كانت تسعى الى اقناع الجميع بان الصهيونية والديانة اليهودية - اى الجانب الوطني فيها - تتماثل فيما بينها" (٤) .

---

(١) المصدر السابق - ص ١٦٦
(٢) اسرائيل واقع استعماري - المصدر السابق - ص ٣١ - ٣٢
(٣) المفهوم المادى - ط٢ - المصدر السابق - ص ١٦٦
(٤) - - - - - - - ص ١٦٧

ونفى رودنسون ان تكون الصهيونية قد اعتمدت على قوة اجتماعية ذاتية يهودية . فالصهيونية عملت كأداة معتمدة مرة على هذا الجانب ومرة على ذاك ، قال " وقد حققت الصهيونية هدفها الرئيسي - الذى هو اقامة دولة يهودية في فلسطين - مستخدمة ومستفيدة من الظروف التي خلقتها القوى الامبريالية الأوروبية - الامريكية في شتى المراحل . فاعتمدت مباشرة تارة على هذه القوى وطورا على تلك (١) " . والذين يدعمونهم ويوفرون لهم أسباب البقاء والاستمرار لايفعلون ذلك لأسباب اخلاقية أو انسانية ، انهم بالاحرى يحصلون على مردود استثماراتهم العسكرية . يقول رودنسون : " ووفر نجاح الصهيونية في فلسطين الفرصة للقوى الامبريالية كي تستعمل ألف اسلوب لكسب الأرباح الطائلة من الشرق الأوسط سواء كان ذلك عن طريق الدعم والتأييد أو عن طريق بيع الأسلحة (٢) " .

اما اذا كان بعض الناس ، أو حتى كثير من الناس ، تبهرتهم أضواء الانتصارات الاسرائيلية فان رودنسون لديه رأى آخر . فطالما ان اسرائيل أداة تستغلها القوى الدولية في سبيل مكاسبها الخاصة ، لذلك فقد تكون عارا على اليهود وليست دليلا على تقدمهم وانتصارهم . فيكتب " ان وضع اليهود الراهن الذى يوحي ظاهريا بانهم المنتصرون

---

(١) المفهوم المادى - ط ٢ - المصدر السابق - ص ١٦٦
(٢) المصدر السابق - ص ١٦٧

في اسرائيل وأنهم قد بلغوا ذروة الشهرة في العالم الرأسمالي .. هذا الوضع هو أكثر مأساوية في ظل هذا المجد مما كانت عليه الحال عندما كان اليهود يعيشون - في معظم الاحيان - في جو يغمره الذل والمهانة (١)".

ولم تكتف دار النشر ، الطليعة ، بابعاد مقدمة رودنسون ووضعها في موء خرة الكتاب تحت اسم " تعقيب " في الطبعة الثانية ، بل أتت بالاضافة لذلك بشخص فوضوى من اليسار الجديد (تروتسكي) هو واينشتوك وجعلته يرد على رودنسون . ولم يقل السيد واينشتوك شيئا ذا بال . كل ماهنالك أنه سوء من بما آمن به ابراهام ليون وأحزنه جدا نقد رودنسون فهو يعتقد ان مفهوم " الشعب - الطبقة " الذى اتى به ليون يكشف عن " سر استمرار اليهود في تاريخهم " وايضا ان الوظيفة الخاصة التي قام بها اليهود عبر تاريخهم هي التي تقدم المفتاح لبقائهم كفريق اجتماعي (٢) . لذلك فهو يبدى غيظه لان رودنسون قد صاغ " تحفظات مهمة الى درجة أنها تضع موضع الاتهام صحة مفهوم الشعب - الطبقة كمبدأ مفسر للتاريخ اليهودى (٣)" . واكتفي بهذه الاشارة الى نقد واينشتوك لانه كما يظهر وضع للتشويش على آراء رودنسون وهو أقل بكثير من مستوى التصدى لنقد رودنسون .

والسوءال من جديد هو : لماذا أزاحت دار النشر ، الطليعة ، من الواجهة رودنسون ، الماركسي البارز ، واليهودى البارز والمفكر الفرنسي الرائع ، العادل والانساني ، ووضعت

(١) المصدر السابق - ص ١٦٦
(٢) المصدر السابق - ص ١٧٣
(٣) المصدر السابق - ص ١٤٧

في الواجهة بدلا منه فتى صهيوني وغير ماركسي ولا يستحق كلمة ادراء ، الا لانه اكتشف في آخر لحظة من حياته القصيرة ان الصهيونية حركة رجعية وتمثل أداة للقوى الكبرى وليست حلا للمسألة اليهودية ؟ .

والجواب هذه المرة موجود ليس في كتاب وانما في واقع الصراع العربي الاسرائيلي في زمن صدور " المفهوم المادى" باللغة العربية ١٩٦٩ ، ففي ١٩٦٩ كان يدور جدل بالدم والحديد والنار على جبهة السويس بين الجيش المصرى والجيش الاسرائيلي وفي هذا الجدل المادى تأكد عبد الناصر ان اسرائيل والحركة الصهيونية لاتمثلان كقوة اجتماعية مستقلة وانما كستارة وحسب لقوى دولية عظمى هائلة القوة . وفي حديث له في ١٩٧٠/٤/١٢ ، قال : " ان المخطط الذى نواجهه أوسع من مقدرة اثنين ونصف مليون اسرائيلي ، بل انه اوسع من حركة الصهيونية العالمية ودعواها ومواردها ... ان هذا المخطط كما يتضح لنا من اتساع مداه ، يحظى بتأييد نظام السيطرة العالمية "(١) . وبناء على هذا الاستنتاج وجه عبد الناصر في الأول من أيار (١٩٧٠) نداء يتضمن الانذار الى الادارة الامريكية لكي تخرج من خلف الواجهة الاسرائيلية وتقف على الحياد فقال : " ان الولايات المتحدة الامريكية بخطوة أخرى على طريق تأكيد التفوق العسكرى لصالح اسرائيل سوف تفرض على الامة العربية موقفا لارجعة فيه ، موقفا يتعين علينا ان نستنتج منه ماهو ضرورى " ثم هدد الادارة الامريكية بالامة العربية الموحدة على مستوى " القاعدة وعلى مستوى الجماهير " والتي سوف تحملها المعركة "" أكثر صلابة "(٢)

(١) الاهرام - ١٩٧٠/٤/١٣
(٢) الاهرام - ١٩٧٠/٥/٢

لقد طرح واقع الصراع العسكرى بين جيش القومية العربية والجيش الاسرائيلـــي لأول مرة السؤال فيما اذا كان هناك جدوى من استمرار الصراع مع الاداة وابقاء اصحاب الاداة متنحين وبعيدين عن ساحة المعركــــة .

وبالطبع كانت هناك فئة من المثقفين أو القراء العرب يرغبون في أن يقرأوا جوابا على مثل هذا السؤال الخطير فـــي الماركسية . وعند ذلك تقدمت "دار الطليعة" ، وهي جهـــاز أيديولوجي ، وقدمت ابراهام ليون وقالت هذا هو " ماركس نفسه " . وعلى أى حال لم تكن الفكرة ، الفكرة التي بنيت وعممــــت استنادا الى ليون سوى حصاة صغيرة في عاصفة الغبار الايديولوجي الذىكان ومايزال يلف الرؤوس والعيون بين المحيط والخليـــج ولم تكن دار الطليعة ايضا الا مقلاع صغيـــــر .

انتهى البحث

دمشق فـــي آذار ١٩٨٤

أ

الملحق

نص مختارة من كتاب "دراسات يسارية" حول القضية الفلسطينية

"بامكاننا ان ننظر الى الصهيونية على انها الحركة القومية للبورجوازية اليهودية (البورجوازية المتوسطة والصغيرة على وجه التحديد) في اوروبا ، وبما ان الصهيونية تنتمي الى الفئة المتأخرة من الحركات القومية البورجوازية نجدها متأثرة الى ابعد الحدود بالحركات القومية الأوروبية الكبرى كما في البلقان وايطاليا والمانيا ، وتحمل كافة السمات الرئيسية لهذه الحركات" (١) . انها كذلك ردة فعل قوية ضد البورجوازيات الاوروبية المحلية (المسيحية) التي دخلت معها في صراع اقتصادي مرير ودام في ظل نظام التنافس الحر . اتخذ منشأ الصراع مظاهر حركة العداء للسامية بين الاوروبيين من غير اليهود مما دفع البورجوازية اليهودية نحو البحث عن سوق وطنية خاصة بها لا يزاحمها عليها احد . ومن هنا بدأ الكلام الجاد عن "الامة اليهودية" في اوساط الطبقة اليهودية الوسطى واوساط المعبرين عن مصالحها وتطلعاتها " . " وكما ان البورجوازيات الاوروبية المحلية سعت عادة الى توحيد الارض الوطنية وتوسيعها تحت لواء الدعوة القومية كذلك نجحت البورجوازية اليهودية بايجاد ارض لنفسها وقامت بتوسيعها باستمرار تحت لواء الدعوة القومية اليهودية وباسم الدفاع عن "الوطن المقدس" و" توحيد ارض الاباء والاجداد " .

" وبما انه لم يكن بالامكان توفير مثل هذه السوق الوطنية اليهودية في اوروبا اتجهت الانظار الى الخارج (يوغندة ، الارجنتين ، فلسطين) وكان ذلك امرا طبيعيا اذ ان الحركة القومية اليهودية وصلت الى مرحلة نضجها في ذروة عصر الامبريالية والتوسع الاستعماري الاوروبي في اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية " .

(١) ـ دراسات يسارية ـ المصدر السابق ـ ص ٨٨

" الا القول في ان الصهيونية ليست الا المسألة الربانية التي خلقتها البورجوازية اليهودية الاوروبية لنفسها في عصر اعلى مراحل الرأسمالية على غرار بقية البورجوازيات الاوروبية وحركاتها القومية الخاصة بها ، لذلك لا يجوز ان نتخذ في اخطاء النظرة الميكانيكية عند تفسيرنا للصهيونية كأن نستخلصها آليا من النظام الرأسمالي الاستعماري باعتبارها اداة صماء لمصالحه "(١) .

" لنرجع الى بدايات الدعوة الصهيونية بين اليهود كما نجدها في كتابات الكالاي وكاليشر (انظر النصوص الواردة في كتاب THE ZIONIST IDEA) نجد ان الكاتب الاول عاش في الصرب في الفترة التي انتصر فيها الشعب اليوناني في حرب الاستقلال ضد السيطرة العثمانية ....

اما كاليشر فقد تأثر الى ابعد الحدود بالحركة الوطنية في بولندة وايطاليا وهنغاريا . ودعا كلا الكاتبين يهود اوروبا الى محاكاة الحركات القومية والانتفاضات الوطنية التي كانا يشاهدانها والنسج على منوالها في خلق دولة مستقلة لانفسهم في فلسطين" .

" يقول كاليشر في حث اليهود على تقليد الحركات القومية في اوروبا ما يلي : " لنتقتد من قلوبنا بالايطاليين والبولنديين والمجريين الذين تنازلوا عن حياتهم وممتلكاتهم في كفاحهم من اجل استقلالهم الوطني . بينما نحن بني اسرائيل وارثوا القدس واروع ارض نبقى صامتين ودون حراك . يجب ان نخجل من انفسنا ! لقد كافحت جميع الشعوب الاخرى من اجل شرفها الوطني فقط ، وعليه يجدر بنا ان نبذل جهودا اكبر بكثير من ذلك لان واجبنا لا يقتصر على العمل من اجل مجد اجدادنا بل يتعدى ذلك الى مجد الله الذى اختار صهيون "(٢) .

---

(١) ـ المصدر السابق ـ ص ٨٩

(٢) ـ المصدر نفسه ص ٩١

" وكما كان من اهداف الحركات القومية البورجوازية في اوروبا القضاء على التبعثر الذى تركه الاقطاع وخلفته العصور الوسطى كذلك كان هدف الحركة الصهيونية القضاء على التبعثر اليهودى الذى اعتبرته الطبقة الجديدة من مخلفات عصور الاقطاع والقرون الوسطى المظلمة . ومن هنا جاءت دعوة كاليشر الى لم شمل اليهود المبعثرين وجمعهم في وحدة متماسكة في الارض المقدسة "(١) .

"" نلاحظ هنا ان وضع البورجوازية اليهودية في أوربا كان يشبه الى حد ما ، وضع البورجوايات الوطنية في البلاد المستعمرة (بفتح الميم) من حيث ارتباط الاخيرة بالنظام الرأسمالي للدولة الأوروبية المسيطرة ارتباطا عضويا وأساسيا ومن حيث تمرد البورجوازيات الوطنية على البورجوازية الاجنبية السيدة ، ومحاولاتها تحقيق نوع من الاستقلال لنفسها ولسوقها الوطنية . كانت البورجوازية (الوسطى والصغيرة على وجه التحديد) في وضع المستضعف والمضطهد من قبل البورجوازيات الأوروبية المحلية (المسيحيــة) القوية والسيطرة على الدولة القومية وحياتها . وبسبب هذا الضعف النسبي والتبعية لم يكن باستطاعة البورجوازية اليهودية أخذ الطريق الاستقلالية لتحقيق سوقها الوطنيــة . اليهودية الا بالاعتماد على الدول الرأسمالية الاستعمارية الكبرى وبمساعدتها وتحت اشرافها وبالتحالف مع مصالحها الحيويــة "" وكان التحالف بالنسبة للصهيونية عن طريق الخروج من أوروبا .... أما الدول الأوروبية المعنية فقد وجدت في هذا المخرج فائدة داخلية هي امكانية التخلص من منافسة البورجوازية اليهودية ، وفائدة خارجية هي وجود دولة حليفة تابعة في منطقة حيوية "" . "" وهذا وضع يشبه

---

(١) المصدر السابق - ص٩٢

الى حد ما وضع البورجوازية الوطنية الضعيفة في البلاد المستعمرة (بفتح الميم) من حيث علاقتها بالدول المستعمرة (بكسر الميم) وبالصهيونية الرأسمالية العالمية . ولنذكر بهذا الصدد انه مقابل وعد بلفور الانكليزى يوجد ثمة شيء اسمه وعد ماكماهون (الانكليزى ايضا) للشريف حسين ولقادة الحركة الوطنية العربية في ثورتهم ضد الحكم العثماني " .(١)

" الدعوة الصهيونية بأفكارها وبرامجها ، أقرب بكثير الى الحركات القومية العلمانية المحتوى في البلقان وألمانيا منها الى التوراة والتلمود . وجدير بالذكر هنا ان كل حركة من هذه الحركات كان لها " أرضها الموعودة " و " وطنها الام " و " ترابها الوطني المقدس " . وكانت تطمح الى "تحرير أرضها " وتوحيد وتشييد دولتها المنتبة عليها " .

" وكانت كافة الحركات القومية تقول بوجود رابطة " صوفية — رومانسية " تربط هذا الشعب بهذه الارض بالتحديد وليس بغيرها .

وتقول انه ليس باستطاعة الإنسان ان يشعر بالراحة الحقيقية الا فوق أرضه او بالطمأنينة الصحيحة الا اذا تنفس " هواءها " (أرض ألمانيا فوق الجميع ، مطلع النشيد الوطني الالماني المشهور " مصر فوق الجميع " ، حزب مصر الفتاة (١)

" تشكل الدعوة الصهيونية خروجا صريحا عن الدين اليهودى . (تماما كما تشكل الدعوة القومية العربية خروجا عن الاسلام في نظر الاخوان المسلمين) ... لذلك نجد ان رجال الدين اليهودى المتعصبين عارضوا الدعوة الصهيونية وخاصة في

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٠ — ١٠١

(٢) المصدر السابق — ص ١٢٦

البداية (١) .

" لابد من وقفة قصيرة لمناقشة الحكم العام الذي يطلقه أسعد رزوق على الحركة الصهيونية في مطلع كتابة " اسرائيل الكبرى" حيث يقول : ولا غرو فالصهيونية من أبرز الحركات النكوصية في تاريخ العالم الحديث ومنذ العقد الاخير للقرن التاسع عشر اذ ينكشف مضمونها الأخير عن تصميم دقيق على دفع عجلة التاريخ مئات السنين وعشرات القرون الى الوراء . حتى لكأنها تريد للتاريخ ان يعود القهقرى الى أزمنة وأماكن قاصها وتخطاها في رحلته الطويلة ، بدلا من التصالح مع التاريخ على صعيد التطلع نحو المستقبل والانفتاح على مجالاته الرحبة والزاخرة بكل جديد " (اسرائيل الكبرى - ص ١٧) " .

" يكمن الخطأ الاساسي في هذا الحكم في عدم التمييز بدقة بين المضمون التاريخي الواقعي للحركة الصهيونية ومشاريعها وبين بعض مظاهرها الفوقية والخارجية والشكلية هناك اكثر من مظهر يجعلنا نظن ان الصهيونية حركة نكوصية بالمعنى المقصود اعلاه ، استعادة ارض الاجداد ، العودة الى التراث والقيم الروحية اليهودية ، اعادة بناء الهيكل، الى آخر ذلك مما هو معروف ... أي لم تكن الصهيونية تبغي اقامة المجتمع اليهودي والدولة اليهودية على اساس العودة الى نظام الملك سليمان السياسي ، او الارتداد الى تطبيق الوصايا العشر أو العمل بالشرع الموسوي مثلا ، بل كانت تريد دوما اقامة دولة مرتبطة بالقوى الاستعمارية

---

(١) المصدر نفسه - ص ١٢٧

السائدة وذات محتوى بورجوازى رأسمالي عصرى جدا وقائم على آخر منجزات الحضارة الأوروبية الحديثة في كافة الميادين(١)

" ولو كانت الصهيونية حقا حركة نكوصية " تريد للتاريخ ان يعود القهقرى " لفشلت منذ البداية لان قوى التاريخ الحية لاتعود القهقرى(٢) " .

" انه مع صعود الرأسمالية المستمر واشتداد التنافس الاقتصادى في ظلها ظهرت بوادر العداء للسامية التي تحولت فيما بعد الى حركة سياسية شاملة ذات ايديولوجية عرقية شبه متكاملة واحزاب سياسية تدين بهــا . وانتشرت افكار وممارسات العداء للسامية في طبقة النبلاء السائرة في طريق الانحلال والاندثار ، وفي طبقة البورجوازية الصغيرة التي كانت اكثر الطبقات الاجتماعية تأثرا وانفعالا ، بالنسبة لمصالحها ، من جراء التنافس الاقتصادى الضارى مع البورجوازية اليهودية الصغيرة والوسطى ، أما موضوع المنافسة نفسه كان بكل بساطة لقمة العيش " .

" لقد قال انجلز بان ابطال حركة العداء للسامية في عصرهم هم النبلاء وكورسهم هو نباح رعاع البورجوازية الصغيرة " . " وكما ذكرت سابقا ادى هذا الوضع بالبورجوازية اليهودية الصغيرة الى البحث - تحت قيادة البورجوازية المتوسطة وبتحالف مع الرأسمالية الكبيرة - عن سوقها المستقلة لتحرر نفسها من الحصار الاقتصادى المفروض عليها من قبل البورجوازيات المحلية ودولها لتكسر العزلة التي

(١) المصدر السابق - ص - ١٣٦ - ١٣٧
(٢) المصدر نفسه - ص - ١٣٨

انتهت اليها (مقابلة لكل ماهو يهودى ، تمييز عدم تسمي
كافة أوجه نشاط المجتمع من الوظائف الحكومية الى الحفلات
الاجتماعيـــة) ".

" وكان لانتشار فكرة العداء للسامية وما تمليه من مواقف
أثرا كبيرا في تحريك البورجوازية اليهودية الكبيرة للعطف
على الحركة الصهيونية ، وفي دفع البورجوازية اليهودية الوسطى
لقيادتها . لم تكن البورجوازية اليهودية الكبيرة لتهتم
كثيرا بجماهير اليهود الفقيرة وكفاحها اليومي من أجل لقمة
العيش لولا التأثيرات السلبية التي بدأت تمس الاثرياء اليهود
مباشرة وتزعجهم بسبب انتشار العداء للسامية عامـــة (١)".

" من المؤكد ان السلام اليهودى العربي ، واستئنـــاف
العلاقات التجارية ، يمكنهمـــا أن يلعبا دورا حيويا فـــي
صادرات اسرائيـــل في المستقبـــل (٢)".

" ان من شأن السلام اليهودى العربي ومشاركة اسرائيـــل
في التطور الاقليمي أن يعدلا الوضـــع بفضل ايجاد ظروف أفضل
لتطور الصناعة ومختلف فروع الاقتصاد (في اسرائيـــــل)
ان مشاركة كهذه من شأنها أن تفتح سوقا واسعة لاسرائيـــل؛
سوق عشرات الملايين من سكان الشرق الاوسط" .

هذا تعبير صريح وواضح عن المضمون الواقعي والعملـــي
لمعنى السلام العربي — الاسرائيـــلي . أى أن تكون العلاقـــة
بين العرب المتخلفين وبين اسرائيـــل المتقدمة شبيهة شبها تامـــا

---

(١) المصدر السابق — ص — ١٤٣ — ١٤٤

(٢) المصدر السابق ص — ١٠٨

العلاقة القائمة بين الولايات المتحدة الأمريكية وشعوب أمريكا اللاتينية ودولها المتخلفة (١)" .

" تعني التسوية السلمية بالنسبة لاسرائيل سقوط كافة الحواجز والجدران بينها وبين الدول العربية بحيث لا يعود هناك شيء اسمه قطيعة بين الطرفين وتحل محل العلاقات العدائية علاقات ودية من التعاون بدون وسطاء دوليين .... لأن لدى اسرائيل مشاريعها الخاصة للوصاية على منطقة الشرق الاوسط والاشراف عليها لصالحها " . " وقد عبرت غولدا مائير نفسها عن كل ذلك بقولها في احدى المقابلات الصحفية أن السلام بالنسبة لها يعني أن تتمكن من الذهاب في أي وقت الى اسواق القاهرة لتشتري حاجياتها ان هي شاءت ذلك " . " ان قناعتي الشخصية هي أنه اذا تمكنت اسرائيل بواسطة تصلبها ومراوغتها وتهديداتها على طريقة " المفاوضات والحرب " ، من أن تحصل على موافقة عربية مبدئية بالنسبة للمفاوضات وبالنسبة لسقوط الحواجز والجدران بين الطرفين ، فان اسرائيل سوف تكون مستعدة للتنازل عن الشروط القصوى القاسية والتعجيزية التي تفرضها الآن في وجه تحقيق التسوية السلمية . وأنها ستتراجع الى حدود الموقف الامريكي كما جاء في خطة روجرز المشهورة (٢) " .

---

(١) المصدر السابق — ص ١٠٩ — ١١٠

(٢) ش.ف — عدد ٤ — سبتمبر (أيلول) ١٩٧١ ص ٧٨ — ٧٩

المصادر والمراجع

أولا ـ المصادر :

١)= العظم (صادق جلال) ، دراسات يسارية حول القضية الفلسطينية ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٧٠ .

٢)= العظم (صادق جلال) ، الفكر السياسي المعاصر ـ مطبعة خالدبن الوليد دمشق ، ١٩٨١ ـ ١٩٨٢ .

٣)= مجلة شؤون فلسطينية ، عدد (٤) ، أيلول (سبتمبر) ١٩٧١ .

ثانيا ـ المراجع : *

آ ـ المراجع العربيــة :

١)= الهندي (هاني) ، حول الصهيونية واسرائيل ، دار الطليعة بيروت ١٩٧١

٢)= شؤون فلسطينية ، عدد ٣١ ، آب ١٩٧٤ .

٣)= محمود (أمين عبد الله) ، مشاريع الاستيطان اليهودي ، المجلس الوطني للثقافة والآداب ـ الكويت ١٩٨٤ .

٤)= ليون (ابراهام) ، المفهوم المادي للمسألة اليهودية ، ترجمة عماد نويهض ، طبعة أولى ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٩ .

٥)= ماركس ونقده للسياسة ، ترجمة جوزيف عبد الله ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١

٦)= باور ، ماركس حول المسألة اليهودية ، ترجمة الياس مرقص ، دار الحقيقة ، بيروت ، بدون تاريخ .

٧)= دويتشر (اسحق) ، دراسات في المسألة اليهودية ، ترجمة مصطفى الحسيني دار الحقيقة ، بيروت ١٩٧١ .

٨)= ايفانوف (يوري) ، احذروا الصهيونية ، منشورات نوفوستي ١٩٦٦ .

٩)= دراسات عربية ، ١٠ آب (أغسطس) ١٩٨٣ .

١٠)= العروي (عبد الله) ، الايديولوجيا العربية المعاصرة ، دار الحقيقــة ، بيروت ١٩٧٠ .

١١)= مرقص (الياس) ، الماركسية والمسألة القومية ، دار الحقيقة ، بيروت ١٩٧٠ .

---

* ـ تم ترتيب المراجع حسب تسلسل ورودها في البحث .

١٢ = الطبقات والصراع الطبقي ، ترجمة فؤاد المرعي ، منشورات دار الفجر ، بدون تاريخ ؟

١٣)= مرقص (الياس) ، الماركسية والشرق ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٨ .

١٤)= شؤون فلسطينية ، عدد (٩) ، مايو (أيار) ١٩٧٢ .

١٥)= حمدان (جمال) ، اليهود انتروبولوجيا ، دار الكاتب العربي ١٩٦٧ .

١٦)= أمين (بديهمه) ، المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٤

١٧)= المسيرى (عبد الوهاب) ، الايديولوجيا الصهيونية ، ج ٢ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون ، الكويت ١٩٨٣ .

١٨)= رزوق (اسعد) ، الصهيونية وحقوق الانسان العربي ، ج ١ ، مركز الابحاث بيروت ١٩٦٨ .

١٩)= رزوق (أسعد) ، الدولة والدين في اسرائيل ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٦٨ .

٢٠)= لينين ، المختارات ، ج٢ ، دار التقدم ، موسكو ١٩٦٦ .

٢١)= لينين ، نصوص حول المسألة اليهودية ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة بيروت ١٩٧٢ .

٢٢)= علوش (ناجي) ، الماركسية والمسألة اليهودية ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٩ .

٢٣)= منصور (كميل) ، الصهيونية المستجدثه ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧١ .

٢٤)= رودنسون (مكسيم) ، اسرائيل ، واقع استعماري ؟ ترجمة احسان الحصني ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٦٧ .

٢٥)= الفكرة الصهيونية ، النصوص الاساسية ، ترجمة لطفي العابد وموسى عنز ، تعريف أسعد رزق ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٠ .

٢٦)= مجلة شؤون عربية ، عدد ٢٦ ، نيسان ١٩٨٣ .

٢٧)= هوركهايمر (ماركس) ، بداية فلسفة التاريخ البورجوازى ، ترجمة محمد علي اليوسفي ، دار التنوير ، بيروت ١٩٨١ .

٢٨)= التوسير (لويس) ، دراسات لا أنسانوية ، ترجمة سهيل القش ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٨١ .

٢٩)= صايغ (يوسف عبد الله) ، الاقتصاد الاسرائيلي ، طبعة ثانية ، مركز الابحاث بيروت ١٩٦٦ .

٣٠)= هيلل (مارك) ، اسرائيل في خطر من السلام ، ترجمة ادارة التوجيه المعنوي دمشق ١٩٧٠ .

٣١)= المؤتمر الصهيوني السابع والعشرون ، ج ٢ ١٩٦٨ ، مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية بالاهرام ، القاهرة ١٩٧١ .

٣٢)= انجلز (فريدريك) ، لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانيــة دار التقدم ، موسكو ١٩١٧ .

٣٣)= بن بورات وأوري دان ، الميراج تواجه الميغ ، ترجمة ادارة التوجيه المعنوي دمشــق ١٩٦٨ .

٣٤)= باريون (ياكوب) ، ماهي الايديولوجيا ؟ ، تعريب أسعد رزوق ، الدار العلمية بيروت ١٩٧١ .

٣٥)= لوفيفــر (هنري) ، ماركس وعلم الاجتماع ، ترجمة بدر الدين قاسم الرفاعـــي منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧١ .

٣٦)= شؤون فلسطينية ، عدد ١٥ ، تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٧٢ .

٣٧)= شــؤون فلسطينية ، عدد ١٠ ، حزيران (يونيو) ١٩٧٢ .

٣٨)= شــؤون فلسطينية ، عدد ١٣ ، أيلول (سـبتمبر) ١٩٧٢ .

٣٩)= مجلة الطليعة المصرية ، عدد ١٢ تشرين أول (ديسمبر) ١٩٧١ .

٤٠)= الاهرام (١٩٦٩/٣/١) .

٤١)= الاهرام (١٩٦٩/٤/٢٣) .

٤٢)= صايغ (هيلدا شعبان) ، التمييز ضد اليهود الشرقيين في اسرائيل مركز الابحاث بيروت ١٩٧١ .

٤٣)= مجلة الارض ، العدد الاول (١٩٨٣/٩/٢١) .

٤٤)= الســياسة الدولية ، عدد (٣٣) ، تموز (يوليو) ١٩٧٣ .

٤٥)= مجلة الارض ، عدد ٨ (١٩٨٠/١/٧) .

٤٦)= مجلة الارض ، عدد ٩ (١٩٨٣/١١/٧) .

٤٧)= دراسات عربية ، عدد ٩ ، تموز (يوليو) [illegible] .

٤٨)= دراسات عربية ، عدد ٨ ، حزيران (يونيو) ١٩٦٨ .

٤٩)= مجلة الارض ، عدد ٥ (١٩٨٣/١١/٢١) .

٥٠)= مجلة الارض ، عدد ٦ (١٩٨٣/١٢/٧) .

٥١)= صحيفة القبس (١٩٨٣/٢/١٩) .

٥٢)= موروا (أندريه) ، سيرة دزرائيلي ، ترجمة مترى نعمان ، المنشورات العربية ، بدون تاريخ .

٥٣)= اسرائيل خنجر أمريكا ، مؤسسة الارض للدراسات الفلسطينية ، دمشق ١٩٧٩ .

٥٤)= رزوق (أسعد) ، التلمود والصهيونية ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٢ .

٥٥)= شؤون فلسطينية ، عدد ٩ ، أيار (مايو) ١٩٧٢ .

٥٦)= الصهيونية والعنصرية بين الفكر والممارسة ، مؤسسة الارض للدراسات الفلسطينية ، دمشق ١٩٨٠ .

٥٧)= شؤون فلسطينية ، عدد ١٥ ، تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٧٢ .

٥٨)= شؤون فلسطينية ، عدد ٢ ، أيار (مايو) ١٩٧١ .

٥٩)= كنفاني (غسان) ، في الادب الصهيوني ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٦٧ .

٦٠)= الراهب (هاني) ، الشخصية الصهيونية في الرواية الانكليزية ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٧٤ .

٦١)= هلسه (تهاني) ، دافيد بن غوريون ، مركز الابحاث ، بيروت ١٩٦٨ .

٦٢)= شؤون فلسطينية ، عدد ٢٩ ، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٤ .

٦٣)= ليون (ابراهام) ، المفهوم المادي للمسألة اليهودية ، ترجمة عماد نويهض ، طبعة ثانية ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٣ .

٦٤)= سبينوزا ، رسالة في اللاهوت والسياسة ، ترجمة حسن حنفي ، الهيئة العامة المصرية للتأليف والنشر ١٩٧١ .

٦٥)= طرابيشي (جورج) ، الماركسية والايديولوجيا ، دار الطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧١ .

٦٦)= ماركس (كارل) ، رأس المال ، نقد الاقتصاد السياسي ، ترجمة انطون حمصي ، منشورات وزارة الثقافة ، الكتاب الاول ، ج ١ ،ط٢ ، دمشق ١٩٧١ .

٦٧)= الخطر اليهودي ، بروتوكولات حكماء صهيون ، تقديم وترجمة محمد خليفه التونسي ، الكتاب العربي ، بيروت - بدون تاريخ .

٦٨)= ماركس ، انجلز ، الايديولوجيا الالمانية ، ترجمة فؤاد أيوب ،دار دمشق - بدون تاريخ .

٦٩)= الاهرام (١٩٧٠/٤/١٣) .

٧٠)= الاهرام (١٩٧٠/٥/٢) .

٧١) = الثورة - عدد ؟؟ (١٩٨٤/٨/٧)

ب - المراجع الاجنبيــــة :

١)= فادية (ميشيل) ، الايديولوجيا ، المنشورات الجامعية في فرنسا ١٩٧٣ .

٢)= أفنيري (اوري) ، اسرائيل بدون صهيونية ، منشورات دو سوى ١٩٦٩ .

٣)= بليايف (يوري) ، اليوم السابع كاليوم الاول ، دار النشر العسكرية ،موسكو ١٩٧٩ (مسودة غير منشورة) .